# الهدي النبوي
# في رمضان

ح محمد بن عبدالله المقدي، ١٤٣٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المقدي، محمد بن عبدالله

الهدي النبوي في رمضان/ محمد بن عبدالله المقدي ، الدمام: ١٤٣٥هـ

١٦٨ص؛ ١٧,٢ x ٢٤,٥سم

ردمك: ٢-٥٧٤٠-٠١-٦٠٣-٩٧٨

١- التصوف ٢- الصوم ٣- السيرة النبوية

أ. العنوان ديوي ٢٥٢,٣ ١٤٣٥/٦٧٦٣

رقم الإيداع: ١٤٣٥/٦٧٦٣

ردمك: ٢-٥٧٤٠-٠١-٦٠٣-٩٧٨

الحقوق محفوظة

١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

# مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد...

فإن الحديث عن نبينا وحبيبنا محمد رسول الله ﷺ حديث تنشرح له الصدور، وتتشوق له النفوس، فإن الحديث يطيب بذكره والقلوب تهفو بمحبته والآذان تصغى لحديثه، كيف لا وهو ﷺ سيد ولد آدم، وخاتم النبيين، بعثه الله تعالى ليخرج البشرية من الظلمات إلى النور، ويهديها إلى الطريق المستقيم.

بعث الله محمدا ليكون سراجا منيرا يضيء للعالم الطريق الصحيح إلى السعادة في الدنيا والآخرة، وجعله سبحانه أسوة لنا، {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب: ٢١]، فكان خير الهدي هدي محمد ﷺ، فمن اتبع هداه سار على الطريق القويم حتى يلقى الله، ومن أعرض عنه فهو في طريق الخسران.

وهذه الرسالة التي بين أيديكم هي محاولة لتتبع هدي النبي ﷺ في شهر رمضان المبارك، نعيش فيها مع النبي ﷺ كل ليلة، ونقف على هديه وسمته، ونتعلم من علاقته مع الله، نتعلم من صلاته وصيامه وقيامه، نتعلم من شجعاته، نتعلم من معاملته لأهل بيته ولأصحابه.

وعندما تتعرف على هدي النبي ﷺ سيتكشف لك أن الدين هو منهج حياة، وأن الله منَّ علينا وأرسل لنا رسولا نقتدي به ونتعلم منه في المواقف المختلفة،{لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [آل عمران: ١٦٤].

**فكيف كان هدي النبي ﷺ في رمضان؟**

# محمد ﷺ الخلْق والخُلُق

كانَ ﷺ يمتازُ بكمالِ خُلُقِه وجمالِ خِلْقَتِه بما لا يحيطُ بوصفِه البيانُ، ففاضتِ القلوبُ بإجلالِه وتفانى الرجالُ في إكبارِه.

## خِلْقَته ﷺ:

كان ﷺ جميلًا وضّاءَ الوجه، طَلْقَ المُحَيَّا كالقمرِ ليلةَ البدرِ، عذبَ المنطقِ، حلوَ المَبْسَمِ، أزهرَ أكحلَ، مهابًا، عليهِ جلالُ الرسالةِ، وهيبةُ النبوةِ.

وصفَهُ المقربونَ منْ صحبِه كزوجاتِه وبعضِ أهلِه وخدمِه رضوانُ الله عليهم أجمعينَ، فقلَّما ذكرَ غيرُهم وصفًا لجبلتِه؛ لَمَّا استنارتْ قلوبُهم بهديه، فأذهلَ سناءَ عيونِهم عن نعتِه عليه أفضلُ الصلاةِ وأزكى السلامِ.

عن البراءِ بن عازبٍ رضي الله عنه قال: (كانَ رسولُ اللهِ ﷺ أحسنَ الناسِ وجهًا وأحسنَه خَلْقًا، ليسَ بالطويلِ البائنِ ولا بالقصيرِ)[١].

وعنه رضي الله عنه قال: (كانَ النبيُّ ﷺ مربوعًا بعيدًا ما بين المنكبين، له شعرٌ يبلغُ شحمةَ أذنِه، رأيتُه في حلةٍ حمراءَ لم أر شيئًا قطُّ أحسنَ منهُ)[٢].

وسئل البراء أكان وجهُ النبيِّ ﷺ مثلَ السيف؟

قال: (لا، بل مثلُ القمرِ)[٣].

وعنْ كعبِ بن مالكٍ قال: (كانَ رسولُ اللهِ ﷺ إذا سُرَّ استنارَ وجهُهُ حتى كأنه قطعةَ قمرٍ)[٤].

وكان ﷺ كما وصفته (أم معبد) رجلًا ظاهرَ الوضاءةِ، أَبْلَجَ الوجهِ [مشرقُ الوجهِ وضيءٌ]، حسنَ الخلق، لم يعبْهُ نحولُ الجسمِ، وسيمٌ قسيمٌ [حسن وضيء]، في عينيهِ

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٣٣٥٦)، ومسلم (٦٢٣٥).
(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٦٢١٠).
(٣) رواه البخاري (٣٣٥٩).
(٤) متفق عليه، رواه البخاري (٣٣٦٣)، ومسلم (٧١٩٢).

[سواد]، طويل شعرِ الرموشِ، وفي صوتِه [بحة وحسن]، وفي عنقه [طول]، وفي لحيته كثاثة، [حاجباه طويلان ومقوسان ومتصلان].

إن صمتَ فعليه الوقارُ، وإن تكلمَ عَلَاهُ البهاءُ، أجملُ الناس وأبهاهم من بعيد، وأحسنُهم وأجملُهم من قريب، حلوُ المنطقِ، فصلًا لا نَزَرَ ولا هَذَرَ [كلامه بَيِّنٌ وسطٌ ليس بالقليل ولا بالكثير]، كأن مَنطِقَه خرازاتِ نظم يتحدرن، رَبْعَةٌ لا يَأْسَ مِنْ طُولٍ، وَلا تَقْتَحِمُهُ عَيْنٌ مِنْ قِصَرٍ [ليس بالطويل البائن ولا بالقصير]، غُصْنٌ بَيْنَ غُصْنَيْنِ، فَهُوَ أَنْضَرُ الثَّلاثَةِ مَنْظَرًا، وَأَحْسَنُهُمْ قَدْرًا، لَهُ رُفَقَاءُ يَحُفُّونَ بِهِ، إِنْ قَالَ: أَنْصَتُوا لِقَوْلِهِ، وَإِنْ أَمَرَ تَبَادَرُوا لأَمْرِهِ، مَحْشُودٌ مَحْفُودٌ [عنده جماعة من أصحابه يطيعونه]، لا عَابِسٌ وَلا مُفَنَّدٌ [غير عابس الوجه وكلامه خال من الخرافة].

لما سمع أبو معبد قولها قال: هذا والله صاحبُ قريشٍ الذي ذُكِرَ لنا من أمرهِ ما ذُكر، ولقد هَمَمْتُ أنْ أَصْحَبَهُ، ولأفعلنَّ إن وجدتُ إلى ذلك سبيلًا، وأصبحَ صوتُه بمكةَ عاليًا، يسمعونَ الصوتَ ولا يدرونَ من صاحبُه وهو يقول:

جَزَى اللَّهُ رَبُّ النَّاسِ خَيْرَ جَزَائِهِ ... رَفِيقَيْنِ حلَّا خَيْمَتَيْ أُمِّ مَعْبَدِ

هُمَا نَزَلاهَا بِالْهُدَى وَاهْتَدَتْ بِهِ ... فَقَدْ فَازَ مَنْ أَمْسَى رَفِيقَ مُحَمَّدِ[1].

**وقد وصفه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال:**

إذا مشى تقلَّع كأنما يمشي في صَبَب [يمشي بقوة وسرعة]، وإذا التفتَ التفتَ معًا، بين كتفيْه خَاتِمُ النبوةِ - وهو خاتِمُ النبيينَ - أجودُ الناسِ كفًّا، وأجرأُ الناسِ صدرًا، وأصدقُ الناسِ لهجةً، وأوفى الناس ذمةً. [ألينُهم خلقًا وأسلمُهم]، وأكرمُهم عِشْرة، من رآه [مفاجأة] هابَهُ، ومن خالَطَه معرفةً أحبَّه، يقول ناعِتُهُ: لم أَر قبلَه ولا بعدَه مِثْلَهُ ﷺ[2].

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٤٢٧٤)، وصححه الألباني في فقه السيرة (١٦٨).
(٢) رواه الترمذي (٣٦٣٨) وابن هشام (١/ ٤٠١ - ٤٠٢).

## خُلُقه ﷺ:

وكان ﷺ مع جمالِ خِلْقَتِه جميلًا في أخلاقِه، وهو القائلُ: (**إنما بعثتُ لأتمِّمَ مكارمَ الأخلاقِ**)[١].

كان ﷺ **أحسنَ الناسِ خُلُقًا** وأكرمُهم وأتقاهمْ، وقدْ شهدَ لهُ بذلكَ ربُّه جلَّ وعلا وكفي بها فضلًا، قال تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: ٤].

يقول خادمُه أنس رضي الله عنه: (كان النبي ﷺ أحسنَ الناسِ خُلُقًا)[٢].

وتقول زوجُه صفيةُ بنت حيي رضي الله عنها: (ما رأيتُ أحسنَ خُلقًا من رسول الله ﷺ)[٣].

وكان ﷺ **أفضلَ قومه مروءةً**، وأحسنَهم خلقًا، وأعزَّهم جوارًا، وأعظمَهم حِلمًا، وأصدقَهم حديثًا، وأعفَّهم لسانًا، وأكرمَهم يدًا، وأبرَّهم عملًا، وأوفاهم عهدًا، وآمَنَهم أمانةً، حتى سماه قومُه (الأمينَ) لما جمعَ فيه من الخصالِ الصالحة.

كان **سيدَ المتواضعين**، فكان يكره المدحَ وينهى عن إطرائِه ويقولُ: (**لا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابنَ مريمَ، فإنما أنا عبدُه؛ فقولوا عبدُ اللهِ ورسولِه**)[٤].

وكان لا يأنفُ أن يمشيَ مع الأرملةِ والمسكينَ فيقضي له الحاجةَ[٥].

كان **حَيِيًّا**، بلغَ حياؤُه الذروةَ العليا والقمةَ السامقةَ، يدركه المرءُ لأول وهلة، ويظهرَ في وجهِه الشريفِ ﷺ، يقول أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: كانَ رسولُ الله ﷺ أشدَّ حياءً من العذراءِ في خدرِها [ستر يجعل للبكر في جانب البيت]، وكانَ إذا كره شيئًا عرفنَاه في وجهِه)[٦].

كان **رحيمًا**، بلغت رحمتُه مداها، وهو الذي قال الله فيه: {**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**} [التوبة: ١٢٨]، شملت رحمتُه

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٤٢٢١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٥).
(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٥٨٥٠)، ومسلم (٢١٥٠).
(٣) رواه الطبراني في الأوسط (٦٥٧٨).
(٤) رواه البخاري (٣٢٦١).
(٥) رواه النسائي، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (١٤١٤)
(٦) متفق عليه، رواه البخاري (٥٧٥١)، ومسلم (٦١٦٧).

الضعفاءَ والمساكينَ، والأطفالَ والصبيانَ، بل وشملت الحيوانَ، فهو القائل: (**اتَّقُوا اللهَ في هذه البهائم المُعْجَمَة؛ فَاركَبوها صَالِحة، وَكُلُوهَا صالحة**)[١]، بل وشملت الجمادَ أيضًا فهو الذي احتَضنَ جذعَ النخلةِ عندما حنَّ لاتخاذ النبي ﷺ منبرًا، وقال: (**لَوْ لَمْ أَحْتَضِنْهُ لَحَنَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**)[٢].

وكان ﷺ **أشجعَ الناس** وأثبتَهم قلبًا، وكان الشجعانُ يتقونَ به إذا اشتدَّ البأسُ، قال البراء: (كنَّا واللهِ إذا احمرَّ البأسُ نتقي به، وإن الشجاعَ منا للذي يحاذي به ـ يعني النبي ﷺ)[٣]، وقال ابن عمر: (ما رأيت أحدًا أنجدَ [أسرع في النجدة]، ولا أجودَ، ولا أشجعَ، ولا أضوأَ وأوضأَ من رسولِ الله ﷺ)[٤].

كما تميز ﷺ **بفصاحة اللسانِ**، وبلاغةِ القولِ، وسلاسةِ الطبعِ، وجزالةِ الكلامِ وصحةِ المعاني، وقلةِ التكلفِ، وأوتي جوامعَ الكلم.

نقيَّ النفسَ والروحَ، يعفو عند المقدرةِ، ويصبرُ على المكاره، يزدادُ صبرًا مع كثرةِ الأذى، ويزدادُ حِلمًا على إسرافِ الجاهلِ.

كان عادلًا، عفيفًا، كريمًا، صادقًا، وكان أبعدَ الناسِ غضبًا مالم تُنتهك محارمُ الله، يفي بالعهودِ ويصلُ الرحمَ.

كان أحسنَ الناسِ عشرةً وأدبًا، وأبسطَهم وأبعدَهم عن سيئِ الأخلاقِ، لا يجزي السيئةَ بالسيئةِ ولكن يعفو ويصفحُ، ولا يدعُ أحدًا يمشي خلفَه، ولا يترفعُ على عبيدِه وإمائِه في مأكلٍ أو ملبسٍ، ويخدمُ من خدمَه ولم يقلْ لخادمِه أفٍ قط، ولم يعاتبْه على فعلِ شيءٍ أو ترْكِه.

يحبُ المساكينَ ويجالسُهم ويشهدُ جنائزَهم، ولا يحقر فقيرًا لفقره، لا يذمُّ ولا ينمُّ ولا يغتابُ، ولا يتحدثُ إلا بما فيه ثوابٌ.

كان دائمَ البشرِ، سهلَ الخُلقِ لينَ الجانبِ، ليس بفظٍ ولا غليظٍ، ولا صخَّابٍ ولا فحَّاشٍ ولا عتَّابٍ ولا مداحٍ، يتغافلُ عما لا يشتهي.

---

(١) رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح أبي داوود (٢٥٤٨).
(٢) رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٤١٥).
(٣) رواه مسلم (٤٧١٦).
(٤) رواه الدارمي (٥٩).

إذا تكلم أطرقَ جلساؤه، كأنما على رؤوسهم الطيرُ، وإذا سكتَ تكلموا، لا يتنازعون عنده الحديثَ، من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغَ، حديثهم حديثَ أولِهم، يضحكُ مما يضحكونَ منه، ويعجبُ مما يعجبونَ منه، ويصبر للغريبِ على الجفوةِ في المنطقِ، ويقول: (إذا رأيتم صاحبَ الحاجة فأرفدُوه).

مرَّتِ الإنسانيةُ بفترة طويلة بعد رفع عيسى إلى السماءِ، وانطفأ نورُ رسالته شيئًا فشيئًا حتى عمَّ الظلامُ أرجاءَ الكونِ، وبات الناسُ يتخبَّطون في غَيَابات الجهلِ، تهوِي بهم ريحُ الظلم في وادٍ سحيقٍ، ولم يَبْقَ في ساحات العالم وطرقاته إلا طيفُ قناديل واجمةٍ لبقايا أهلِ الكتابِ هرعوا بها إلى رؤوسِ الجبالِ. في ذلك التاريخ المخيفِ، وليله الثقيلِ، والأرضُ تحيط بجيدِها أيادي الموت، بَزَغَ نور الفجر، وتراجع الليلُ يجرُّ أذيالَ الهزيمةِ، فقُطعت أيادي الظلم، وتساقطت الشرفاتُ الزائفةُ، وكُسِرَ إيوانُ القهر، وأُطفئت نيران العبوديةِ، ببعثته ﷺ.

أرسله الله بالهدى ودين الحق بين يدي الساعةِ بشيرا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا فختمَ به الرسالةَ؛ وهدى به من الضلالةِ؛ وعلم به من الجهالةِ وفتح برسالته أعينًا عميًا وآذانًا صمًّا وقلوبًا غلفًا، فأشرقت برسالتِه الأرضُ بعد ظلماتها؛ وتألفتْ بها القلوبُ بعد شتاتِها فأقامَ بها الملةَ العوجاءَ وأوضح بها المحجةَ البيضاءَ وشرح له صدره؛ ووضع عنه وزره؛ ورفع ذكره؛ وجعلَ الذلةَ والصغارَ على من خالفَ أمرِه أرسلَهُ على حين فترة من الرسلِ ودروسٍ من الكتبِ حين حُرفَ الكلمُ وبُدلتِ الشرائعُ، واستند كل قوم إلى أظلم آرائِهم وحكموا على الله وبين عباده بمقالاتِهم الفاسدةِ وأهوائِهم، فهدى الله به الخلائقَ وأوضحَ به الطريقَ وأخرجَ به الناسَ من الظلمات إلى النورِ؛ وأبصرَ به من العمى؛ وأرشدَ به من الغي وجعله قسيم الجنة والنار، وفرق ما بين الأبرار والفجار؛ وجعل الهدى والفلاح في اتباعه وموافقته[1].

(١) الفتاوى ١٩/١٠٢.

صحيحٌ ما رأيتُ النورَ من وجهِكْ
ولا يومًا سمعتُ العذبَ من صوتِكْ
ولا يومًا حملتُ السيفَ في رَكبِكْ
ولا يومًا تطايرَ من هنا غضبي
كجمرِ النارْ
ولا حاربتُ في أُحُدٍ، ولا قَتَلتُ في بدرٍ .. صناديدًا من الكفَّارْ
وما هاجرتُ في يومٍ ولا كنتُ .. من الأنصارْ
ولا يومًا حملتُ الزادَ والتقوى لبابِ الغارْ
ولكنْ يا نبيَّ اللهْ .. أنا واللهِ أحببتُكْ
لهيبُ الحبِّ في قلبي .. كما الإعصارْ

## فضل رمضان وبركته

كان ﷺ يبشرُ أصحابَه بقدوم رمضانَ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يبشرُ أصحابَه يقول: (**قَدْ جَاءَكُمْ رَمَضَانُ، شَهْرٌ مُبَارَكٌ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ صِيَامَهُ، تُفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَتُغْلَقُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَحِيمِ، وَتُغَلُّ فِيهِ مَرَدَةُ الشَّيَاطِينِ، لِلَّهِ فِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ مَنْ حُرِمَ خَيْرَهَا فَقَدْ حُرِمَ**)[١].

فكان ﷺ يحتفي باستقبالِ شهرِ رمضانَ المبارك، ويُهَيِّئُ أصحابَه رضي الله عنهم للاجتهادِ فيه بذكرِ خصائِصِهِ وتضاعيفِ الأجورِ فيه وفضلِه، وهكذا ينبغي أن يسير دعاةَ الحق وحراسَ الفضيلةِ على هذه السنةِ العظيمة، وأن يبشروا الناس برمضانَ ويعرفوهم بفضله وبركاته، ويدلُّوهم على حسنِ استثمارِ أوقاتِه وتحصيلِ حسناته؛ ليعمَّ البشرَ والسعادةَ، ويذيعَ الفرحَ والأنسَ بقدوم هذه الطاعةِ، وتكون النفوسُ أكثرُ ما تكون تهيؤًا لها، واشتغالًا بالبحثِ عن الكيفياتِ المثلى لاستثمارِها والجَنْيِ من حسناتِها، بدلًا من الانغماسِ في توفيرِ الملذاتِ والعنايةِ بالمطعوماتِ بصورةٍ كادت أن تنزلَها في موقعِ الغاياتِ، فضعفتْ بذلك مقاصدُ الصيام، وفاتَ أكثرُها على كثير من المسلمينَ، نسأل ربَّنا الرحمن الهدايةَ والسداد[٢].

لقد جاءكم شهرُ رمضان، شهرُ الخيرِ والبرِّ والإحسان، وأطلَّت عليكم لياليَ الجودِ والغفران، وأهلَّ عليكم هلالُه المباركُ الذي طالما تاقت له النفوس، وهفتْ إليه الأرواحُ، وسُكبت لمَقْدَمِه العبراتُ، هلالٌ مباركٌ كان النبي ﷺ ينتظرُه بفارغِ الصبرِ والترقب، حتى إذا ما انبثقَ وظهرَ في طرفِ السماءِ استبشر ﷺ قائلًا: (**اللَّهُمَّ أَهِلَّهُ عَلَيْنَا بِالْيُمْنِ وَالْإِيمَانِ وَالسَّلَامَةِ وَالْإِسْلَامِ رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ**)[٣].

جاءَ رمضانُ بما فيه من خيرٍ وبركة، جاءَ رمضانُ يحمل البشريات للعاملينَ، ويُبْهِجُ بطيبِ أيامه قلوبَ المتقينَ، جاء رمضانُ فرصةً للعابدينَ، جاء رمضانُ ليغسلَ ذنوبَ

(١) رواه أحمد (٩٤٩٧) وصححه شعيب الأرنؤوط.
(٢) هكذا كان النبي ﷺ في رمضان، فيصل بن علي البعداني، ص١٤-١٥، بتصرف يسير.
(٣) رواه أحمد (١٣٩٧) وحسنه شعيب الأرنؤوط بشواهده.

التائبين النادمينَ، جاء رمضانُ ليرفعَ في الجنةِ درجاتِ المحبينَ الصادقينَ، جاء رمضانُ فهل من مشمرٍ؟ جاء رمضانُ فإليكم بعضُ مناقبِه، لعلكم تَقْدُرُونَ الضيفَ قَدْرَه، لعلكم تعرفونَ مكانَتَه وفضلَهُ.

كان ﷺ يقولُ لأصحابِه فيما يرويه عن ربه: (**كلُّ عملِ ابن آدمَ له إلا الصومُ فأنه لي وأنا أجزي به**)[١].

وكانَ ﷺ يقولُ لأصحابه: (**الصيامُ والقرآنُ يشفعان للعبدِ يومَ القيامةِ، يقول الصيام: أي ربِّي منعتُه الطعامَ والشهوةَ فشفعني فيه، ويقولُ القرآنُ: منعتُه النومَ بالليلِ فشفعني فيه، قال: فيشفعان**)[٢].

وكان ﷺ يقولُ لأصحابه: (**إن في الجنةِ غرفًا، يُرى ظاهرُها من باطنِها، وباطنُها من ظاهرِها، أعدها اللهُ لمن أطعمَ الطعامَ وألانَ الكلامَ وتابعَ الصيامَ وصلى والناس نيام**)[٣].

ورمضانُ هو الشهر الذي اختاره الله واصطفاه ليكون **ميقاتًا لنزول كتبه ورسالاته**، قال رسول الله ﷺ: (**أُنْزِلَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامِ فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَتْ التَّوْرَاةُ لِستٍّ مَضَيْنَ مِنْ رَمَضَانَ، وَالْإِنْجِيلُ لِثَلَاثَ عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَ الْفُرْقَانُ لِأَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ**)[٤].

وقد اختصه الله تعالى **بنزول القرآن**، قال تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ} [البقرة: ١٨٥].

قال ابن جرير الطبري: (نزلَ القرآنُ من اللوحِ المحفوظِ إلى سماءِ الدنيا في ليلةِ القدرِ من شهرِ رمضانَ، ثم أنزلَ إلى محمدٍ ﷺ على ما أراد الله إنزاله إليه.

وعن ابن عباس: أُنزلَ القرآنُ في ليلةِ القدرِ من السماءِ العليا، جملةً واحدةً، ثم فرِّق في السنين بعدُ. قال: وتلا ابن عباس هذه الآية: {فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ} [الواقعة: ٧٥] قال: نزل مفرقًا)[٥].

(١) رواه البخاري (٥٥٨٣)، ومسلم (٢٧٦٣).
(٢) رواه أحمد (٦٦٢٦) وصححه الالباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٤٢٩).
(٣) رواه الترمذي، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (١٩٨٤).
(٥) رواه أحمد (١٦٩٤٨) وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٧٥).
(٦) تفسير الطبري (٢/١١٤-١١٥).

وكان جبريلُ عليه السلام يلقى النبيَّ ﷺ كلَّ ليلة في رمضان، يعرض عليه النبيُّ ﷺ القرآنَ، وفي العام الذي توفي فيه ﷺ عارَضَه جبريلُ القرآنَ مرتين[١].

فالقرآنُ كتابُ هذه الأمةِ، هو روحُها وباعثُها، وقوامُها وكيانُها، وهو حارسُها وراعيها، هو بيانها وترجمانُها، هو دستورُها ومنهجُها، وهو زادُ الطريق.

ولكن (سيظلُ هناك حاجزٌ سميكٌ بين قلوبنا وبين القرآنِ طالما نحن نتلوه كأنَّه مجردُ تراتيلَ تعبدية، لا علاقةَ لها بواقعِ الحياةِ البشريةِ، بينما هذه الآيات نزلت لتواجه نفوسًا ووقائعَ وأحداثًا حية، لقد خاضَ بهذه الأمة معركةً كبرى حوَّلت تاريخها وتاريخَ البشريةِ كلِّها معها، ولكنه مع هذا يعايشُ ويواجهُ ويملك أن يوجه الحياةَ الحاضرةَ، وكأنما هو يتنزلُ اللحظةَ الأخيرةَ لمواجهة الجماعةِ المسملةِ في شئونها الجارية وفي صراعِها الراهن، وفي معركتِها كذلك في داخلِ النفسِ وفي عالمِ الضمير)[٢].

فنحن في حاجةٍ لتعاملٍ مختلفٍ مع القرآن، نقرأوه لنطبقَه، لا يكون همُّنا كم مرةٍ ختمت، ولكن همَّنا كم آيةٍ طبقت.

وفي رمضانَ كان ﷺ **أجودَ ما يكون**، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كان رسول الله ﷺ أجودَ الناس، وكان أجودَ ما يكون في رمضانَ حين يلقاه جبريلُ، وكان يلقاه في كل ليلةٍ من رمضانَ فيدارسه القرآن، فلَرسول الله ﷺ أجودُ بالخير من الريحِ المرسلةِ)[٣].

وكان ﷺ لا يرد سائلًا إلَّا ألَّا يجد، حتى إنه ربما سأله رجلٌ ثوبَه الذي عليه؛ فيدخل بيته ويخرج وقد خلع الثوبَ فيعطيه السائل[٤].

ويعطي ﷺ عطاءَ من لا يخشى الفقرَ، فقد حدث أن أعطى غنمًا بين جبلين[٥].

---

(١) رواه البخاري (٣٤٢٦).
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٣٤٨/١) بتصرف.
(٣) متفق عليه، رواه البخاري (٣٠٤٨)، ومسلم (٦١٤٩).
(٤) رواه مسلم (٢٣١٢).
(٥) رواه مسلم (٦١٦٠).

فرمضانُ شهرُ الجودِ والبذلِ والعطاءِ، فالصدقةُ تطهرُ نفسَ المؤمن وماله، وتحفظ عليه النعمةَ، وتدفع عنه الآفاتِ والمصائبَ وتقيه مصارعَ السوء، وتكون حارسًا عظيمًا على نفسِه وأهلِه، وبالصدقةِ تأتلفُ القلوبُ وتزول الضغائنُ، حتى يستشعر المؤمنُ حلاوةَ الإسلام الذي دفعَ الغنيَّ لا للتصدقِ على الفقير، إنما لإعادةِ حقِّه الذي فرضه ربنا سبحانه في مالِ الغني، فلنحسنْ إلى فقرائِنا، ولننشلهم من مذلةِ المسألة، ولنشعرهم بالعزةِ والكرامةِ وحياةِ الشرفاءِ.

وحبذا لو كانت الصدقةُ في السرِّ، فقد جاء في الحديث الذي رواه الطبراني بسند حسن، عن أبي أمامة رضي الله عنه، أن النبيَّ ﷺ قال: (**صنائعُ المعروفِ تقي مصارعَ السوءِ، وصدقةُ السرِّ تطفئُ غضبَ الربِّ، وصلةُ الرحمِ تزيد في العمر**)[١].

ورمضان **شهر الصبر**، فإن الصبرَّ لا يتجلى في شيء من العبادات تجليه في الصوم، حيث يحبس المسلم نفسه: عن الأكلِ، والشربِ، والجماع، وغيره في النهار طوال شهر كامل؛ ولهذا كان الصوم نصف الصبرِ وجزاء الصبر الجنةَ، كما يقول الله تعالى: {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [الزمر: ١٠].

وفيه **ليلةُ القدر**، التي هي خير من ألف شهر، {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ} [القدر: ١ - ٥].

وقد حسبَ بعضُ أهلِ العلم ألفَ شهر، فوجدوها تزيد على ثلاثٍ وثمانينَ سنة، وإنه لفضلٌ عظيمٌ أن يدركَ العبدُ ليلةَ القدرِ؛ فيكون قد أدركَ فضلَ ثلاثَ وثمانينَ سنة أو أكثر، فوالله لا يُحرمُ خيرَها إلا محرومٌ، وقيامها فيه غفرانُ ما تقدمَ من الذنوبِ، فيالها من نعمة على المؤمنينَ سابغة.

وفيه **دعاءٌ مستجابٌ**، فعن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (**إنَّ لله في كلِّ يومٍ وليلةٍ عتقاء من النار في شهرِ رمضانَ، وإنَّ لكلِّ مسلمٍ دعوة يدعو بها فيستجابُ**)[٢].

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٩٤٣)، وحسنة الألباني لغيره في صحيح الترغيب والترهيب (٨٨٩).
(٢) أخرجه البزار، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/١٤٩): رجاله ثقات.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: (**إنَّ للصائم عندَ فطرِه لدعوةٌ ما تردُّ**)[١]، فليحرصْ العبدُ عند إفطارِه على التضرعِ إلى الله تعالى بجوامعِ الكلمِ.

وفي رمضانَ **تجتمعُ أمهاتُ الطاعات**، فالصلاةُ والصياةُ وزكاةُ الفطرِ، فيه فرائضُ واجبةٌ، ثم هناك تلاوةُ القرآنِ والذكرُ والدعاءُ والصدقةُ والعمرةُ وإطعامُ الطعام، من المستحباتِ المؤكداتِ، وحصولُ هذه الطاعاتِ وغيرِها في هذا الشهرِ يجعلُه بمثابةِ توبةِ أمة، فأين المشمرون؟

ويضافُ لاجتماع هذه الطاعات اجتماعُ المسلمين لأدائها، فجماعيةُ الطاعةِ في رمضان تبعثُ في النفسِ نشاطًا وثباتًا، فالناسُ كلهم صائمون، ويجتمعون في صلاةِ التراويح، والنفسُ من عادتِها أنها تنشطُ عند المشاركةِ، وهكذا يشتدُّ أزرُك في العبادةِ بكثرةِ المشاركينَ لك فيها.

وختامًا، فقد أقبل عليكم رمضانُ والخيرَ والفضلَ كلَّه معه، فأحسنوا جوارَه وإكرامَه، جدوا فيه واجتهدوا، توبوا فيه وارجعوا، أكثروا فيه من الذكرِ والاستغفارِ وتلاوةِ القرآنِ والصدقةِ والسعي لقضاءِ حوائجِ المسلمين، عسى الله أن يعتقَ رقابَنا من النارِ إنه جواد كريم.

فإن رمضانَ أيامٌ معدودات، وفرصٌ سانحات، وإن اغتنامَ هذه الأيام لدليلٌ على الحزم، وإن انتهازَ تلكَ الفرصِ لعنوانُ العقلِ، ذلكم أن الوقتَ رأسُ مالِ الإنسان، ولئن كان حفظُ الوقتِ مطلوبًا في كلِّ حين، فلهو أولى وأحرى بالحفظ في الأزمنةِ المباركةِ، ولئن كان التفريطُ فيه وإضاعته قبيحًا في كل زمان، فإن قبحَ ذلك يشتد في المواسمِ الفاضلة.

فحريٌّ بكل عاقلٍ أن يغتنمَ هذه الأوقاتِ المباركاتِ ويجتهدَ فيها بصالحِ الطاعاتِ، ويتنقل فيه بين روضاتِ العباداتِ، من صلاةٍ وصيامٍ، وقراءةٍ للقرآن، وذكرٍ ودعاءٍ، وصدقةٍ وبرٍّ، وغيرها من القربات.

---

(١) رواه ابن ماجه (١٧٥٣)، وحسنه ابن حجر العسقلاني في الفتوحات الربانية (٤/٣٤٢).

## مع النبي ﷺ في أول ليلة

من رحمة الله وفضله علينا أن جعلَ لنا في هذه الحياة الدنيا محطاتٍ نتزودُ فيها بالإيمانِ والتقوى، ونمحو ما علقَ بقلوبنا من آثارِ الذنوبِ والغفلاتِ، نلتقطُ فيها أنفاسَنا، ونعيد ترتيبَ أوراقِنا، فنخرج منها بروحٍ جديدة، وهمةٍ عالية، وقوةٍ نفسية تعيننا على مواجهةِ الحياةِ وما فيها من جواذبَ وصوارفَ، وتيسر لنا أداء المهمةِ التي من أجلها خلقنا الله عز وجل. ومن أبرز هذه المحطات شهر رمضان المبارك.

ففي أول ليلةٍ من رمضانَ تُصفدُ الشياطينَ، وتُغلقُ أبوابُ النيران، وتُفتحُ أبوابُ الجنانِ، ويأتي المددُ من الله الرحمنِ، بأن يأمر مناديًا ينادي: يا باغي الخيرِ أقبلْ ويا باغي الشرِّ أقصر.

فإذا بك ترى الاستجابةَ السريعةَ في كل مكانٍ، المساجدُ امتلأت بالمصلينَ، وسَمعْتَ من النوافذِ والأبوابِ صوتَ الأذانِ والقرآنِ، كثرتْ الصدقاتُ، وتنافسَ الأئمةُ في ختم القرآنِ، وإذا بكَ في ساعةٍ واحدةٍ بمجردِ رؤيةِ الهلالِ ترى ثورةً شاملةً في حياةِ المجتمعِ، وتغييرًا عميقًا على كلِّ صعيدٍ.

قال ﷺ عن أول ليلة من رمضان: (**إِذَا كَانَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ صُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ مَرَدَةُ الْجِنِّ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ فَلَمْ يُفْتَحْ مِنْهَا بَابٌ، وَفُتِحَتْ أَبْوَابُ الْجِنَّانِ فَلَمْ يُغْلَقْ مِنْهَا بَابٌ، وَنَادَى مُنَادٍ: يَا بَاغِيَ الْخَيْرِ أَقْبِلْ، وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ وَلِلَّهِ عُتَقَاءُ مِنَ النَّارِ**)[١].

وكان ﷺ يقول: (**إذا جاء رمضان فُتِّحَت أبوابُ الجنة، وغُلِّقَت أبوبُ النار، وصُفِّدَت الشياطين**)[٢]، وفي رواية لمسلم: (**فتحتْ أبوابُ الرحمةِ، وغلقتْ أبوابُ جهنمَ، وسلسلت الشياطينُ**)[٣].

اعلم يا أخي أن **فتحَ أبوابِ الجنةِ** في رمضانَ حقيقةً لا تحتاج إلى تأويل، وهذه نعمةٌ عظيمةٌ ومنةٌ كريمةٌ من الله يتفضلُ بها على عبادِه في هذا الشهرِ، فأبوابُ الجنانِ مغلقةٌ لا تفتحُ إلا في تمامِ النعمةِ.

(١) رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٦٤٢).
(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٣١٣٠)، ومسلم (٢٥٤٧).
(٣) رواه مسلم (٢٥٤٨).

يقول ابن القيم رحمه الله في قوله تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} [الزمر: ٧٣].

(أما الجنةُ فإنها دارُ الله ودارُ كرامته ومَحلُّ خواصه وأوليائِه، فإذا انتهوا إليها صادفوا أبوابَها مغلقةً فيرغبونَ إلى صاحبِها ومالِكها أن يفتحَها لهم، ويستشفعونَ إليه بأولي العزم من رسلِه، وكلُّهم يتأخرُ عن ذلك، حتى تقعَ الدلالةُ على خاتِمهم وسيدِهم وأفضلِهم ﷺ، فيقولُ: (أنا لها)، فيأتي إلى تحتِ العرشِ ويخرُّ ساجدًا لربه فيدعه ما شاء أن يدعَه، ثم يأذنُ له في رفعِ رأسِه وأن يسألَ حاجتَه، فيشفعُ إليه سبحانه في فتح أبوابِها فيشفعه، ويفتحها تعظيمًا لخطرِها وإظهارًا لمنزلةِ رسوله ﷺ وكرامته عليه.

وإنَّ مَثَلُ هذهِ الدارِ التي هي دار مَلِكِ الملوكِ رب العالمين، إنَّما يدخلُ إليها بعدَ تلكَ الأهوالِ العظيمةِ التي أولَها من حينِ عُقِلَ العبدُ في هذه الدارِ إلى أن انتهى إليها، وما رَكِبَه منَ الأطباقِ طبقًا بعد طبقٍ، وقاسَاه من الشدائدِ شدةً بعد شدةٍ، حتى أذنَ اللهُ تعالى لخاتمِ أنبيائِه ورسلِه وأحبِّ خلقِه إليهِ أن يشفعَ إليه في فتحِها لهمْ.

وهذا أبلغُ وأعظمُ في تمامِ النعمةِ وحصولِ الفرحِ والسرورِ مما يقدرُ بخلافِ ذلك لئلا يتوهم الجاهلُ أنها بمنزلةِ الخانِ الذي يدخلُه من شاء، فجنةُ الله عاليةٌ غاليةٌ بين الناسِ، وبينها من العقباتِ والمفاوزِ والأخطارِ ما لا تُنالُ إلا به، فما لمن أتبعَ نفسَه هواهَا وتمنَّى على الله الأمانيِّ ولهذهِ الدار؟! فلْيَعْدُ عنها إلى ما هو أولى به وقد خُلق له وهُيئ له)[1].

وهنا يدركُ الإنسانُ قيمةَ فتحِ أبوبِ الجنةِ في رمضانَ، عجبًا لمن يعلمُ أن الجنةَ فوقَه موجودةٌ تُزخرفُ وتفتحُ أبوابُها في رمضانَ ثم لا يشتاقُ إليها ويسعى لها على الأجفانِ.

إن مستوى النعيم في هذه الدنيا معروفٌ، ومستوى النعيم هناك يليقُ بالخلودِ، إنها الجنةُ التي غرسَ غراسَهاَ الرحمنُ بيده، إنها الجنةُ الجزاءُ الرفيعُ الخالصُ الفريدُ، الجزاءُ الذي يتجلى فيه ظلالُ الرعايةِ الخاصةِ، والإعزازُ الذاتي، والإكرامُ الإلهي والحفاوةُ الربانيةُ بهذه النفوس، {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [السجدة: ١٧].

(١) حادي الأرواح، ابن القيم، ص٣٩.

إنها الجنةُ التي اشتاقَ إليها الصالحونَ من هذه الأمةِ، فسلوا عنها جعفرَ الطيارَ، وعميرَ بن الحمامِ، وحرامَ بن ملحانِ، وأنسَ بن النضرِ، وعامرَ بن أبي فهيرةَ، وعمرَو بن الجموحِ، وعبدَ الله بن رواحة.

إنها الجنةُ دارُ كرامةِ الرحمنِ فهل من مشمرٍ لها، إنها الجنةُ فاعمل لها بقدرِ مقامِك فيها، إنها الجنة فاعملْ لها بقدرِ شوقِك إليها.

وفي رمضان **تغلقُ أبوابُ النيرانِ** فما يفتح منها بابٌ، فما أطيبها من نعمةٍ يمنُّ اللهُ بها على العبادِ، قال ﷺ: (**وأيم الذي نفسي بيده، لو رأيتم ما رأيت لضحكتم قليلًا وبكيتم كثيرًا**) قالوا: وما رأيت يا رسول الله؟ قال: (**رأيت الجنة والنار**)[١].

هل أحدثك عن النارِ؟ غمٌّ قرارُها، مظلمةٌ أرجاؤها، حاميةٌ قدورُها، فظيعةٌ أمورُها، عقابُها عميمٌ، عذابُها أليمٌ، بلاؤها شديدٌ، وقعرُها بعيدٌ، سلاسلُ وأغلالٌ، ومقامعٌ وأنكالٌ، زمانُهم ليلٌ حالكٌ، ضجيجُهم ضجيجٌ هالكٌ، يصطرخونَ فيها فلا يجيبهم مالكٌ.

أخي: عياذًا بالله أن تكونَ منْ قومٍ لباسهمْ نارٌ ومهادهم نارٌ، لُحُفٌ من نارٍ، وسرابيلهم القطران، ومساكنُ من نارٍ، في شر دارٍ، وأسوء عذابٍ، قد أكلوا النارَ، ومشوا على النارِ، لا يهدأونَ ولا ينامونَ ولا يموتونَ، يا صبيحَ الوجهِ، كم من وجه صبيحٍ ولسانٍ فصيحٍ غدًا بين أطباق النار يصيحُ.

وفي رمضانَ تصفد الشياطينَ، قال ﷺ: (**إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب السماء، وغلقت أبواب جهنم، وسلسلت الشياطين**)[٢].

وهذا (لفظ عامٌّ مرادُه خاص في تصفيدِ الشياطينِ إنما أراد بقوله: «**صفدت الشياطين**» مردةُ الجنِّ منهم، لا جميعَ الشياطينِ، إذ اسم الشياطينِ قد يقعُ على بعضهم)[٣].

---

(١) رواه مسلم (٩٨٩).
(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٣١٣٠)، ومسلم (٢٥٤٧).
(٣) ابن خزيمة في صحيحه (٣/١٨٧-١٨٨).

وعند الترمذي وابن ماجه وابن خزيمة والبيهقي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: (**إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صُفدت الشياطينُ ومردةُ الجنِّ، وغلقت أبوابُ النارِ فلم يفتح منها بابٌ، وفتحت أبوابُ الجنةِ فلم يغلق منها بابٌ**).

قال القرطبي: (فإذا قيلَ كيف نرى الشرورَ والمعاصي واقعةً في رمضان كثيرًا، فلو صفدت الشياطينُ لم يقعْ ذلك؟ فالجواب: أنها إنما تقلُّ عن الصائمينَ بالصوم الذي حوفظ على شروطِه وروعيت آدابُه، أو المصفد بعضُ الشياطينِ وهم المردةُ لا كلهم كما تقدم في بعض الرواياتِ).

أو المقصود تقليلُ الشرورِ فيه، وهذا أمر محسوسٌ فإن وقوعَ ذلك فيه أقلُّ من غيره، إذ يلزم من تصفيدِ جميعِهم أن لا يقعَ في شرٍّ ولا معصيةٌ لأن لذلك أسبابًا غير الشياطينِ كالنفوسِ الخبيثةِ والعاداتِ القبيحةِ والشياطينِ الإنسيةِ.

فلا تغتروا باجتهادِ الشياطينِ الإنسية في رمضانَ ليصرفوكم عن شهركِم، واستقيموا يرحمكم الله، واكشفوا مخططاتهم، وافضحوا زورَهم وبهتانَهم، وسيروا على دربِ الله تجدوا المددَ والعونَ من الله،{إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ}[الإسراء: ٦٥].

ومن سابغ جودِ الله وعظيم كرمِه؛ تفضلُه في هذا الشهرِ **بعتقِ عبادِه من النيرانِ، (ولله عتقاء من النارَ وذلك في كل ليلةَ)**، ما أسعدَ هؤلاء المعتوقينَ في رمضان، هنيئًا لهم الجنة، هنيئًا لهم النجاة من النارِ، هنيئًا لهم نياتهم الطيبة، هنيئًا لهم سرائرهم النقية، هنيئًا لهم الرضوان.

وفي رمضانَ **ينادي المنادي**: يا باغي الخيرِ أقبل، ويا باغي الشرِّ أقصر، من أرادَ الطاعةَ في هذا الشهر الكريم فسبيلُها سهلٌ ميسورٌ، فأقبل بكل عزيمتك، بادر بكل أشواقِك، ومن أراد معصيةَ الله في هذا الشهر نودي: كفَّ عن عصيانِك واحذر.

ولعل من المشاهدِ الملحوظةِ أنه إذا أقبل رمضانُ بدأ بعضُ العصاةِ يستعدون للتوبةِ، وكثيرًا ما يسألُ بعضُ الناسِ قبيلَ رمضانَ أسئلةً تدل على استعدادِهم للتوبةِ، وعزمِهم عليها، فيقول أحدهم: أنا عندي مظلمةٌ؛ فكيف أتخلصُ منها؟ ويقول آخر: أنا أقعُ في المعصية الفلانية؛ فكيف أتوبُ منها؟ ويقول غيره: أنا أقصرُ في الطاعةِ الفلانية؛

فكيف أحافظُ عليها؟ وهكذا يتأهبونَ للتوبةِ قبل رمضانَ، ملبينَ النداء يا باغي الخيرِ أقبل ويا باغي الشرِ أقصر.

هلموا إلى رضوانِ الله، فأبوابُ الجنة مفتحةٌ، وأبوابُ النار مغلقةٌ، والشياطينُ مصفدةٌ، والأجواءُ مهيئةً للطاعةِ، وقوافلُ العتقاء يُزفونَ كلَّ يوم إلى الجنةِ، والمنادي ينادي يا باغي الخير أقبل ويا باغي الشر أقصر، فلا عجبَ إذًا أن يقولَ ﷺ: **(رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ رَمَضَانُ فَانْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ)**[1].

فمن لم تنلْهُ الرحمةُ مع كل ذلك فمتى تناله إذًا؟! ومن لم يكن أهلًا للمغفرةِ في هذا الموسمِ ففي أي وقتٍ يتأهلُ لها؟! نسأل الله تعالى أن يجعلنا من عتقائِه من النارِ ومن المقبولينَ.

(١) رواه أحمد (٧٤٥١) وصححه شعيب الأرنؤوط.

## حث النبي ﷺ على التقوى في رمضان

فرضَ الله سبحانه وتعالى صيامَ رمضانَ لغاية محددة، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: ١٨٣].

بلْ إنَّ تقوى الله عز وجل هي مقصودُ العباداتِ جميعِها، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[البقرة: ٢١] وعلى قدرها في القلب يكون قربُ العبدِ أو بعدِه من الله عز وجل {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: ١٣].

والتقوى كنزٌ عظيمٌ، وجوهرٌ عزيزٌ، إن خيرَي الدنيا والآخرة مجموعٌ فيها: {وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى} [البقرة:١٩٧] والقبولُ عند الله معلقٌ بها: {إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} [المائدة:٢٧] والغفرانُ والثوابُ موعودٌ عليها: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا} [الطلاق:٥].

أهلُها هم الأعلون في الآخرة والأولى: {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [القصص:٨٣].

غيرَ أن أزمنتَنا المتأخرةِ، وعصورَنا الماديةِ، كست قلوبَ أصحابِ كثيرٍ من أهلها طبقاتٍ من الغفلةِ، وغشتْ على أبصارِها سحبًا من الصدودِ كثيفة؛ فعموا عن الطريق، وحسنُ ظنُّهم بالترقي في جاه الدنيا وسلطانها، فالشقي في ميزانِهم من قلَّت مادتُه وقُدِرَ عليه رزقُه، وهذا لعمرُ الحقِّ غفلةٌ شنيعةٌ، وجهلٌ في المقاييس عريضة: {وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٣١) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى}[طه:١٣١-١٣٢].

وما جاءَ شهرُ رمضانَ إلا ليقربَ الناسَ من ربهم ويزيدَ من صِلاتِهم به، ويقطعَ عن قلوبِهم صلتَها بالدنيا، فهو فرصةٌ نادرةٌ لإحياءِ القلبِ وإيقاظِه من رقدتِه وإشعالِ فتيلِ التقوى وجذوةِ الإيمانِ فيه، ويحققُ التقوى التي يتمثلُ فيها الخوفُ من الجليلِ، والعملُ بالتنزيلِ، والقناعةُ بالقليلِ، والاستعدادُ ليوم الرحيلِ.

تقوى صادقةٌ دقيقةٌ يتركُ فيه الصائمُ ما يهوى حذرًا مما يخشى، ولئنْ كانتْ فرائضُ الإسلامِ وأحكامِه وأوامرِه ونواهِيه كلُّها سبيلُ التقوى، فإنَّ خصوصيةَ الارتباطِ بين الصيامِ والتقوى شيءٌ عجيبٌ!

ومنْ لم يحقق التقوى في رمضانَ، فهو في غيرِ رمضانَ أولى بالبُعدِ، هذا على نطاقِ الفردِ، خاصةً وأنه يجدُ المجتمعَ كلَّه يساعدُه، فأنت إذا ذهبتَ للمدرسةِ وجدتَ الناسَ صائمين، وفي السوقِ صائمين، وفي الشارعِ أيضًا تجدُهم صائمين، فالمجتمعُ كلُّه يقوِّي عزيمتَك، ويشدُّ أزرَك، ولهذا لا يجدُ الصائمُ في رمضانَ ألمَ الصيامِ، ولكنه حين يصومُ النفلَ يجد تعبًا ومشقةً في ذلك الصيامِ؛ لأنه يصومُ والناسُ مفطرونَ، وكذلك لو أفطرَ الإنسانُ في رمضانَ لعذرٍ، لم يجدْ للطعامِ في حلقِه طعمًا، ولم يجدْ للماءِ مساغًا؛ -هذا إن كانَ مؤمنًا - لأن نفسَه وروحَه تكرهُ ذلك، وتمقتُه وتبغضُه، فيتحولُ الحلوُ إلى مُرٍّ علقمٍ.

ثم تقوى المجتمعاتِ كلها، لعلكم تتقونَ في مجتمعاتِكم أيضًا، ولهذا كان رمضانُ شهرًا ذا شخصيةٍ مميزةٍ في واقعِ المسلمينَ كلِّهم، فالغريبُ إذا دخلَ مجتمعاتِ المسلمينَ في شهرِ رمضانَ، يشعرُ أن هناك أمرًا غيرَ عادي، حتى أهلُ المعاصي والفجورِ، يغلقون حاناتِهم، وأماكنَ فجورِهم وفسادِهم، ويتجهون إلى المساجدِ طاعةً لله عزَّ وجلَّ.

وهذا مصداقُ ما أخبر به ﷺ: (**إذا دخل رمضانُ فُتِّحَتْ أبوابُ الجنة، وغُلِّقَتْ أبوابُ النار، وصُفِّدَتِ الشياطينُ**) وفي رواية: (**وسُلْسِلَتِ الشياطينُ**)[1] أي: وُضِعَتْ في السلاسلِ والأصفادِ؛ فلا يَخْلُصون إلى ما كانوا يَخْلُصونَ إليه قَبْلُ من الوسوسةِ للناسِ، وإغرائِهم بالمعصيةِ، ودعوتِهم إلى الفجورِ.

وفي رمضانَ تتحققُ التقوى فإنَّك تجدُ الصائمَ متلبسٌ بالعبادةِ طوالَ نهارِه، من طلوعِ الفجرِ إلى غروبِ الشمسِ، وأنتَ نائمٌ فأنتَ في عبادةٍ، وحين تنشغلُ فأنتَ في عبادةٍ، وحينَ تبيعُ فأنتَ في عبادةٍ، وهذا من أسرارِ الصيامِ وخواصِّه.

فالمصلِّي - مثلًا - هو في عبادةٍ أثناءَ الصلاةِ، لا يشتغلُ بغيرِها، ثم يُقْبل على ما سواها، أما الصائمُ فهو في عبادةٍ في كلِّ أحوالِه، يتقلبُ على فراشه وهو صائمٌ، يشتغلُ بدنياه وهو صائمٌ، يدرِّسُ وهو صائمٌ، يعملُ في وظيفتِه وهو صائمٌ، يعملُ في حقلِه وهو صائمٌ، يكتبُ

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٣١٣٠)، ومسلم (٢٥٤٧).

وهو صائمٌ، يقرأُ وهو صائمٌ، فعبادةُ الصيامِ لا تنفكُ عنه ولا ينفكُ عنها، من طلوعِ الفجرِ إلى غروبِ الشمسِ.

أفَيَجْدُر بشخصٍ متلبسٌ بعبادةِ أن يعصي الله - عزَّ وجلَّ - وهو في حالِ العبادةِ، فيقولَ زورًا، أو يَشهدَ زورًا، أو يَكذبَ، أو يَغِشَّ، أو يَحلفَ يمينًا كاذبة، أو يَحقدَ، أو يَحسدَ، أو يَظلمَ، أو يفتريَ، أو يتركَ ما أوجبَ الله، أو يفعلَ ما حرَّمَ الله، إن ذلك لَعَيْبٌ، وإذا فعل هذا وهو صائمٌ فأولى به أن يفعله في حالِ الفطرِ.

ولذلك كانَ الصيامُ فرصةً لتصحيحِ الأحوالِ، والتوبةِ إلى الله عزَّ وجلَّ، وتحقيقِ التقوى، وذلك لأنه يغيرُ حياةَ الإنسانِ، ويقلبُ الروتينَ المألوفَ عنده، فهو فرصةٌ لإعادةِ ترتيبِ الأوضاع، والتوبةِ إلى الله عزَّ وجلَّ.

ولهذا جاء في الحديثِ الذي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه وأرضاه: (أنَّ النبي ﷺ صعدَ المنبر، فقال: **آمين آمين آمين**، قالوا: يا رسول الله، قلت: آمين ثلاثًا، قال: **نعمْ**.

**إن جبريل أتاني آنفًا فقال: مَن أدْرَكَ رمضانَ، فلم يُغْفَر له؛ فأبعدَه الله، قل: آمين، قلتُ: آمين.**

**قال: مَن أدْرَكَ أبَوَيه أو أحدهما عند الكِبَر، فلم يَدْخَل الجنة؛ فأبعدَه الله، قل: آمين، قلت: آمين.**

**قال: مَن ذُكِرتَ عندَه، فلم يصلِّ عليك؛ فأبعدَه الله، قل: آمين، قلتُ: آمين)**[1].

ما بالكَ بدعوةٍ، إمامُ الدعوةِ فيها جبريل، والمؤَمِّنُ محمدٌ -عليه الصلاة والسلام- أفَيَسُرُّك أن تكون ممن دعا عليهمْ جبريلُ، وأمَّن عليهم محمدٌ صلى الله عليه وسلم، بأن يبعدَك الله تعالى؟ من أبعدَه الله، فمن ذا يقربه؟ لا ينفعُه أن يقربَه المخلوقون، أو يرفعوا شأنَه، أو يقيموا له وزنًا، إذا أبعده الله عزَّ وجلَّ، من وجد اللهَ تعالى فماذا فقَد؟ ومن أبعده اللهُ فلا ينفعُه أن يقربَه العالَمون كلهم.

إنما الصيامُ لكَ؛ ليحققَ التقوى فيك، ولهذا قال عزَّ وجلَّ: {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}.

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٢٥٥١) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٥).

إنه جديرٌ بالمسلم أن يحققَ معنى الصيام: {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} فإذا لم يَدَعِ الإنسانُ قولَ الزور، وشهادةَ الزور، واللَّغْوَ والرَّفَثَ، فأيُّ سببٍ يدعوه إلى الصيام إذًا؟!

قال ﷺ: (مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ)[١]، من لم يدعْ قولَ الزورِ والعملَ به كيف صام؟ وماذا اتقى؟ حظُّه من صيامِه الجوعُ والعطشُ، ونصيبُه من قيامِه السهرُ والنصبُ، أين التقوى في أسماعِهم وأبصارِهم؟ لغوٌ ولهوٌ، وقيلٌ وقال، وأصواتُ معازفٍ، وصورٌ ماجنةٌ، وقصصٌ خالعةٌ، في النهارِ نومٌ في تقصيرٍ، وفي الليل سهرٌ في غيرِ طاعةٍ، متبرمون في أعمالِهم، سيئون في معاملاتِهم، متثاقلون في أداءِ مسئولياتِهم، نشاطٌ في اللهوِّ والسمرِ، وكسلٌ في الجدِّ والعبادةِ.

جوارحُ الإنسانِ عينٌ وأذنٌ، ويدٌ ولسانٌ، وبطنٌ وفرجٌ، والقلبُ من ورائِها أصلُها وحاكمُها، صام القلبُ واتقى إذا جردَّ العبوديةَ لله وحده، وخضعَ لجلالِه، وسعى لقربِه، وأنسَ بمناجاتِه، وخلصَ من الشركِ، وسلمَ من البدعِ، وتطهرَ من المعاصي.

وقد سُئل أبو هريرةَ رضي الله عنه يومًا عن التقوى، فقال لسائله: (هلْ أخذتَ طريقًا ذا شوكٍ؟ قال: نعمْ، قال: فكيفَ صنعتَ؟ قال: إذا رأيتُ الشوكَ عزلتَ عنه، أو جاوزتَه، أو قصرتَ عنه، قال: ذاك التقوى)[٢].

ذلك القلبُ التقيُّ يرى الهوى والشهوةَ، والظنَّ والبغيَ، والعداوةَ والبغضاءَ، والغلَّ والحسدَ، والمراءَ والجدلَ، يرى كلَّ ذلك أمراضًا قلبيةً فتاكةً، تقتلُ الأفرادَ وتهلك الأمم.

القلبُ التقيُّ يرفضُها ويأباها ويتقيها ويتقيؤها، وصيامُه ينفيها ويجفوها، قلبٌ صائمٌ متدينٌ لله بالطاعةِ، مستسلمٌ له بالخضوعِ والاستجابةِ، منقادٌ لتنفيذِ الشرعِ في الأمرِ والنهي، عبوديةٌ لله خالصةٌ، لا يصرفُه عنها شهوةٌ ولا شبهةٌ، ولا يشوشُ عليه فيها أمانٍ ولا مطامعُ، قلبٌ قويٌّ تقيٌّ، لله صلاتُه وصيامُه، ونسكُه ومحياهُ ومماتُه.

(١) رواه البخاري (١٨٠٤).
(٢) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، ص(١٧٣).

وفي رمضانَ يقلُّ الشبعُ فتكبحُ الجماحُ، وتبعدُ نزغاتُ الشياطين: و(**الشيطانُ يجري منَ ابنِ آدمَ مجرى الدم**)[1]، فقلةُ الشبعِ تجعلُ الجوارحَ أقربَ لفعلِ القرباتِ، يرقُّ القلبُ، ويغزرُّ الدمعُ، ويخذلُّ الشَيطانُ.

الصائمونَ المتقونَ: لا يزالونَ في صلاةٍ وصيامٍ وتلاوةٍ وذكرٍ وصلةٍ وإحسانٍ وجدٍّ وعملٍ، فاطلبوا الخيرَ دهرَكم، وتعرضوا لنفحاتِ ربكم؛ فخيرُكم من طالَ عمرُه وحسنُ عملُه، وشرُّ الناسِ من طال عمرُه وساءَ عملُه.

(١) رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح أبي داوود (٤٧١٩).

## النبي ﷺ ومحبة الله

**(أسألُكَ حبَّك، وحبَّ مَنْ يحبُّك، وحبَّ عملٍ يقربُ إلى حبِّك)**[١].

**إنه سيدُ المحبين لرب العالمينَ**؛ يناجي بها ربَّه ومولاه؛ أتدري من هو؟ إنه محمدٌ ﷺ، عبدُ الله ورسوله، وحبيبهُ وخليلهُ، كانت حياته كلها حبًّا لربه جل وعلا.

وها هو ﷺ يقومُ من الليلِ، حتى تتفطر قدماهُ الشريفتان، ثم يُسأل عن ذلك: يا رسول الله، تفعلُ هذا وقد غُفر الله لكَ ما تقدمَ من ذنبِك وما تأخرَ؟ فيقول: **(أَفَلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا)**[٢].

وتأمل في هذا الموقفِ الجليلِ، الذي يفيضُ بالحبِ من الخليلِ لخليله، ترويه الصديقةُ بنتُ الصديقِ، أُمُّنا عائشة رضي الله عنها، فعن عطاء قال:

(دخلتُ أنا وعبيدُ بن عمير على عائشةَ رضي الله عنها، فقال عبد الله بن عمير: حدثينا بأعجبَ شيءٍ رأيتيه من رسولِ الله ﷺ فبكتْ وقالتْ: قام ليلةً من الليالي، فقال: **(يا عائشة، ذريني أتعبدُ لربي)**، قالت: قلتُ والله إني لأحبُّ قربكَ، وأحبُّ ما يسرك، قالت: فقامَ، فتطهرَ، ثم قام يصلي، فلم يزلْ يبكي حتى بلَّ حجرَه، ثم بكى، فلم يزل يبكي حتى بلَّ الأرض.

وجاء بلالٌ يؤذنه بالصلاةِ، فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله، تبكي، وقد غَفَر اللهُ لك ما تقدَّمَ من ذنبك وما تأخر؟ قال: **(أفلا أكونُ عبدًا شكورًا؟! لقد نزلت عليَّ الليلة آياتٌ، ويلٌ لمن قرَأَها ولَم يتفكر فيها:{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ}** [آل عمران: ١٩٠])[٣].

وكان ﷺ إذا حزبَه أمرٌ وضاقتْ عليه الدنيا يفزعُ إلى الصلاةِ، أليسَ هو القائلُ ﷺ: **(يَا بِلَالُ أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا)**[٤].

---

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣٢٣٥).
(٢) رواه مسلم، (٧٣٠٤).
(٣) رواه ابن حبان (٦٢٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦٨).
(٤) رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح أبي داوود (٤٩٨٧).

وتبلغ ذروةُ مظاهر حبِ النبي ﷺ لربه في ساعةِ رحيله، بأبي هو وأمي ﷺ، إذ أتاه ملكُ الموتِ يخيره بين الخلودِ في الدنيا والجنةِ، وبين أن يلحقَ بربه في الرفيقِ الأعلى، فعلا صوتُ الخليل وكلُّه شوقٌ لخليله: (**مَعَ الرَّفِيقِ الأَعْلَى، مَعَ الرَّفِيقِ الأَعْلَى**)[1].

فليتُكَ تحلو والحيــاةُ مريــرةٌ ... وليتكَ ترضى والأنامُ غِضـابُ

وليتَ الذي بيني وبينكَ عامرٌ ... وبيني وبينَ العالمينَ خــــرابُ

إذا صحَّ منكَ الودُ فالكلُ هينٌ ... وكلَ الذي فوقَ الترابِ تـرابُ

وعلى سيرتِه ونهجِه يتبعُه رجالٌ، منهم من قضى نحبَه ومنهم من ينتظرْ وما بدلوا تبديلًا؛ (فعن إسحاقَ بن سعد بن أبي وقاص قال: حدثني أبي أن عبدَ الله بن جحش، قال يومَ أحد: ألا تأتي ندعو الله تعالى، فخلوا في ناحيةٍ، فدعا سعد رضي الله عنه فقال: يا رب، إذا لقينا العدوَ غدًا، فلَقِّني رجلًا شديدًا بأسه، شديدًا حرده [غضبه]، أقاتلُه ويقاتلُني، ثم ارزقني الظفرَ عليه حتى أقتلَه وآخذْ سلبَه فأمَّن عبد الله.

ثم قال: اللهم ارزقني غدًا رجلًا، شديدًا بأسه، شديدًا حرده، فأقاتله ويقاتلني، ثم يجدع [يقطع] أنفِي وأذني، فإذا لقَيْتُك غدًا قلتَ لي: يا عبدَ الله، فيم جُدعَ أنفُك وأذناك؟ فأقول: فيكَ وفي رسولِكَ، فتقول: صدقتْ، قال سعد: كانتْ دعوتُه والله خيرٌ من دعوتي، فلقد رأيتُه آخرَ النهارِ وإنَّ أنفَه وأذنَه لمعلقةٌ في خيطٍ)[2].

إنه الشوقُ والتفاني في محبةِ الله سبحانه وتعالى يودُّ أحدُهم لو أن بذلَ أغلى ما يمكن للوصولِ لرضى الرحيم الرحمنِ سبحانه وتعالى، ونحن في شهرِ الرحماتِ أفلا نقدمُ الثمنَ؛ أيها الأخُ الحبيبُ وأيتها الأختُ الفاضلة؛ عليك البداية وعليه التمام.

(وحبُّ العبدِ لربه نعمةٌ لهذا العبد، لا يدركُها كذلك إلا من ذاقَها، وإذا كان حبُّ الله لعبدٍ من عبيده أمرًا هائلًا عظيمًا، وفضلًا غامرًا جزيلًا؛ فإن إنعامَ الله على العبدِ، بهدايتِه لحبه، وتعريفه هذا المذاقَ الجميلَ الفريدِ، الذي لا نظير له في مذاقاتِ الحبِّ كلِّها ولا شبيه؛ هو إنعامٌ هائلٌ عظيمٌ، وفضلٌ غامرٌ جزيلٌ.

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٣٤٦٧)، ومسلم (٦٤٥٠).
(٢) سير أعلام النبلاء، الذهبي، (٣/٣٢٤).

وإذا كان حبُّ اللهِ لعبدٍ من عبيده أمرًا فوق التعبير أن يصفَه؛ فإن حبَّ العبدِ لربه أمرٌ قلما استطاعت العبارةُ أن تصوره إلا في فلتاتٍ قليلةٍ من كلام المحبين)[١].

تعالوا نستمع ما يحدثُ لحبيب الرحمن عندما يُقبلُ في هذه الحياةِ الدنيا؛ (**إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ إِنِّى أُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبَّهُ؛ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِى فِى السَّمَاءِ فَيَقُولُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ؛ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِى الأَرْضِ**)[٢].

وهذا هو حالُ المحبِّ لله ربِّ العالمينَ كما وصفه الجنيدُ رحمه الله في إحدى لقاءاته الإيمانيةِ مع جمعٍ من إخوانه، يومَ حاولَ كلٌّ منهم أن يصفَ العبدَ المحبَّ لربِّ العالمين، فتكلمَ الجميعُ، وكان الجنيدُ أصغرُهم سنًّا، فقالوا: هات ما عندك يا عراقي، فأطرقَ رأسُه، ودمعت عيناه، ثم قال:

(عبدٌ ذاهبٌ عن نفسِه، متصلٌ بذكرِ ربِّه، قائمٌ بأداءِ حقوقِه، ناظرٌ إليه بقلبه؛ فإن تكلمَ فبالله، وإن نطقَ فعن الله، وإن تحركَ فبأمرِ الله، وإن سكنَ فمعَ الله، فهو باللهِ، ولله، ومع اللهِ)، فبكى الشيوخُ، وقالوا: ما على هذا مزيدٌ، جزاكَ الله يا تاجَ العارفين[٣].

ولأجلِ هذه المحبةِ؛ صارتْ أشهى الأوقاتِ عندما يتنزلُ الربُّ إلى السماءِ الدنيا، في ثلثِ الليلِ الآخرِ، يبيتونَ لربهم سجدًا وقيامًا، يبادلون ربهم حبًّا بحبٍّ، فاستنشق ـ يا أخيه ـ بعضًا من عبيرِ حبهم، حتى تلحقَ بركبهم.

(قال سعيدُ بن المسيب: إن الرجلَ ليصلي بالليلِ، فيجعل الله في وجهه نورًا، يحبُّه عليه كلُّ مسلم، فيراه من لم يره قط، فيقول: إني لأحبُّ هذا الرجلُ، وقيل للحسن البصري رحمه الله: ما بالُ المتهجدين بالليلِ من أحسنِ الناسِ وجوهًا؟ فقال: لأنهم خلوْ بالرحمنِ فألبسَهم من نوره)[٤].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٩١٨/٢)، بتصرف يسير.
(٢) رواه مسلم، (٦٨٧٣).
(٣) مدارج السالكين، ابن القيم، (٨٧٧).
(٤) مختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة، ص (٦١).

(وأخذ الفضيلُ بن عياض رحمه الله بيد الحسين بن زياد رحمه الله، فقال له: يا حسين، ينزل الله تعالى كلَّ ليلةٍ إلى السماءِ الدنيا، فيقولُ الربُّ: كذبَ من ادعى محبتي، فإذا جَنَّهُ الليلُ نامَ عنِّي أليسَ كلُّ حبيبٍ يخلو بحبيبِه؟!! ها أنا ذا مطلعٌ على أحبائِي إذا جنَّهم الليلُ، غدًا أقرُّ عيونَ أحبائِي في جناتي)[1].

(وكان العبدُ الصالحُ عبد العزيز بن أبي رواد رحمه الله يُفرشُ له فراشُه لينام عليه بالليلِ، فكان يضعُ يدَه على الفراشِ، فيتحسَّسُه، ثم يقول: ما ألينَك!! ولكنَّ فراشَ الجنةِ ألينُ منكَ، ثم يقومُ إلى صلاتِه)[2].

إن محبةُ اللهِ هي المنزلةُ التي فيها تنافسَ المتنافسونَ، وإليها شخصَ العاملون، وإلى علمِها شمَّرَ السابقونَ، وعليها تفانى المحبون، وبروحِ نسيمِها تروَّحَ العابدون، فهي قوتُ القلوبِ، وغذاءُ الأرواحِ، وقرةَ العيون، وهي الحَياةُ التي من حُرمَها فهو من جملةِ الأمواتِ، والنورُ الذي من فقدَه فهو في بحارِ الظلماتِ، والشفاءُ الذي من عدمَه حلتْ بقلبِه جميعُ الأسقامِ، واللذةُ التي من لم يظفرْ بها فعيشُه كلُّه همومٌ وآلامٌ.

ويبقى السؤال: كيفَ نصلُ إلى هذه المحبة؟ تجدُ الإجابةَ واضحةً جليةً في قولِ رب العزة تبارك وتعالى في الحديث القدسي: (**وما تقرب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مما افترضتُه عليه، ولا يزال عبدي يتقربُ إليَّ بالنوافلِ حتى أحبَّه، فإذا أحببتُه؛ كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به، وبصرَه الذي يبصرُ به، ويدَه التي يبطشُ بها، ورجلَه التي يمشي بها، ولئن سألنِي لأعطينهُ، ولئن استعاذني لأعيذنهُ**)[3].

حافظ على الفرائض من الصلوات الخمس في المسجد.

احسب زكاتك وأدها محبة لربك سبحانه وتعالى.

أدِّ حقَّ زوجتك وأولادك طاعة لربك عز وجل.

حسن أخلاقك مع جيرانك امتثالًا لوصية جبريل لنبينا ﷺ.

تخير من النوافل ما تقدرُ عليه وداوم عليه وإن قل.

---

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي، (١٤/٤٢٤).
(٢) رهبان الليل, العفاني, (١/٤٠٩).
(٣) رواه البخاري (٦٠٢١).

## النبي ﷺ وتعليم الأمة صيام رمضان إيمانًا واحتسابًا

كان ﷺ يحفزُ أصحابَه على اغتنام شهر رمضانَ، مبينًا أسبابَ المغفرةِ التي أودعَها الله تعالى شهرَه المبارك، فعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: كانَ رسولُ الله ﷺ يرغبُ في قيام رمضانَ من غير أن يأمرَهم فيه بعزيمة فيقول: (**منْ قامَ رمضانَ إيمانًا واحتسابًا غفرَ لهُ ما تقدمَ من ذنبِه**)[١].

وقالَ ﷺ (**منْ صامَ رمضانَ إيمانًا واحتسابًا غفرَ له ما تقدمَ من ذنبِه، ومن قامَ ليلةَ القدرِ إيمانًا واحتسابًا غفرَ له ما تقدمَ من ذنبِه**)[٢].

نعمْ لنتأملَ قولَه ﷺ: (**إيمانًا واحتسابًا**) لم يعلق النبيُّ ﷺ مغفرةَ الذنوب على القيام والصيام فقط، وإنما اشترطَ (**إيمانًا واحتسابًا**) و(إيمانًا) أي تصديقًا بأنه حقٌّ. (احتسابًا) أي يريدُ اللهَ وحدَه لا رؤيةَ الناسِ.

والإخلاصُ في العملِ شرطٌ أساسيٌّ لقبولِه، وبدونِه يُحبطُ العملُ، قال ﷺ: (**إنَّ اللهَ لا يقبلُ من العملِ إلا ما كانَ له خالصًا وابتغي به وجهه**)[٣].

ويشترطُ لقبولِ العملِ شرطان: الشرطُ الأول: الإخلاصُ. الشرطُ الثاني: متابعةُ سنة النبي ﷺ. دلَّ على هذين الشرطين قوله عز وجل: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف:١١٠].

فالعملُ الصالحُ هو الموافقُ لسنةِ النبي ﷺ، وقولِه: {وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف:١١٠] أي: يكونُ هذا العملُ صادرًا عن إخلاص.

وقولُه عز وجل: {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ} [النساء:١٢٥]، فإسلامُ الوجهِ هو إخلاصُ القصدِ والنيةِ، والإحسانُ هو متابعةُ سنةِ النبي ﷺ.

وقال عز وجل: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [الملك:٢]، لم يقلِ اللهُ عز وجل: أكثرَ عملًا، بل قال: {أَحْسَنُ عَمَلًا}.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٣٧)، ومسلم (١٨١٥).
(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٣٨)، ومسلم (١٨١٧).
(٣) رواه النسائي، وصححه الألباني في صحيح النسائي (٤٩٨٧).

فالامتحانُ في حسنِ العملِ وليس في كثرتِه. قال الفضيل بن عياض: أخلصُه وأصوبُه، فإنَّ العملَ إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبل. فهذان شرطان لقبولِ أي عملٍ، فينبغي للعبدِ أن يوفرَ هذين الشرطين: الإخلاصَ، والمتابعةَ.

تفقدْ قلبَك وأنت تنوي الصيامَ، هل تجلعه للهِ؟ تفقدْ قلبَك وأنتَ تقرأُ القرآنَ، هل تقرأُه لله؟ تفقد قلبكَ وأنت تصلي، هل صلاتُك لله؟ تفقد قلبَك وأنت تتصدقُ، هل إنفاقُك لله؟ هل تؤدي العباداتِ إيمانًا واحتسابًا؟

والإخلاصُ: هو إفرادُ الله عز وجل بالقصدِ في العبادةِ، أي: أن يعملَ العبدُ العملَ لا يريدُ به إلا وجه الله عز وجل. وقيل: هو تجريدُ قصدِ التقربِ إلى الله عز وجل من جميعِ الشوائبِ.

وقد اجتهدَ السلفُ الصالحُ في تحصيلِ الإخلاصِ، وتحريرِ النفسِ من غير الله تعالى، قيل للإمامِ سهل: يا أبا محمد! أيُّ شيءٍ أشَدُّ على النفسِ؟ قال: الإخلاصُ؛ إذ ليس لها فيه نصيبٌ.

فالنفسُ تحبُّ الظهورَ والمدحَ والرياسةَ، وزُينتْ لها الشهواتُ من النساءِ والبنينَ والقناطيرِ المقنطرةِ من الذهبِ والفضةِ والخيلِ المسومةِ والأنعامِ والحرثِ، فحتى يتيسرَ للعبد الإخلاصُ وتختمَ به أعمالُه ينبغي عليه أن يقطعَ حبَّ الدنيا من قلبِه، وأن يملأَه بحبِّ اللهِ عز وجل، فيكون المحركُ له من داخلِه محبةَ الله عز وجل وإرادةَ الدار الآخرة، فعند ذلك يتيسرُ عليه الإخلاص، وأما غيرُه فبابُ الإخلاصِ مسدودٌ عليه إلا في النادرِ.

قال ابن عمر رضي الله عنهما: لو أعلمُ أن الله عز وجل يقبلُ مني سجدةً بالليلِ وسجدةً بالنهارِ لطرتُ شوقًا إلى الموت، إن الله عز وجل يقول: {**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**} [المائدة:٢٧]. فالإخلاصُ من أشدِّ الأشياءِ على النفسِ.

وقال عز وجل: {**وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا**} [الفرقان:٢٣] فكلُّ عملٍ كان بإرادة غيرِ اللهِ مشوبًا مغمورًا يجعلُه الله عز وجل يومَ القيامةِ هباءً منثورًا.

وقال عز وجل: {**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ**}[البينة:٥]. وقال عز وجل: {**أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ**} [الزمر:٣]، أي: لا يقبلُ الله عز وجل إلا الدينَ الخالص.

وقيل للنبي ﷺ: (أرأيتَ رجلًا غزا يلتمسُ الأجرَ والذكرَ - أي المدحَ - فما له؟ قال: **لا شيءَ له**، فأعادها السائلُ عليه ثلاث مرات، ويقول رسول الله ﷺ: **لا شيءَ له**، ثم قال ﷺ: **إنَّ الله لا يقبلُ من العملِ إلا ما كانَ له خالصًا وابتغي به وجهَهُ**)[١].

وقال ﷺ: (**إنَّما الأعمالُ بالنياتِ، وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نوى**)[٢] أيْ أنَّ العملَ مهما كانَ موافقًا للسنةِ فإنَّه لا يُقبلُ إلا بتوفرِ النيةِ الصالحة.

وقولُه ﷺ: (**إنَّما الأعمالُ بالنياتِ**) يخصُّ الطاعاتِ والمباحاتِ دونَ المعاصي، فإن المعصيةَ لا تصيرُ طاعةً بالقصدِ الصالحِ والنيةِ الصالحةِ، ولكنَّ العملَ المباحَ تقوى النيةُ الصالحةُ على رفعِه إلى درجةِ الطاعات، فيمكن للعبدِ أن يتاجرَ بمباحاتِه مع اللهِ عز وجل، فالنيةُ الصالحةُ ترفعُ رتبةَ المباحِ فتجعلُه من القرباتِ والطاعاتِ، ولكنْ لا تقوى النيةُ الصالحةُ على أن تقلبَ البدعةَ سنةً أو تقلبَ المعصيةَ طاعةً. هذا الشرط الأولْ من شرطي قبولِ العمل، وهو الإخلاصُ.

وأما الشرطُ الثاني: هو متابعةُ سنةِ النبي ﷺ، دلَّ على هذا الشرط قوله ﷺ فيما رواه الإمام مسلم: (**منْ عملَ عملًا ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ**)[٣] فكلُّ عملٍ لا يندرجُ تحتَ الشريعةِ ولا تكونُ شريعةُ النبي ﷺ حاكمةً عليه بالصحةِ فهو مردودٌ على فاعلِه وغير مقبول مهما كانت نيةُ صاحبِه؟

فمن عملَ عملًا لا يندرج تحت الشريعة ولم تكنْ شريعةُ النبي ﷺ حاكمةً عليه بالصحةِ فهو ردٌّ، بمعنى مردودٌ.

---

(١) رواه النسائي، وصححه الألباني في صحيح النسائي (٣١٤٠).
(١) متفق عليه، رواه البخاري (١)، ومسلم (٥٠٣٦).
(٢) رواه مسلم (٤٥٩٠).

وقال النبي ﷺ: (**إنَّ أصدقَ الحديثِ كتابُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمدٍ ﷺ، وشرَ الأمورِ محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ**)[1].

فخيرُ أمورِ الدينِ ما كانَ سنةٌ، وشرُ الأمورِ المحدثاتُ البدائعُ، قال عبدُ الله بن مسعود رضي الله عنه: اتبعوا ولا تبتدعوا، فقد كُفيتم. وقال الإمامُ مالك: الاعتصامُ بالسنةِ نجاةٌ؛ لأن السنةَ مثلَ سفينةِ نوحٍ من ركبَها نجا ومن تخلَّفَ عنها هلكَ. قال الحسنُ البصريُّ: ادعى ناسٌ محبةَ الله عز وجل فابتلاهم الله عز وجل بهذه الآية: {**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**} [آل عمران:٣١].

وحينما يتبعُ المرءُ النبيَّ ﷺ فلا خوفَ عليه، دخلَ المعتمرُ بن سليمان على أبيه وهو منكسرٌ فقال: ما لك؟ قال: ماتَ أخٌ لي، قال: ماتَ على السنةِ؟ قال: نعمْ، قال: وتحزن عليه؟!

وقال سفيان الثوري رحمه الله: لا يُقبلُ قولٌ إلا بعملٍ، ولا يستقيمُ قولٌ وعملٌ إلا بنيةٍ، ولا يستقيمُ قولٌ وعملٌ ونيةٌ إلا بمتابعةِ السنةِ.

وقال الحسنُ البصري: السنةُ - والذي لا إله إلا هو - بين الغالي والجافي، فاصبروا عليها رحمكم الله، فإن أهلَ السنةِ كانوا أقلَّ الناسِ فيما مضى وهم أقلُّ الناسِ فيما بقي، الذين لم يذهبوا مع أهلِ الإترافِ في إترافِهم، ولا مع أهلِ البدعِ في بدعِهم، وصبروا على سنتِهم حتى لقوا ربهم، فكذلك إن شاء الله فكونوا.

وقد بشّرَ النبيُّ ﷺ ببقاءِ طائفةٍ ظاهرةٍ على الحقِّ، ترفعُ رايةَ السنةِ وتقيمُ الحجةَ على سائرِ الخلق، فقال ﷺ: (**لا تزالُ طائفةٌ من أمتي ظاهرينَ على الحقِّ لا يضرُّهم منْ خذَلَهم حتى يأتيَ أمرُ الله وهمْ كذلك**)[2].

فلا يأتي على أمةِ النبيِّ ﷺ زمانٌ تُحرّفُ فيه الكتبُ ويضلُّ الناسُ ويضيعُ الحقُّ في الأمةِ كما أتى على اليهودِ والنصارى، بل لا بد أن تبقى طائفةٌ مستمسكةٌ بالسنةِ، ترفعُ رايتَها وتُقيمُ الحجةَ على سائرِ أهلِ زمانِها، حتى يأتيَ أمرُ الله وهمْ كذلك.

---

(١) رواه مسلم، (٢٠٤٢).
(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٦٨٨١)، ومسلم (٤١٢).

## صيام الرسول ﷺ

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ينتظر صيام شهر رمضان، وكان يَتَحَفَّظُ مِنْ شَعْبَانَ مَا لاَ يَتَحَفَّظُ مِنْ غَيْرِهِ ثُمَّ يَصُومُ لِرُؤْيَةِ رَمَضَانَ فَإِنْ غُمَّ عَلَيْهِ عَدَّ ثَلاَثِينَ يَوْمًا ثُمَّ صَامَ[١].

قال ﷺ: (**إذا رأيتمُوه فصوموا وإذا رأيتموه فأفطرُوا فإن غُمَّ عليكم فاقدُروا له**)[٢].

وللصيام حكمةٌ عظيمةٌ ضمَّنها ربنا في الآيات التي تناولت صيامَ رمضان، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[البقرة: ١٨٣].

فالتقوى هي الحكمةُ الجامعةُ من تشريع الصيام، وهي والفائدةُ الكبرى من الصوم، والتقوى لها عند الله منزلةٌ، وحسبك أن التقوى وصيةُ الله للأولين والآخرين من خلقه، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ} [النساء: ١٣١].

والتقوى هي طريقُ الولاية وسببُ البشرى، قال الله عز وجل: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [يونس: ٦٢ - ٦٤].

ولعلَّ السببُ في كون الصيام يورثُ التقوى لما فيه ـ كما يقول بعض أهل العلم ـ من انكسارِ الشهوةِ، وانقماعِ الهوى، فإنه يردعُ عن الأشرِ والبطرِ والفواحش، ويُهَوِّنُ لذات الدنيا ورياستها، وذلك لأنَّ الصومَ يكسرُ شهوةَ البطنِ والفرجِ، وغالبُ ما يُوتى الأنسانُ من هذين، فمَن أكثرَ الصومَ هانَ عليه أمرهما وخفتْ عليه مؤونتهما، فكان ذلك رادعًا له عن ارتكابِ الفواحشِ والمحرمات.

بل انظروا إلى قولِ رسول الله ﷺ عن آدابِ الصائم: (**إنَّما الصومُ جُنَّةٌ - أي وقايةٌ - فإذا كانَ يومُ صومِ أحدكم فلا يرفثْ ولا يصخبْ، ولا يجهَلْ**)[٣].

فقد قدمَ الحكمةَ من الصيامِ ثم بيَّن آدابَه؛ ليكون أوقعَ في النفسِ، وأعمقَ أثرًا.

---

(١) رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح أبي داوود (٢٣٢٥).
(٢) رواه البخاري، (١٩٠٠)، ومسلم، (١٠٨٠).
(٣) متفق عليه، رواه البخاري (١٨٠٥)، ومسلم (١١٥١).

وما دام الإسلامُ لا يتنكَّر للعقلِ، ولا يخاطبُ الناسَ إلا بما يتفقُ مع التفكيرِ السليم، والمنطقِ القويم ولا يأمرُ من التشريع بشيءٍ إلا إذا كانت المصلحةُ تحتِّمُ العملَ به أو تركه -لم يكن علينا من حرجٍ حين ننظرُ في أسرارِ التشريع وبيانِ فوائده.

قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: (**الصومُ جُنَّةٌ**).

أي وقاية، ففي الصوم وقايةٌ من المأثم، ووقايةٌ من الوقوع في عذابِ الآخرةِ، ووقايةٌ من العللِ والأدواءِ الناشئةِ عن الإفراطِ في تناولِ الملذات.

وَكَانَ ﷺ يَخُصّ رَمَضَانَ مِنْ الْعِبَادَة بِمَا لَا يَخُصّ غَيْرَهُ بِهِ مِنْ الشّهُور، حَتّى إنّهُ كَانَ لَيُوَاصِلَ فِيهِ أَحْيَانًا لِيُوَفّرَ سَاعَات لَيْله وَنَهَاره عَلَى الْعِبَادَة، وَكَانَ يَنْهَى أَصْحَابَهُ عَنْ الْوِصَال، فَيَقُولُونَ لَهُ: إنّك تُوَاصِلُ، فَيَقُولُ: **لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ إنّي أَبِيت عِنْدَ رَبّي يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي**، فَيُغَذّيه اللهُ بِهِ مِنْ مَعَارِفه، وَمَا يَفِيضُ عَلَى قَلْبه مِنْ لَذّة مُنَاجَاته، وَقُرّة عَيْنه بِقُرْبِهِ، وَتَنَعّمه بِحُبّهِ وَالشّوْق إلَيْهِ، وَتَوَابِع ذَلِكَ مِنْ الْأَحْوَال الّتِي هِيَ غِذَاءُ الْقُلُوبِ وَنَعِيمُ الْأَرْوَاح، وَقُرّةُ الْعَيْن وَبَهْجَةُ النّفُوس وَالرّوح وَالْقَلْب بِمَا هُوَ أَعْظَمُ غِذَاءً وَأَجْوَدُهُ وَأَنْفَعُهُ، وَقَدْ يَقْوَى هَذَا الْغِذَاءُ حَتّى يُغْنِيَ عَنْ غِذَاءِ الْأَجْسَام مُدّةً مِنْ الزّمَان كَمَا قِيلَ:

لَهَا أَحَادِيثُ مِنْ ذِكْرَاكَ تَشْغَلُهَا ... عَنْ الشّرَابِ وَتُلْهِيهَا عَنْ الزّادِ

فَكَيْفَ بِالْحَبِيبِ الّذِي لَا شَيْءَ أَجَلّ مِنْهُ، وَلَا أَعْظَمُ وَلَا أَجْمَلُ وَلَا أَكْمَلُ وَلَا أَعْظَمُ إحْسَانًا إذَا امْتَلَأَ قَلْبُ الْمُحِبّ بِحُبّهِ، وَمَلَكَ حُبّهُ جَمِيعَ أَجْزَاءِ قَلْبِهِ وَجَوَارِحِهِ، وَتَمَكّنَ حُبّهُ مِنْهُ أَعْظَمَ تَمَكّنٍ، وَهَذَا حَالُهُ مَعَ حَبِيبِهِ، أَفَلَيْسَ هَذَا الْمُحِبّ عِنْدَ حَبِيبِهِ يُطْعِمُهُ وَيَسْقِيهِ لَيْلًا وَنَهَارًا؟ وَلِهَذَا قَالَ إنّي أَظَلّ عِنْدَ رَبّي يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي.

وكان ﷺ يبيِّنُ للمسلمين **فضلَ الصيام**، فقال: (**قَالَ اللهُ عز وجل: كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إلاَّ الصِّيَام، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ [أي: يقي صاحبه ما يؤذيه من الشهوات]، فَإِذَا كَانَ يَومُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلاَ يَرْفُثْ [الرفث: كلمة جامعة لكل ما يريده الرجل من المرأة]، وَلاَ يَصْخَبْ [الصخب والسخب: الضجة، واضطراب الأصوات للخصام] فإنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ: إنِّي صَائِمٌ.**

وَالذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفُ [أي: تغير رائحة الفم] فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ المِسْكِ، لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا: إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ بفطره، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ)[١].

وقال رسول الله ﷺ: (الصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبَادِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ الصِّيَامُ: رَبِّ إِنِّي مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ بِالنَّهَارِ فَشَفِّعْنِي فِيهِ، وَيَقُولُ الْقُرْآنُ رَبِّ مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ فَشَفِّعْنِي فِيهِ، فَيُشَفَّعَانِ)[٢].

إن في الصوم جوعًا للبطن، وشبعًا للروح، وإضواءً للجسم، وتقويةً للقلب، وهبوطًا باللذة، وسموًا بالنَّفْس.

في الصوم يجِدُ المؤمنُ فراغًا لمناجاةِ ربه، والاتصالِ به، والإقبالِ عليه، والأنسِ بذكره، وتلاوةِ كتابه.

ويجب الصوم على كلِّ: مسلمٍ بالغٍ عاقلٍ قادرٍ مقيمٍ، وللمسلمةِ كذلك شرطُ الطهارةِ من الحيضِ والنفاسِ.

**والشيخُ الذي يجهدُه الصومُ والمريضُ الذي لا يرجى برؤُه** فلا صوم عليهما ويلزمهما الفدية، لقوله سبحانه وتعالى: {أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [البقرة: ١٨٤-١٨٥].

وكذلك **الحائضُ والنفساءُ** لا يجب عليهما الصومُ ولا يصحُ منهما، فعَنْ مُعَاذَةَ قَالَتْ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ فَقُلْتُ: مَا بَالُ الْحَائِضِ تَقْضِي الصَّوْمَ وَلاَ تَقْضِي الصَّلاَةَ، فَقَالَتْ أَحَرُورِيَّةٌ أَنْتِ، قُلْتُ: لَسْتُ بِحَرُورِيَّةٍ وَلَكِنِّي أَسْأَلُ.

---

(١) رواه البخاري، (١٨٠٥).
(٢) رواه أحمد (٦٦٢٦) وصححه الالباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٤٢٩).

قَالَتْ: كَانَ يُصِيبُنَا ذَلِكَ فَنُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّوْمِ وَلاَ نُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّلاَةِ)[١]، والآمر إنما هو النبي ﷺ.

**ومن رحمة الله تعالى أن رخص للمسافرِ في نهارِ رمضان الفطرَ**، قال تعالى: {أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ}، ويقول العلامة ابن باز رحمه الله عن الأولى للمسافر: (فمن أفطرَ فلا بأس ومن صامَ فلا بأس، فالإفطار رخصةٌ من الله عز وجل للمسافرينَ، سواء كانَ المسافرُ صاحبَ سيارةٍ أو صاحبَ جمالٍ أو في السفنِ أو في الطائراتِ، لا فرق في ذلك، المسافرُ له أن يفطرَ في رمضان وإن صام فلا بأس، وإذا شق عليه الصوم فالأفضلَ الفطر، إذا كان حرٌّ وشدةٌ فالأفضل الفطر ويتأكد الفطرُ أخذًا برخصة الله جل وعلا، جاء في الحديث عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: (**إنَّ الله يُحِبُّ أن تُؤتى رخصَه كما يكره أن تُؤتى معصيتَه**)[٢].

**وأما المرضع والحامل**؛ فإذا كانت لا تتأثرُ بالصيامِ، ولا يشقُ عليها ولا يُخشى منه على ولدِها، فيجبُ عليها الصيامُ، ولا يجوز لها أن تفطرَ.

وأما إذا كانت تخافَ على نفسِها أو ولدِها من الصيامِ ويشقَ عليها، فلها أن تفطرَ وعليها أن تقضي الأيامَ التي أفطرتها.

وفي هذه الحال الأفضل لها الفطرُ، ويكره لها الصيامُ، بل ذكر بعض أهل العلم أنها إذا كانت تخشى على ولدِها وجبُ عليها الإفطارُ ويحرمُ الصومُ.

يقول العلامة ابن باز رحمه الله تعالى: (أما الحاملُ والمرضعُ فقد ثبت عن النبي ﷺ من حديثِ أنسِ بن مالك الكعبي عن أحمدَ وأهلِ السننِ بإسناد صحيح أنه رخصَ لهمَا في الإفطارِ وجعلهما كالمسافرِ.

فعُلمَ بذلك أنهما تفطران وتقضيان كالمسافرِ، وذَكَرَ أهلُ العلم أنه ليس لهما الإفطارُ إلا إذا شق عليهما الصومُ كالمريضِ، أو خافتا على ولديهما والله أعلم).

---

(١) رواه مسلم، (٧٨٩).
(٢) رواه أحمد (٥٨٦٦)، وقال شعيب الأرنؤوط في تحقيق المسند: إسناده صحيح.

وكما تعلمنا من النبي ﷺ بعضَ أحكامِ الصومِ، فهناك أمور حذرنا منها ﷺ لا **يبطلُ الصيامُ**، منها:

**أولها: الأكلُ والشربُ والجماعُ**: فالصائمُ إذا تعمدَ شيئًا منها، من غير إكراه ولا نسيان، بطل صومه بنص القرآن وإجماع أهل العلم: قال تعالى: {عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ} [البقرة: ١٨٧].

ومن أفطرَ بالأكلِ أو الشربِ عمدًا فعليه التوبةُ والاستغفارُ وأن يقضي يومًا مكان اليومِ الذي أفسد صومه فيه وليس عليه كفارةٌ، هذا الراجح من أقوال أهل العلم.

**وأما من أفطر بالجماع فإن عليه أربعة أمور:**

**الأول**: الإمساكُ بقية اليوم، لأنه فطر غير مشروعٍ فليس له أن يأكلَ أو يشربَ حتى تغرب الشمس.

**الثاني**: أن عليه التوبةَ لأنه ارتكب إثمًا عظيمًا يوجب التوبة.

**الثالث**: أن يقضي اليوم الذي جامعَ فيه.

**الرابع**: أن عليه كفارةً وهي عتق رقبةٍ فإن لم يجد فصيامُ شهرينِ متتابعين، فإن لم يستطع فإطعامُ ستين مسكينًا فإن لم يجد سقطت عنه الكفارة.

**وثاني مبطلاتُ الصوم القيءُ عمدًا**: وهو أن يتعمدَ المرءُ إفراغَ ما في معدته إما بإدخالِ إصبعه في فمِه أو بشم شيءَ يهيجُ المعدة، فإن فعل ذلك فسدَ صومُه، وعليه قضاءُ يوم مكانه.

وأما من غلبه القيء بدون تعمدٍ منه فصومُه صحيحٌ ولا شيء عليه.

**وثالث مبطلات الصوم الحيضُ والنفاسُ**: لحديث عائشة رضي الله عنها كنا نُؤمرُ بقضاء الصيامِ ولا نُؤمر بقضاء الصلاةِ.

أما من أكل أو شرب ناسيًا: فصومُه صحيحٌ ولا قضاء عليه، لقوله ﷺ: (**من نسيَ وهو صائمٌ فأكلَ أو شربَ فليتمّ صومَه فإنما أطعمَه الله وسقاه**)[١].

ومن أصبحَ جنبًا من جماعٍ أو احتلامٍ في الليلِ فإنه يصومُ ولا شيءَ عليه ويغتسلُ بعد ذلك.

أيها الأحبة حذر ﷺ من **الفطر في رمضان** تحذيرًا شديدًا، فقال: (**بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ إِذْ أَتَانِي رَجُلاَنِ فَأَخَذَا بِضَبْعَيَّ فَأَتَيَا بِي جَبَلًا وَعْرًا فَقَالاَ لِي: اصْعَدْ فَقُلْتُ: إِنِّي لاَ أُطِيقُهُ فَقَالاَ: إِنَّا سَنُسَهِّلُهُ لَكَ فَصَعِدْتُ حَتَّى إِذَا كُنْتُ فِي سَوَاءِ الْجَبَلِ إِذَا أَنَا بِأَصْوَاتٍ شَدِيدَةٍ فَقُلْتُ: مَا هَذِهِ الأَصْوَاتُ قَالُوا: هَذَا عُوَاءُ أَهْلِ النَّارِ، ثُمَّ انْطُلِقَ بِي فَإِذَا أَنَا بِقَوْمٍ مُعَلَّقِينَ بِعَرَاقِيبِهِمْ مُشَقَّقَةٌ أَشْدَاقُهُمْ تَسِيلُ أَشْدَاقُهُمْ دَمًا قَالَ قُلْتُ: مَنْ هَؤُلاَءِ قَالَ: هَؤُلاَءِ الَّذِينَ يُفْطِرُونَ قَبْلَ تَحِلَّةِ صَوْمِهِمْ**)[٢].

والصوم عبادة عظيمة ورد الكثير من فضلها، منها:

١- مغفرة ما تقدم من الذنوب: قال رسول الله ﷺ: (**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه**)[٣].

٢- أجر بغير حساب: قال رسول الله ﷺ: (**قال الله تعالى: كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به**)[٤].

٣- ثواب يفوق الخيال: فعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله مرني بعمل. قال: (**عليك بالصوم فإنه لا عدل له**)[٥].

٤- إجابة الدعاء: قال رسول الله ﷺ: (**ثلاث دعوات لا ترد: دعوة الوالد ودعوة الصائم ودعوة المسافر**)[٦].

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري، (٦٢٩٢)، ومسلم، (٢٧٧٢).
(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى، (٧٧٩٦)، وصححه الألباني في السلسة الصحيحة، (٣٩٥١).
(٣) متفق عليه، رواه البخاري (٣٨)، ومسلم (١٨١٧).
(٤) رواه مسلم، (١١٥١).
(٥) رواه النسائي، وصححه الألباني في صحيح النسائي (٢٢٢١).
(٦) رواه البيهقي في السنن (٣/٣٤٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٧٩٧).

٥- إطفاء نار الشهوة: قال ﷺ: **(فمن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)**[١].

٦- البعد عن النار: قال ﷺ: **(من صامَ يومًا في سبيلِ الله باعدَ الله وجهَه عن النارِ سبعين خريفًا)**[٢].

٧- الفوز بالجنة: قال ﷺ: **(إن في الجنةِ غرفًا، يُرى ظاهرُها من باطنِها، وباطنُها من ظاهِرها، أعدها الله لمن أطعمَ الطعام، وألانَ الكلام، وتابعَ الصيام، وصلى والناسُ نيام)**، وما أدراكَ ما الغرفات؟ يقولُ النبيُّ ﷺ: **(إن أهلَ الجنةِ ليتراءون أهلَ الغرفِ من فوقِهم كما تراءَون الكوكبَ الدرّي لبعدِهم في الأفقِ من المشرقِ أو المغربِ لتفاضلِ ما بينهم)**[٣].

(١) متفق عليه، رواه البخاري، (٤٧٧٨)، ومسلم، (١٤٠٠).
(٢) متفق عليه، رواه البخاري، (٢٦٨٥)، ومسلم، (٢٧٦٩).
(٣) رواه الترمذي، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٥٥٦).

## النبي ﷺ ... والقرآن

كان جبريلُ عليه السلام يلقى النبيَّ ﷺ كلَّ ليلة في رمضان، يعرض عليه النبيُّ ﷺ القرآنَ، وفي العام الذي توفي فيه ﷺ عارَضَه جبريلُ القرآنَ مرتين[١].

رمضانُ هو الشهر الذي **أنزلَ فيه القرآنُ**، قال تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ} [البقرة: ١٨٥].

عن أوسِ بن حذيفةَ رضي الله عنه قال: قدمنا على رسولِ الله ﷺ في وفدِ ثقيفٍ، فنزلتْ الأحلافُ على المغيرةِ بن شعبة، وأنزلَ رسول الله ﷺ بني مالك في قبّةٍ له، وكان رسولُ الله ﷺ كلَّ ليلةٍ يأتينا بعد العشاء يحدّثنا قائماً على رجليه حتى يراوحَ بين رجليه من طولِ القيام، فأكثر ما يحدثنا ما لقيَ من قومه قريش، ثم يقولُ: لا سواءٌ، وكنّا مستضعفينَ مستذلين بمكةَ، فلما خرجنا إلى المدينة كانت سجالُ الحربِ بيننا وبينهم، نُدال عليهم ويدالونَ علينا؛ فلما كانت ليلة أبطأَ عن الوقتِ الذي كان يأتينا فيه، فقلنا: لقدْ أبطأتَ عنّا الليلة! قال: (**إنّه طرأ عليَّ حزبي من القرآن، فكرهت أن أجيء حتى أتمّه**).

قال أوس: سألتُ أصحابَ رسول الله ﷺ: كيف تحزبونَ القرآن؟ فقالوا: ثلاثٌ، وخمسٌ، وسبعٌ، وتسعٌ، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزبُ المفصَّل وحده[٢].

وهو حديثٌ شريفٌ عظيمٌ، له وقعٌ في النفوس وخفقٌ في الجوانحِ، جعلهُ أهلُ العلم أصلاً في «تحزيب القرآن» و«تجزئة المصاحف» وبوّبَ الإمام أبو داود في سننه: «بابُ تحزيب القرآن» - ٢ / ٢٣٧ ط عوّامة - فأورد هذا الحديثَ ونظائره لبيان طريقةِ النبيِّ ﷺ وأصحابه في قراءة القرآن العظيم والمداومة على ترتيله وتجويده بنظام مشيد محكم ينتظم اليوم والليلة دائباً متصلاً.

والله يعلمُ كم يأخذني هذا الحديثُ بجلالةِ وقعهِ وحُسنِ عرضهِ وسلسبيلِ لفظِه إلى عوالمَ أخرى من السكينةِ والتعظيمِ والتوقيرِ للنبيِّ صلّى الله عليه وسلّم تفوقُ الوصفَ

(١) رواه البخاري (٣٤٢٦).
(٢) رواه ابن ماجه، وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه (١٣٤٥).

وتجتازُ التقديرَ، وهو يفدُ صلى الله عليه وسلّم في لهفٍ إلى هؤلاءِ القوم الذين قدموا عليه من أقاصي البلاد يحدوهم الشوقُ المبرّح للقائهِ ورؤية وجههِ الشريف، فيستعذبُ في سبيل تعليمهم الوصبَ ويستطيبُ النصبَ، ويحنو عليهم حنوَّ الوالدِ على ولدهِ ويخاطبهم بأرق العبارات وأنداها، ويراوح بين قدميه الشريفتين من طولِ القيامِ في جنب الله ناصحاً مذكّراً قائماً بحق الدعوة وتبليغ شرعِ الله.

ويغمرني الحنينُ والشوقُ إلى ذيّاك المجلسِ الآنس ببثِّ الحبيبِ المُحب ﷺ إلى صالحي المؤمنين وهو يستعبرُ ذاكراً ما جرى له من الأذى في ذاتِ الله، فتخضعُ جوانحي وتغشاني المهابةُ وأنا أقرأُ همهماتهِ الأسيفة على قومٍ جاءهم كالنسيم العليل؛ ليأخذ بحجزِهم عن النّارِ ويحميهم من سعيرِها ولهيبِها البئيس، فيأبون إلا الوقيعةَ فيها مرتكبين أشنعَ الجرائمِ بإيذاءِ حبيبِ الله وخليلهِ محمدٍ ﷺ.

(هذا عباد الله شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآنُ، وفي بقيته للعابدين مستمتعٌ، وهذا كتابُ الله يُتلى فيه بين أظهرِكم ويُسمع، وهو القرآن الذي لو أُنزل على جبل لرأيته خاشعًا يتصدع، ومع هذا فلا قلبٌ يخشع، ولا عينٌ تدمع، ولا صيامٌ يصان عن الحرام فينفع، ولا قيامٌ استقامَ فيُرجى في صاحبِه أن يشفع، وتراكمتْ على القلب ظلمةُ الذنوبِ فهي لا تبصرُ ولا تسمع.

كم تتلى علينا آياتُ القرآن وقلوبُنا كالحجارةِ أو أشدُّ قسوة، وكم يتوالى علينا شهرُ رمضان وحالُنا فيه كحالِ أهل الشقوة، لا الشابُّ منا ينتهي عن الصبوة، ولا الشيخ ينزجرُ عن القبيحِ فيلتحقُ بالصفوة، أين نحن من قوم إذا سمعوا داعي الله أجابوا الدعوة، وإذا تليتْ عليهم آياتُ الله جلَّت قلوبَهم جلوة، وإذا صاموا صامتْ منهم الألسنةُ والأسماعُ والأبصارُ، أفمالنا فيهم أسوة؟ ما بيننا وبين حالِ الصفا أبعدُ مما بين الصفا والمروة، كلما حسنت منَّا الأقوالُ ساءت الأعمال)[1].

(١) لطائف المعارف، ص(١٩٤-١٩٥).

ولقد قرن النبي ﷺ بين الصيام والقرآن، فقال ﷺ: (**الصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبَادِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ الصِّيَامُ: رَبِّ إِنِّي مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ بِالنَّهَارِ فَشَفِّعْنِي فِيهِ، وَيَقُولُ الْقُرْآنُ: رَبِّ مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ فَشَفِّعْنِي فِيهِ، فَيُشَفَّعَانِ**)[١].

ولقراءة القرآن فضلٌ عظيمٌ وثوابٌ كبير، ويظهر هذا من تضافرِ نصوصٌ كثيرة تبين هذا الفضلَ، ففي الصحيحين من حديث عائشةَ رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: (**الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ**)[٢]، أي أجرٌ على التلاوة وأجرٌ على مشقة القراءة على صاحبها.

فكمْ هو رفيعٌ مقامُ الذي يحسنُ ويجيد تلاوةَ كتاب الله تعالى، وكم هي صحبتُه كريمةٌ، إنه يوم القيامة مع السفرةِ الكرامِ البررةِ إنهم ملائكة الرحمن، ومعهم يكرمُ الماهرُ بالقرآن.

ما الدّنيا؟ ما أموالها؟ ما مفاتنها؟ ما مغانيها؟ ما ملاعبُها؟ ما حطامها الزائلُ؟ ما القصورُ ما الدورُ؟ إنّها لتغدو قاعاً صفصفاً أمام ترنيم العبدِ وتغنّيه بكلام ربّهِ، فتغشاه سكينةُ الصالحين وتعلوه وضاءةُ الذاكرين ويذكرهُ ملكُ الملوك فيمن عنده، فإذ بالدنيا ريشةٌ تتقاذفها أعاصيرُ الثقةِ بوعد الله والأنس بنعيمه.

وكلما أكثرتَ من تلاوةِ القرآنِ كان لك نصيبٌ وافر من شفاعتِه يومَ القيامةِ، قال ﷺ: (**اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ**)[٣].

ثم إن القرآنَّ لا يشفعُ لك فحسب بل إنه يقفُ ليدافعَ عنك في أهوالِ يوم الزحام، فعن النَّوَّاسَ بْنَ سَمْعَانَ أن النبي ﷺ قال: (**يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ**)، وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلاَثَةَ أَمْثَالٍ مَا نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ، قَالَ: (**كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا**)[٤].

---

(١) رواه أحمد (٦٦٢٦) وصححه الالباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٤٢٩).
(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٤٦٥٣)، ومسلم (١٨٩٨).
(٣) رواه مسلم، (١٩١٠).
(٤) رواه مسلم، (١٩١٢).

والحزقان: الجماعتان، والصواف: جمعُ صافة وهى الباسطةُ أجنحتها فى الهواء. ما أعظم فضل القرآن على أهله.

ويؤكد الحبيبُ ﷺ على فضلِ تلاوةِ القرآن فيقول: (**يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا**)[١]، ويقول ﷺ: (**منْ قرأ حرفًا من كتابِ الله فله به حسنةٌ، والحسنةُ بعشر أمثالِها، فلا أقول: ألم حرف، ولكن ألفٌ حرف، ولامٌ حرف، وميمٌ حرف**)[٢].

ولما كانت قراءةُ القرآن بهذا الفضلِ، شُرِعَ الحسدُ فيها، قال ﷺ: (**لا حسدَ إلا في اثنتين: رجلٌ آتاه اللهُ القرآنَ فهو يقومُ به آناءَ الليلِ وآناءَ النهارِ، ورجلٌ آتاه اللهُ مالًا فهو ينفقُه آناءَ الليلِ وآناءَ النهارِ**)[٣].

وفي رمضانَ شهرِ القرآنِ لاشك أنك تكثرُ من قراءة القرآن فإذا أردتَ مزيدًا من الفضلِ فاقرؤه في بيوتِ الله مع زمرةِ الأصحاب، لتنال بشارة النبي ﷺ: (**وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ؛ إِلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ**)[٤].

ومع كثرةِ قراءةِ القرآن إلا أن كثيرًا من المسلمين لم يتغيروا به، لأنهم يتعاملونَ مع حروفه فقط دون معانيه، وليست هذه هي الصورةُ الصحيحةُ للتعامل مع القرآن.

قال تعالى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} [ص: ٢٩]، فتدبرُ القرآنِ هو المقصودُ من القراءة.

قال السعدي رحمه الله في تفسيره {**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ**}: أي فيه خيرٌ كثير وعلمٌ غزير.

---

(١) رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح أبي داوود (١٤٦٤).
(٢) رواه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٩١٠).
(٣) متفق عليه، رواه البخاري (٧٠٩١)، ومسلم (١٩٣٣).
(٤) رواه مسلم (٧٠٢٨).

{لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ} أي هذه الحكمةُ من إنزاله، ليتدبرَ الناسُ آياته، فيستخرجوا علمَها ويتأملوا أسرارَها وحكمَها، فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه، وإعادةَ الفكر فيها مرة بعد مرة، تدركُ بركته وخيره، وهذا يدل على الحثِّ على تدبر القرآن، وأنه من أفضلِ الأعمالِ، وأن القراءةَ المشتملةَ على التدبر أفضلُ من سرعةِ التلاوةِ التي لا يحصل بها هذا المقصود[١].

ولهذا قال عبد الله بن مسعود: (اقْرَءُوا الْقُرْآنَ، وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ، لاَ يَكُونُ هَمُّ أَحَدِكُمْ آخِرَ السُّورَةِ)[٢].

وفي مسند الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها: (أنه ذكر لها أن ناسًا يقرأون القرآنَ في الليلةِ مرةً أو مرتين، فقالت: أولئك قرأوا ولم يقرأوا، كنتُ أقوم مع رسولِ الله ﷺ ليلةَ التمامِ فكان يقرأ سورةَ البقرةِ وآلَ عمران والنساءَ، فلا يمر بآية فيها خوفٌ إلا دعا الله واستعاذ، ولا يمر بآية فيها استبشارٌ إلا دعا الله ورغَّب إليه)[٣].

قال أبو حامد الغزالي: (أما تستحي أن يأتيك كتابٌ من بعض إخوانك وأنت في الطريق فتعدلُ عن الطريقِ وتقعد لأجلِه وتقرؤه وتتدبره حرفًا حرفًا حتى لا يفوتك شيءٌ منه، وهذا كتاب الله أنزله إليك..

انظر كم فصَّل لك فيه القول..

وكم كرره عليكَ لتتأملَ وتتدبر، ثم أنت بعد كلِّ هذا معرضٌ!!

أفجعلت الله أهونَ عليك من بعضِ إخوانك؟

يزوركَ أخوك فتقبلُ عليه بكلِّ وجهك وتصغي إلى حديثه بكلِّ قلبك، فإن تكلمَ متكلمٌ أو شغلك شاغلٌ عن حديثه أومأت إليه أن كُفَّ، وها هو الله يقبلُ عليك ويتحدَّث إليك وأنت مُدبر مُعرض مشغول..

أفجعلته أهونَ عندك من بعضِ خلقه؟!)[٤].

(١) تفسير السعدي (٧١٢/١).
(٢) السنن الكبرى للبيهقي (٤٩٠٣).
(٣) إتحاف الخيرة المهرة (٣٧١/٢).
(٤) إحياء علوم الدين، الغزالي، (٢٧٥/١).

واحذر أن تأتي إلى النبي ﷺ يومَ القيامةِ لتطلبَ شفاعتَه فتراه يشكوك إلى الله، قال تعالى: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا} [الفرقان: ٣٠].

ولْتعلمْ أن هجرَ القرآنِ أنواعٌ، قال ابن القيم: (أحدها: هجرُ سماعه والإيمانِ به والإصغاءِ اليه.

والثاني: هجرُ العملِ به والوقوفِ عند حلالِه وحرامِه وإن قرأه وآمن به.

والثالث: هجرُ تحكيمِه والتحاكمِ إليه في أصولِ الدينِ وفروعه.

والرابع: هجرُ تدبره وتفهمِه ومعرفةِ ما أراد المتكلمُ به منه .

والخامس: هجرُ الاستشفاءِ والتداوي به في جميعِ أمراض القلبِ وأدوائها، فيطلب شفاءَ دائه من غيره ويُهجر التداوي به.

وكل هذا داخل في قوله: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا} [الفرقان: ٣٠])[١].

وكلام اللهِ إذا لامس قلبًا حيًّا ونفسًا تواقةً إلى الخير والفلاح، فإن نوره يتمكَّن من كلِّ خليةٍ من خلايا جسمِ الإنسانِ، ويساور كلَّ نفحةٍ من نفحات روحِه، فيشعرُ المؤمنُ بالوجلِ والخشوعِ، والرهبةِ والارتعاشِ حتى تقشعرَ منه جلودُ المؤمنين بسبب تفاعلها مع إيحاءاته، وانسجامها مع ومضاته، ثم تلينُ وتهدأُ وتأنسُ بكلام الله، يقول ربنا سبحانه وتعالى: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} [الزمر: ٢٣].

فافتح ـ أخي القارئ ـ صفحةً جديدةً مع القرآن، واعقد العزمَ على ختمه في رمضانَ بقراءةٍ متدبرةٍ تعلم بها ماذا يريد الله منك؟ والْتحقْ بحلقةٍ من حلقات تحفيظ القرآن لتتعلم أحكامَ التلاوة.

---

(١) الفوائد ص(٨٢).

## طعام النبي ﷺ في رمضان

لقد تركَ لنا رسولُ الله ﷺ هديًا قاصدًا بصفة عامة، وفي هذا الشهر العظيم بصفة خاصة، يختص بعباداتنا وتعاملاتنا بل وطعامِنا وشرابنا.

عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ **(تسحَّروا فإنَّ في السَّحورِ بركةٌ)**[١]، ففي السحور بركة «لأنه يُقوِّي على الصيامِ ويُنشِّط له وتحصلُ بسببِه الرغبةُ في الازدياد من الصيامِ لخفةِ المشقةِ فيه على المتسحر»[٢].

بل سماه النبي ﷺ بالغداءِ المبارك، كما في سنن أبي داود عن العرباض بن سارية أنه قال دعاني رسول الله ﷺ إلى السحور في رمضان فقال: **(هلمَّ إلى الغداءِ المباركِ)**.

نعم إنه طعامٌ مباركٌ، فإلى جانبِ كونه معينًا على الصيام، تتعلقُ به أوجه للخيرِ متعددة من ذكرٍ لله أو دعاءٍ في وقت السحر، وربما قام العبدُ بعد سحوره بركعتينِ في جوفِ الليل.

قد لا يكون الإنسانُ بحاجةٍ لأن يتسحرَ، كأن يكون فاقدًا للشهية مثلًا، فهل يُرغمُ نفسَه على الطعامِ لنيلِ أجرِ السحور؟ أم يتركه فيُحرمُ بركتَه وأجره؟

لا هذا ولا ذاك أيها الأحبة، فحبيبكم ﷺ الحريصُ عليكم قد أرشدَ إلى أن السحورَ يتحققُ ولو بجرعةِ ماءٍ، ففي الحديث: **(السُّحورُ أكلةُ بركةٍ، فلا تدعوهُ ولو أن يَجرعَ أحدُكم جرعةَ ماءٍ، فإنَّ اللهَ وملائكتَهُ يُصلُّونَ على المتسحِّرينَ)**[٣].

الله أكبر، الله وملائكتُه يصلون على المتسحرِ؟ نعم يصلي عليكَ الرحمنُ أيها المتسحر بالثناءِ عليك، وتصلي الملائكةُ الكرامُ عليك بالدعاءِ والاستغفارِ لك، كلُّ هذا الفضل من أجلِ شهوةٍ، نعم شهوةِ الطعامِ، ولكنها اقترنت بعبادةٍ جليلةٍ ونيةٍ عظيمةٍ جعلتها سببًا لنيل تلك المكرمات.

(١) متفق عليه، رواه البخاري (١٨٢٣)، ومسلم، (٢٦٠٣).
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم، (٢٠٦/٧).
(٣) رواه أحمد (١١٣٩٦) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٦٨٣).

ولئن كان السحورُ يتحققُ بأي شيءٍ ولو بشربِ ماء، إلا أنه ﷺ قد بينَ لنا خير ما نتناولُه في سحورنا، حتى هذه لم يدعها الحبيبُ الذي لا يترك شيئًا ذا بال ينفعُ أمتَه إلا وأرشدها إليه.

إنه التمرُ الذي يسدُ جوعة الفقير، ويقوي الفقيرُ والغنيُ، فوائدُه الصحية متعددةٌ، بل إنه يكفي لأن يكونَ طعام الإنسانِ لما فيه من فوائدَ ومنافعَ صحيةٍ، وكما تعلمون أن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: (**إنْ كنا لننظرُ إلى الهلال، ثم الهلال، ثلاثة أهِلَّةٍ في شهرين، وما أوقِدَتْ في أبْياتِ رسول الله ﷺ نارٌ. فقُلْتُ: يا خَالَةُ، ما كان يُعِيشُكم؟ قالتْ: الأَسودانِ التمرُ والماءُ**)[١].

ولكن ما أدرانا أنه التمرُ خيرُ ما نتسحرُ عليه، إنه الحبيب ﷺ، والذي قال: (**نعمَ السحورِ التمرُ**)[٢].

وكان النبيُّ ﷺ يؤخرُ السحورَ، وهكذا كان يفعل أصحابه بما تعلموا من هديه المبارك، فعن سهل بن سعد رضي الله عنه أنه قال: (كنتُ أتسحرُ في أهلي ثم تكونُ سرعتي أن أدركَ السجودَ مع رسول الله ﷺ)[٣]، أي في صلاةِ الصبحِ، ويفهم منه أنهم كانوا يتسحرون في أدنى وقت إلى طلوع الفجر.

بل إنه ﷺ نص على السحور بين الأذانين الأول والثاني، فكأنه يطمئنُ أمتَه بالأكلِ والشربِ كما يشاءون دون حرجٍ بعد الأذان الأَول الذي كان يرفعُه بلالُ بن رباح رغبةً منه في أن يؤخروا سحورَهم، فعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: (**إنَّ بلالًا يؤذنُ بليلٍ فكلوا واشربوا حتى يؤذنَ ابنُ أم مكتوم**)[٤].

وكان صلوات الله وسلامه عليه شديدُ الحرص على السحورِ والتأكيدِ عليه لدى أمته، ورفعِ الحرجِ عنهم في أن ينالوا من هذا الطعام المباركِ وإن ضاق الوقت، إلى درجة أنه أباح لمن رَفع لقمةً أو شربةَ ماء إلى فمه بأن يتمها حَتى ولو طلع الفجر.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٢٤٢٨)، ومسلم (٧٦٤٢).
(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٣/٣٥٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١١٧١٨).
(٣) رواه البخاري، (١٧٨٦).
(٤) متفق عليه، رواه البخاري (٥٨٧)، ومسلم (١٨٢٩).

فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (**إذا سمعَ أحدُكم النداءَ والإناءَ على يده؛ فلا يضعْه حتى يقضيَ حاجتَه منه**)[١].

**هذا عن سحور النبي ﷺ وماذا عن إفطاره؟**

فلئن كان النبي ﷺ قد استحب تأخيرَ السحورِ، فإنه على العكس من ذلكَ قد استحبَّ لأمتِه تعجيلَ الإفطارِ، وجعلَ التبكيرَ في الإفطارِ عند حلول وقتِه من علامةِ بقاءِ الأمةِ على خيريتِها، فيقول صلوات الله وسلامه عليه: (**لا يزالُ الناسُ بخيرٍ ما عجلوا الفطرَ**)[٢].

«فما دامَ الناسُ يبادرونَ إلى السنةِ ويتسابقونَ إلى الخيرِ فهم بخيرٍ لا يزالونَ بخيرٍ أما إذا تباطأوا ولم يفطروا مبادرينَ فإن ذلك هو الشرُّ ولهذا كان الرافضةُ المخالفون لسنةِ الرسولِ ﷺ يؤخرونَ الفطورَ لا يفطرونَ إلا إذا اشتبكتِ النجومُ»[٣]

وعن أبي عطية قال: (دخلتُ أنا ومسروق على عائشةَ فقلنا: يا أم المؤمنين، رجلان من أصحابِ محمدٍ ﷺ أحدُهما يعجل الإفطارَ ويعجل الصلاةَ والآخرُ يؤخرُ الإفطارَ ويؤخرُ الصلاةَ قالت: أيهما الذي يعجلُ الإفطارَ ويعجلُ الصلاةَ قال: قلنا: عبد الله يعني ابن مسعود، قالت: كذلك كانَ يصنعُ رسولُ الله ﷺ)[٤].

ولو أفطرتَ أيها الصائمُ على أيِّ شيءٍ مباح فلا حرج، إلا أن الحبيب ﷺ قد عود أمتَه على التماسِ الأفضلِ دائمًا، وهنا يأتي التمرُّ مرةً أُخرى ليضعَ نفسَه على موائدِنا اقتداءً برسولِ الله ﷺ.

فعلام كان يفطرُ الحبيبُ؟ صح عن أنس رضي الله عنه أنه قال: (**كانَ رسولُ الله ﷺ يُفطِرُ على رطِباتٍ قبل أن يُصلِّيَ، فإن لم تكُنْ رطِباتٍ فعلى تمراتٍ، فإن لم تكُنْ تمراتٍ حسَا حسَواتٍ من ماءٍ**)[٥].

---

(١) رواه أبو داود، وصححه الألباني في سنن أبي داوود (٢٣٥٠).
(٢) متفق عليه، رواه البخاري (١٨٥٦)، ومسلم (٢٦٠٨).
(٣) شرح رياض الصالحين، العثيمين، (١٤٢٢/١)
(٤) رواه مسلم، (٢٦١٠).
(٥) رواه أبو داود، وقال الألباني: حسن صحيح في صحيح أبي داوود (٢٣٥٦).

إذًا هو الرطبُ، فإن لم يجد فالتمرُ، فإن لم يجد فالماءُ، هذا هو أفضلُ ما يفطرُ الإنسانُ عليه، فالمعدةُ بعد طولِ حرمان تحتاجُ إلى مواد رفيقةٍ لا ترهقها، وتوقظُها باللينِ وهذا يتوافرُ في الرطبِ والتمرِ والماءِ.

ومن ناحيةٍ أخرى يحتاجُ الصائمُ إلى مصدرٍ سريعٍ للسكرياتِ، والتمرُ مصدرٌ للسكريات الأحادية التي يسهل امتصاصها سريعًا، فيصلُ إلى الدمِ في فترةٍ لا تتجاوزُ عشرَ دقائق.

إذا كان النبي ﷺ يا أحباب يفطرُ على الرطبِ أو التمرِ أو الماءِ ثم يصلي المغربَ، يواصلُ بعدها إفطارَه إذا شاءَ، إذا لا يليق بنا معاشرَ المؤمنينَ أتباعَ الحبيبِ أن يجلسَ الرجلُ منا في بيته ينتظرُ الأذانَ أمامَه مائدةٌ عليها ما لذ وطاب من الطعامِ، ويأكلُ ثم يأكلُ، حتى إذا فرغَ أدى فرض الله، أهذا يليق بأتباعِ خير الأنام؟

فلنفطر على هديِ النبي ﷺ، ونؤدي صلاةَ المغرب في الجماعةِ فإذا انصرفنا فلنواصلَ الإفطار كما نشاءُ.

ولكنه ﷺ لم يكنْ ليملأَ معدتَه من طعام في رمضانَ ولا غيره، فهو القائل ﷺ: (**ما ملأ آدميٌّ وعاءً شرًّا من بطن، بحسبِ ابنِ آدمَ أكلاتٍ يُقمنَ صُلبَهُ، فإن كان لا محالةَ: فثلُث لطعامِه، وثُلُثٌ لشرابِه وثُلُثٌ لنفَسِه**)[1].

وكما عودنا الحبيب ﷺ من ذكرِه ربَّه عز وجل في جميعِ أحيانه، في الصباحِ والمساءِ في بيتِه أو طريقِه أو غدوهِ ورواحِه بل في ساحاتِ الجهاد، فكان لا ينسى ذكرَ ربه في أيِّ موطنٍ يكون مدعاة للنسيان.

ففي الوقت الذي تتلهفُ فيه النفسُ لشربةِ ماءٍ بعد ظمأِ الصيام كان الحبيب ﷺ يذكرُ ربَّه عند فطره، فيقول إذا أفطر: (**ذهبَ الظمأُ وابتلتِ العروقُ وثَبتَ الأجرُ إن شاء الله**)[2].

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٣٨٠).
(٢) رواه أبو داود، وحسنه الألباني في صحيح أبي داوود (٢٣٥٧).

وربط النبي ﷺ الإفطارَ بغروبِ الشمس، جعل ذلك إيذانًا بأن يفطرَ الصائمُ، فقال: **(إذا رأيتَ الليلَ قد أقبلَ من ها هنا فقدْ أفطرَ الصائمُ)**[١].

ومعناه: «انقضى صومُه وتمَّ ولا يوصفُ الآن بأنه صائمٌ، فإنه بغروبِ الشمس خرجَ النهارُ ودخل الليلُ، والليلُ ليس محلًا للصومِ»[٢]، فجعلَ غروبَ الشمس إيذانًا بالإفطار.

وإن وجدتَ في نفسكِ قوةً أيها الحبيب لمواصلةِ الصيام ليوم آخر فلا تفعلْ، لأن النبيَّ ﷺ نهى عن وصالِ الصومِ مع أنه كان يصلُ ﷺ، أتدري أَيها الحبيب لم؟

استمع إلى حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها إذ تقول: نهاهم النبي ﷺ عن الوصال رحمة لهم، فقالوا: إنك تواصل، قال: **(إنِّي لستُ كهيئتِكم، إني يطعمُني ربي ويسقيني)**[٣].

«والمعنى أن الله تعالى، يرزقُه قوةً على الصيامِ كقوةِ مَنْ أكلَ وشربَ»[٤].

(١) متفق عليه، رواه البخاري، (١٨٣٩)، ومسلم (٢٦١٤).
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم، (٢٠٩/٧).
(٣) متفق عليه، رواه البخاري (١٨٦٣)، ومسلم، (٢٦٢٧).
(٤) شرح صحيح البخاري لابن بطال، (١١١/٤).

## النبي ﷺ وأزواجه في رمضان

كان ﷺ حريصٌ على أزواجِه، وكان يَتَبَدَّى ذلك في حثِّه إياهن على الطاعةِ في رمضان، ومن ذلك ما روته عائشة رضي الله عنها قالت: (**كان النبي ﷺ إذا دخل العشر شد مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله**)[١].

قال المناوي رحمه: (وكانَ ﷺ أحسنَ الناسِ عشرةً لأزواجه حتى إنه كان يرسلُ بنات الأنصار لعائشة يلعبن معها، وكان إذا وهبت شيئًا لا محذور فيه تابعها عليه، وإذا شربتْ شربَ من موضعِ فمها، ويقبلُها وهو صائمٌ، وأراها الحبشةَ وهم يلعبون في المسجدِ وهي متكئةٌ على منكبه، وسابقها في السفرِ مرتين فسبقها وسبقته ثم قال: **هذه بتلك**، وتدافعا في خروجهما من المنزلِ مرة، وفي الصحيحِ أن نساءه كن يراجعنه الحديث، وتهجره الواحدةُ منهن يومًا إلى الليل، ودفعته إحداهن في صدره فزجرتها أمها فقال لها: دعيها فإنهنَّ يصنعن أكثرَ من ذلك، وجرى بينه وبين عائشة كلام حتى أدخل بينهما أبا بكر حكمًا كما في خبر الطبراني، وقالت له عائشة مرة في كلام: وأنتَ الذي تزعمُ أنك نبي الله؟ فتبسم)[٢].

أليس هو القائل ﷺ: (**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي**)[٣].

تقول عنه عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يخصفُ نعلَه وكنتُ أغزل، قالت: فنظرت إلى رسول الله ﷺ فجعل جبينه يعرقُ وجعل عرقه يتوقد نورًا، قالت: فبُهِتُّ [دُهِشت]؛ قالت: فنظر إليَّ فقال: ما لك تُهبِّ؟!، فقلت: يا رسول الله؛ نظرت إليك فجعل جبينك يعرق وجعل عرقك يتولد نورًا، فلو رآك أبو كبير الهذلي لعلم أنك أحق بشعره، قال: وما يقول يا عائشة أبو كبير الهذلي؟ فقالت: يقول:

وإذا نظرت إلى أسِرَّة وجهه ... برقت كبرقِ العارضِ المتهللِ

(١) متفق عليه، رواه البخاري، (١٩٢٠)، ومسلم (١١٧٤).
(٢) فيض القدير، المناوي، (٣/٦٦١).
(٣) رواه الترمذي في سننه، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣٨٩٥).

قالت: فوضع رسول الله ﷺ ما كان في يده وقام إلي فقبل ما بين عيني وقال: جزاك الله يا عائشة خيرًا ما سررت مني كسروري منك[١].

ولم لا تعترف عائشة بهذا الفضلِ لزوجها وهو رسولُ الله ﷺ، وهو خيرُ الرجالِ لزوجاته، يذكرهن بالله، ويوقظهن للصلاة؛ منفذًا لقول الله: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى} [طه: ١٣٢]؛ يساعدهنَّ في عملِ البيتِ بل شاهد هذا الموقفَ الذي ترويه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها؛ (كانت عائشةُ رضي الله عنها مع رسول الله ﷺ في سفره وهي جاريةٌ.

قالت: لم أحملِ اللحمَ ولم أبدنْ، فقال لأصحابه: **تقدموا**، فتقدموا، ثم قال: تعالي أسابقُك فسابقته.

فسبقته على رجلي، فلما كانَ بعدُ خرجت معه في سفرٍ، فقال لأصحابه: تقدموا، ثم قال: تعالي أسابقُك ونسيتُ الذي كانَ وقد حملتُ اللحمَ وبدنت، فقلت: كيف أسابقُك يا رسول الله وأنا على هذه الحال؟ فقال: لتفعلن فسابقته فسبقني فجعلَ يضحكُ وقال: **هذه بتلك السبقة**)[٢].

وقد كان صلى الله عليه يراعِي زوجاتِه ويحرص على استقرار الأسرة وديمومتها في أجواءٍ مستقرةٍ بعيدةٍ عن الرياء والسمعة والتشاحن والبغضاء، ودل على ذلك حديث عائشة رضي الله عنها: (قَالَتْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَعْتَكِفَ صَلَّى الْفَجْرَ ثُمَّ دَخَلَ مُعْتَكَفَهُ، وَإِنَّهُ أَمَرَ بِخِبَائِهِ فَضُرِبَ أَرَادَ الاعْتِكَافَ فِى الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، فَأَمَرَتْ زَيْنَبُ بِخِبَائِهَا فَضُرِبَ وَأَمَرَ غَيْرُهَا مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِىِّ ﷺ بِخِبَائِهِ فَضُرِبَ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْفَجْرَ نَظَرَ فَإِذَا الأَخْبِيَةُ فَقَالَ (آلْبِرَّ تُرِدْنَ)؛ فَأَمَرَ بِخِبَائِهِ فَقُوِّضَ وَتَرَكَ الاعْتِكَافَ فِى شَهْرِ رَمَضَانَ حَتَّى اعْتَكَفَ فِى الْعَشْرِ الأَوَّلِ مِنْ شَوَّالٍ)[٣].

(١) الرحيق المختوم ص(٤٧٦).
(٢) رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح أبي داوود (٢٥٨٠).
(٣) رواه البخاري، (١٩٢٨)، ومسلم، (٢٨٤٢).

قال ابن حجر في فتح الباري: (وكأنه ﷺ خشي أن يكونَ الحاملُ لهن على ذلك المباهاةُ والتنافسُ الناشيءُ عن الغيرة، حرصًا على القرب منه خاصة، فيخرجُ الاعتكافُ عن موضوعِه)[١].

ونحن في وقتٍ صرنا نرى فيه بعض الصالحين يشتغلون في رمضانَ ببعضِ القرباتِ كالعمرةِ والقيامِ والاعتكافِ، ويتركون أهاليهم من غير توجيهٍ ولا متابعةٍ فهلَّا تأسينا بحالِ النبي ﷺ.

تقول عنه عائشة رضي الله عنها: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيُدْخِلُ عَلَيَّ رَأْسَهُ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ فَأُرَجِّلُهُ، وَكَانَ لاَ يَدْخُلُ الْبَيْتَ إِلاَّ لِحَاجَةٍ إِذَا كَانَ مُعْتَكِفًا)[٢].

ما أجمل وأحسن هذه العلاقة بين النبي ﷺ وأزواجه وهو معتكف، إنها التي سماها أرحم الراحمين سبحانه وتعالى: {وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الروم: ٢١].

بل كانَ ﷺ يباشرُ زوجاته وهو صائمٌ ويقبلهن، تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها؛ (**كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُقَبِّلُنِي وَهُوَ صَائِمٌ**)[٣].

(وقالت أهوى إلي رسول الله ﷺ ليقبلَني، فقلت: إني صائمة، **قال: وأنا صائم فقبَّلني**)[٤].

وفي حديث حفصة رضي الله عنها (أن النبي ﷺ كانَ ينالُ من وجه بعضِ نسائه وهو صائم)[٥].

وحين سأل الأسودُ ومسروقٌ أمَّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها: أكان رسول الله ﷺ يباشر وهو صائم؟

---

(١) فتح الباري، ابن حجر، (٣٢٤/٤).
(٢) متفق عليه، رواه البخاري، (١٩٢٥)، ومسلم، (٧١١).
(٣) رواه مسلم، (٢٦٣٠).
(٤) رواه أحمد (٢٥٤٦٩)، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري.
(٥) رواه أحمد، (٢٦٤٨٨)، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

قالت: (نعمْ، وَكَانَ أَمْلَكَكُمْ لإِرْبِهِ)[١].

وهذا يدلُّ على أن الصائمينَ في شأنِ المباشرةِ والقبلة ليسوا سواء، فمن كانَ مالكًا لنفسه جازَ له ذلك، كما كان يفعلُ النبيُّ ﷺ، ومن كانَ غيرَ مالك لنفسه ويخشى على صيامِه أن يفسدْ، لم يجزْ له ذلك سدًا للذريعة، ولأن ما لا يتمُّ الواجبُ إلا به فهو واجبٌ.

والمقصودُ أن الصيامَ لا يحولُ بين الزوجين والقيام بشيءٍ من رسائلِ المحبةِ ومظاهرِ التوادِّ من قبلةٍ ونحوِها، مادام أن ذلك لا يوقع في محرم ولا يؤدي إلى تركِ واجب، فحذار من الجفاءِ والتباعدِ، فإنها البذرةُ الحقيقيةُ للاختلافِ والمعولُ الخطرُ لهدمِ كيانِ الأسر وتفرقها.

ومن عظيم فقه ﷺ لمعنى العبادةِ حينما علَّم صحابتَه الكرام معنى أن تكون حياتك كلها لله ليصدقَ قول الله تعال: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام: ١٦٢].

فقال ﷺ: (**وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ**)؛ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؛ قَالَ: (**أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ**)[٢].

وقد كان ﷺ يجامعُ زوجاته في الليالي العشرين الأولِ من رمضان، وهذا يدل على أن النسكَ والصلاةَ والصيامَ والقيامَ، لا تحولُ بين العبدِ وبين القيام بواجب الأهل.

يشهد بذلك حديث أم سلمة: (قَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُدْرِكُهُ الْفَجْرُ فِي رَمَضَانَ وَهُوَ جُنُبٌ مِنْ أهله ثم يَغْتَسِلُ وَيَصُومُ)[٣].

وحتى بعد اعتكافه فلا يعتبر هذا الاعتكافُ قطيعةً للأهلِ ولا العزلةَ المطلقةَ عن محيطِ الأسرة، إذ لا يمنعُ المرءُ من القيامِ برعايةِ أهلِه، ولا يحولُ بينه وبينَ إتيانِ شيءٍ من جوانبِ الرحمةِ ومظاهرِ حسنِ العشرةِ.

---

(٦) متفق عليه، رواه البخاري (١٨٢٦)، ومسلم (١١٠٦)، والإرب: هي الحاجة.
(١) رواه مسلم، (٢٣٧٦).
(٢) متفق عليه، رواه البخاري (١٨٢٥)، ومسلم (١١٠٩).

فقد خرج ﷺ كما حديث صفية رضي الله عنها، لحماية زوجته وليوصلها: (عن عَلِيُّ بْنُ حُسَيْنٍ أَنَّ صَفِيَّةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ- جَاءَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ تَزُورُهُ فِى اعْتِكَافِهِ فِى الْمَسْجِدِ فِى الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ فَتَحَدَّثَتْ عِنْدَهُ سَاعَةً ثُمَّ قَامَتْ تَنْقَلِبُ وَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْلِبُهَا [أي يردها إلى بيتها])[1].

فأين هذا ممن يرتدي أزياءَ التعبدِ ثم تجدُ حظَّ أهلِ أحدِهم من أخلاقِه أسوأها ومن أوقاتِه آخرِها، ومن تفكيره فضلتِه، ومن اهتمامه ثمالتِه، حتى ما عادوا يطمعون في عطفِه وإحسانِه، ولا يأملونَ في برِّه وشيءٍ من خيره، ثم هو يرجو منهم غايةَ البرِ وتمامَ الإحسانِ.

حقًا إنك لا تجني الشوك من العنب ولا من العلقم عسل.

(١) متفق عليه، رواه البخاري (١٩٣٠)، ومسلم، (٥٨٠٩).

# تعليم النبي ﷺ لأزواجه في رمضان

كانَ رسولُ الله ﷺ يقولُ لزوجته عائشةَ حين قالت له: يا رسولَ الله أرأيتَ إن علمتُ أيَّ ليلةٍ القدرِ ما أقول فيها؟ قال: قولي: (**اللهمَّ إنَّك عفوٌّ كريمٌ تحبُّ العفوَ فاعفُ عنِّي**)[١].

وقالت السيدةُ عائشةُ رضي الله عنها لمعاذةَ حينما سألت: ما بالُ الحائضُ تقضي الصومَ ولا تقضي الصلاةَ؟ فقالت رضي الله عنها: (كانَ يصيبُنا ذلك فنؤمرُ بقضاءِ الصومِ ولا نؤمرُ بقضاءِ الصلاةِ)[٢].

وكلُّ ذلكَ يدلُّ على حجم العنايةِ التي أولاها ﷺ لتعليم نسائه وإرشادِهن؛ ومن تأملَ اليومَ واقعَ كثيرٍ من نساءِ أسرِنا بما في ذلك أسرِ بعضِ الدعاةِ وجدَ جهلًا ظاهرًا فيما لا يسعُ المرأةُ المسلمةُ جهلَه من أحكامِ الدينِ، وفيما عليه مدارُ أكثرِ عملِ المرأةِ المسلمةِ من واجباتٍ ومستحباتٍ.

وقدْ كانَ حريصٌ ﷺ أنْ يعرفنَ حالَه وعبادتَه، وفي ذلك تربيةٌ بالقدوةِ وتأثيرٌ بالسلوكِ منه صلوات ربي وسلامه عليه.

تقول أمُّ المؤمنينَ عائشةُ رضي الله عنها: (كانَ نبيُّ الله ﷺ إذا صلَّى صلاةً أحبَّ أن يداومَ عليها، وكان إذا غلبَه نومٌ أو وجعٌ عن قيام الليلِ صلى من النهارِ ثنتي عشرةَ ركعة، ولا أعلمُ نبيَّ الله ﷺ قرأَ القرآنَ كلَّه في ليلةٍ ولا صَلى ليلَةً إلى الصبح، ولا صامَ شهرًا كاملًا غير رمضان)[٣].

فأين أولئكَ الأخيارُ الذين يعيشونَ جوانبَهم الدعويةِ والعلميةِ والتعبديةِ في خفاءٍ، وهم بعيدونَ كل البعدِ عن أسرِهم وأهاليهم.

ثم يقومُ ﷺ بحَثِّ أهلِه على العبادةِ وعلى الطاعةِ؛ تقول أم سلمة رضي الله عنها: (كان رسولُ اللهِ ﷺ إذا بقيَ من الشهرِ عشرةُ أيامٍ لم يذر أحدًا من أهلِه يطيقُ القيامَ إلا أقامَه)[٤].

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣٥١٣).
(٢) رواه مسلم، (٣٣٥).
(٣) رواه مسلم، (٧٤٦).
(٤) قيام مضان، المروزي، (٧٤٦)، وهو حديث حسن لغيره.

وفي حديث عائشة رضي الله عنها: (كانَ رسولُ الله ﷺ يجاورُ في العشرِ الأواخرِ من رمضانَ، ويقول: **تحروا ليلةَ القدرِ في العشرِ الأواخرِ من رمضانَ**)[١].

وقد نهى النبي ﷺ وليَّ المرأةِ من منعهنَّ المساجد فقال: (**لا تمنعوا إماءَ اللهِ مساجدَ اللهِ**)[٢]؛ إذا لم يصحبْ حضورَها محظورٌ، وأمنت الفتنةُ، وحافظت على الحجابِ الشرعي، وابتعدتْ عن الطِّيبِ ولباسِ الزينة، وقد قال ﷺ: (**وبيوتهنَّ خيرٌ لهنَّ**)[٣].

ومنْ أجملِ ما قيلَ في هذا البابِ وقوفُ الفاروقِ عمرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه عند حدودِ ربه تعالى وعندَ كلامِ رسوله ﷺ، فعن ابن عمرَ رضي الله عنهما كانتْ امرأةٌ لعمر تشهدُ صلاةَ الصبحِ والعشاءِ في الجماعةِ في المسجدِ.

فقيل لها: لم تخرجينَ وقدْ تعلمينَ أن عمرَ يكرهُ ذلكَ ويغارُ؟

قالت: وما يمنعُه أن ينهاني؟ قال: يمنعُه قولَ رسول الله ﷺ (**لا تمنعوا إماءَ الله مساجدَ الله**)[٤].

هكذا كانَ يحرصُ النبيُّ ﷺ أن يعلمَ زوجاتِه ويحثهنَّ على العبادةِ والطاعةِ، ومع أن المسئوليةَ تقعُ على الزوجةِ بالأساسِ لكنه لا يمكن إغفالُ التقصيرِ من الزوجِ أو الأبِ وهو لاشك داخلٌ في إطارِ تضييعِ الأمانةِ وعدمِ القيامِ بالمسئوليةِ الواجبةِ ويكفى تحذيرُ النبيِّ ﷺ بقولِه: (**كلكمْ راعٍ وكلكمْ مسئولٌ عن رعيتِه، فالرجلُ راعٍ في بيتِه وهو مسئولٌ عن رعيتِه**)[٥].

وقال ﷺ: (**كفى بالمرءِ إثمًا أن يضيعَ منْ يقوت**)[٦].

وتقصيرُ أولياءِ الأمورِ في التربيةِ وما يرتبطُ بها من وعظٍ وتذكيرٍ وترغيبٍ ونحوِها من الطرقِ للتعليم والتأثيرِ هو اليومَ أكثرُ وضوحًا من التقصيرِ في التعليم.

(١) رواه البخاري، (٢٠٢٠).
(٢) رواه البخاري، (٨٥٨).
(٣) رواه أبو داود في سننه، وصححه الألباني في صحيح أبي داوود (٥٦٧).
(٤) رواه البخاري، (٨٥٨).
(٥) رواه مسلم، (١١٣٦).
(٦) رواه أحمد (٦٤٩٥)، وهو صحيح لغيره.

يستوى في هذا الضعفِ الصلحاءُ وغيرُهم، ولذا أُشربت نفوسُ العديدِ من فتياتِنا الشبهاتِ التي يبثها في أوساطِهن مَنْ لا يريدُ للأمة عزًّا ولا للنساءِ عفةً وتدينًا وتعلقتْ عامتُهن بالشهواتِ المهلكةِ.

لذلك رأينا من النبيِّ ﷺ في رمضانَ إذنَه لزوجاته بالاعتكافِ معه، فعن عائشة رضي الله عنها (أن رسولَ الله ﷺ، ذكرَ أن يعتكفَ العشرَ الأواخرَ من رمضانَ، فاستأذنته عائشةُ فأذنَ لها وسألتْ حفصةُ عائشةَ أن تستأذنَ لها ففعلت)[١].

ومن خلال هذا الاستئذانِ تتجلى لنا بصورةٍ مشرقةٍ القوامةُ المسئولةُ التي تحافظُ على استقرارِ الأسرةِ المسلمةِ وتعززُ الاحترامَ وتعمقُ الاطمئنانَ والثقةَ المتبادلةَ بين أفرادِها.

يقول تعالى في سورة النساء: {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ} [النساء: ٣٤].

قال ابن كثير: (الرجلُ قيمٌ على المرأةِ، أي هو رئيسُها وكبيرُها والحاكمُ عليها ومؤدبُها إذا اعوجت)[٢].

وفي إذنه ﷺ لأزواجه بالاعتكافِ دلالةٌ ظاهرةٌ على أن الاعتكافَ ليس خاصًّا بالرجالِ بل يعمُّ أيضًا النساء، لكنه مقيدٌ بإذنِ أوليائِهنَّ وأمنِ الفتنةِ عليهنَّ وضمانِ عدمِ الخلوةِ بالرجالِ الأجانبِ.

وكان ﷺ حينَ يخرجُ لصلاةِ الجماعةِ بالمسجدِ يدعو أهلَه ونساءَه؛ ففي حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه؛ وفيه قال: (ثمَّ لم يُصلِّ بنا حتى بقي ثلاثٌ من الشهر، وصلى بنا في الثالثةِ ودعا أهلَه ونساءَه فقامَ حتى تخوفنا الفلاحَ؛ فقلت: وما الفلاحُ؟ قال: السحور)[٣].

وانظر إلى حرصه ﷺ بتربيتهن والاهتمام بتعلميهن؛ ففي حديث عائشة رضي الله عنها (أن النبيَّ ﷺ اعتكفَ مع بعضِ نسائِه وهي مستحاضةٌ ترى الدمَ، فربما وضعت الطستَ تحتها منَ الدم)[٤].

---

(١) رواه البخاري، (٢٠٤٥).
(٢) تفسير ابن كثير، (٢/٢٩٢).
(٣) رواه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٨٠٦).
(٤) رواه البخاري، (٣٠٩).

وهذه المشاركة في الخير ما كانت لتحدث لولا العنايةُ العميقةُ منه ﷺ بتربيةِ زوجاته وأهلِ بيتِه، وحرصِه على أن يكونَ سببًا في نجاتِهم يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ إلا من أتى اللهَ بقلبٍ سليمٍ.

**وللنساءِ أوفرُ نصيبٍ** في حفظِ زوجِها ومعاونتِه على الخيرِ والعملِ الصالحِ؛ فها هي فاطمةُ بنت عبد الملك بن مروان تحفظُ زوجَها أميرَ المؤمنين الخليفةَ الراشدَ عمرَ بن عبد العزيز في حياتِه وبعد موته:

(ففاطمةُ بنتُ أميرِ المؤمنين عبد الملك بن مروان كان لأبيها يوم تزوجت السلطانَ الأعظم على الشام والعراقِ والحجازِ واليمنِ وإيرانَ والسندَ وقفقاسيا والقرم وما وراء النهرِ إلى نجارا وجنوةَ شرقًا، وعلى مصرَ والسودانِ وليبيا وتونسَ والجزائرِ والمغربِ الأقصى وإسبانيا غربًا، ولم تكن فاطمة هذه بنت الخليفة الأعظمْ وحسبْ بل كانت كذلك أختَ أربعةٍ من فحول خلفاء الإسلام وهم: الوليدِ بن عبد الملك وسليمانَ بن عبد الملك ويزيدَ بن عبد الملك وهشامِ بن عبد الملك.

وكانت فيما بين ذلك زوجةُ أعظمَ خليفةٍ عرفه الإسلام بعد خلفاء الصدر الأولِ وهو أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، وهذه السيدة خرجت من بيت أبيها إلى بيتِ زوجها يوم زفت إليه وهي مثقلة بأثمن ما تملكه امرأةٌ على وجهِ الأرضِ من الحليِّ والمجوهراتِ ويقال: إن من هذه الحلي قرطي ماريةَ اللذين اشتهرا في التاريخِ وتغنَّى بهما الشعراءُ وكانا وحدهما يساويان كنزًا.

ومن فضول القول أن أشيرَ إلى أن عروسَ عمر بن عبد العزيز ـ في الوقت الذي كان فيه أعظم ملوك الأرض- اختار أن تكون نفقةَ بيتِه بضعةَ دراهمَ في اليوم ورضيت بذلك زوجةُ الخليفةِ التي كانتْ بنت الخليفةِ وأخت أربعةٍ من الخلفاء، بل اقترح عليها زوجها أن تترفعَ عن عقليةِ الطفولةِ فتخرجُ عن هذه الألاعيب والسفاسف التي كانتْ تبهرجُ بها أذنيها وعنقَها وشعرَها ومعصميها مما لا يسمنُ ولا يغني من جوعٍ، ولو بيعَ لأشبع ثمنه بطونَ شعب برجالِه ونسائِه وأطفالِه، فاستجابتْ له واستراحتْ من أثقالِ الحليِّ والمجوهراتِ واللآلئِ والدررِ التي حملتْها معها من بيتِ أبيها فبعثتْ بذلك كلِّه إلى بيتِ مال المسلمين.

وتوفي أميرُ المؤمنينَ عمر بن عبد العزيز ولم يخلفْ لزوجتِه وأولادِه شيئًا، فجاءَها أمينُ بيت المالِ وقال لها: إن مجوهراتك يا سيدتي لا تزال كما هي، وإني اعتبرتُها أمانةً لك وحفظتُها لهذا اليوم، وقد جئتُ أستأذنُك في إحضارها، فأجابتْه بأنها وهبتْها لبيتِ مالِ المسلمينَ طاعةً لأميرِ المؤمنين، ثم قالت: وما كنتُ لأطيعُه حيًّا وأعصيه ميتًا!!

## تعليم النبي ﷺ لأمته في رمضان

يقولُ عبدُ اللهِ بين أبي أوفى رضي الله عنه: (كنَّا معَ رسولِ الله ﷺ في سفرٍ في شهرِ رمضان، فلما غابتِ الشمسُ قال: **يا فلان انزلْ فأجدح لنا**، قال: يا رسول الله إن عليك نهارًا؛ قال: **انزل فاجدح لنا**؛ قال: فنزل فجدح فأتاه به فشرب النبي ﷺ؛ ثم قال بيده: **إذا غابتِ الشمسُ منْ هاهنا وجاءَ الليلُ من هاهنا فقدْ أفطرَ الصائمُ**)[١].

والجَدْحُ: هو تحريكُ الحنطةِ والشعيرِ بالماءِ واللبنِ ونحوه حتى يستوى.

هكذا كانَ النبيُّ ﷺ حريصٌ على تعليم صحابتِه ونصيحتِه لهم، والمتأملُ في سيرته ﷺ في شهرِ رمضانَ يرى بجلاءٍ أنه قد تقلبَ بينَ صحابته الكرام بين أحوالٍ عدة وصورٍ رائعةٍ من الرعاية والتزكية، والتي تمتلئُ بالحنانِ والرحمةِ، وتجودُ بالرفقِ والرأفةِ، والحرصِ على السعادةِ، والاستقرارِ في هذه الحياةِ الدينا والظفرِ بالنجاةِ حين ملاقاةِ الله تعالى والوقوفِ بين يديه في الآخرةِ.

وفي حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: (**منْ ذرَعَه القيءُ فليسَ عليه قضاءٌ، ومن استقاءَ فلْيقضِ**)[٢].

وللدعاةِ في شهرِ رمضانَ مهمةٌ تعليميةٌ ودعويةٌ، وذلك من خلالِ بذلِ غايةِ الجهدِ في تعليمِ الناسِ وتفقيههم وتعريفِهم حقيقةَ الإسلامِ والإيمانِ، واستثمارِ إقبالِهم على المساجدِ في تعميقِ دينِهم، واستصلاحِ قلوبِهم وأعمالِهم وتقويةِ استقامتِهم ووقايتِهم من سبلِ الإغواءِ وتربيتِهم على الخيرِ وأعمالِ البرِّ.

ولطالما استخدم النبيُ ﷺ وسائلَ التحفيزِ لأصحابِه للمبادرةِ للعملِ الصالح: فيخبرهم ﷺ قائلًا عن رب العزة تبارك وتعالي: (**والذي نفسي بيدِه لخلوفُ فم الصائم أطيبُ عند اللهِ من ريحِ المسكِ، يتركُ طعامَه وشرابَه وشهوتَه من أجلي؛ الصيامُ لي وأنا أجزيَ بهِ والحسنةُ بعشرةِ أمثالِها**)[٣].

(١) متفق عليه، رواه البخاري، (١٨٣٩)، ومسلم (٢٦١٤)
(٢) رواه أحمد، (١٠٤٦٨)، وقال شعيب الأرنؤوط إسناده صحيح.
(٣) متفق عليه، رواه البخاري، (١٨٩٤)، ومسلم (١١٥١).

وفي لفظٍ لمسلم يقول ﷺ: (**كلُّ عملِ ابنِ آدمَ يضاعفُ الحسنةُ بعشرةِ أمثالِها إلى سبعمائةِ ضعفٍ، قال الله عز وجل: إلا الصومُ فإنَّه لي وأنَا أجزي بهِ يدعُ شهوتَه وطعامَه من أجلي؛ وللصائمِ فرحتانِ: فرحةٌ عندَ فطرِه وفرحةٌ عندَ لقاءِ ربه**)[١].

وتحفيزُ النبيِّ ﷺ لصحابتِه الكرامِ دليلٌ على حرصِه على ما ينفعُ صحبَه الكرام رضي الله عنهم وعلى أن النفوسَ مهما بلغتْ من الكمالِ والمسابقةِ في الخيراتِ لم تستغنِ عن النصحِ والتوجيه ترغيبًا وترهيبًا.

فالوعظُ أسلوبٌ نبويٌّ كريمٌ يحتاجُ إليه كلُّ أحدٍ، لكنْ بأسلوبٍ حكيمٍ يتحينُ فيه الواعظُ المكانَ والزمانَ المناسبين، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: (كانَ النبيُّ ﷺ يتخولُنا بالموعظةِ في الأيامِ كراهةَ السآمةِ علينا)[٢].

أي: يتعهدُنا بالتذكيرِ مراعيًا أوقاتَ نشاطِنا ولا يفعلُ ذلك دائمًا.

وقد كانَ الكثيرُ من العلماء على هذا الدربِ من أربابِ المواعظِ العظيمةِ كالحسنِ البصري وابن الجوزي ونحوهما؛ يقول الإمام أحمد بن حنبل: (ما أحوجَ الناسِ إلى قاصٍّ صدوقٍ)[٣].

ويقول ابن الجوزي: (ألستَ تبغي القربَ منه؟ فاشتغلْ، بدلالةِ عبادِه عليه، فهي حالاتُ الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام؛ أَمَا علمتَ أنهم آثروا تعليمَ الخلق، على خلواتِ التعبدِ، لعلمِهم أن ذلك آثرُ عند حبيبِهم)[٤].

{**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**} [فصلت:٣٣].

قال الحسنُ البصريُّ عند هذه الآيةِ: هو المؤمنُ أجابَ اللهَ في دعوتِه، ودعا الناسَ إلى ما أجابَ اللهُ فيهِ منْ دعوتِه وعملَ صالحًا في إجابتِه، فهذا حبيبُ الله .. هذا وليُّ الله.

---

(١) رواه مسلم، (١١٥١).
(٢) رواه البخاري، (٦٨)، ومسلم (٧٣٠٥).
(٣) تلبيس إبليس، ابن الجوزي، (١٥٠).
(٤) صيد الخاطر، ابن الجوزي، (٢٥).

**فكم منَ القلوبِ تفتَّحتْ في رمضان.**

**كمْ من الغائبينَ عنه رجعوا إليهِ في رمضان.**

**كمْ من القلوبِ القاسيةِ لانت في رمضان.**

فهلْ لكَ أن ترميَ في الغنيمةِ بسهمٍ وتأخذُ من الكنزِ وتشاركُ في الأرباحِ!!

وحينما غابت الأسودُ عوت الذئابُ، وتوارى الحقُّ فتبجَّح الباطلُ، وخجلَ أهلُ المعروفِ من نشرِ معروفِهم فغزاهم المنكرُ في عقرِ دارِهم وأصابَ فلذاتِ أكبادِهم.

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: (إن اختيارَ اللهِ لكمْ لحَمْلِ دعوتِه تكريمٌ ومنٌّ وعطاءٌ، فإذا لم تحاولوا أن تكونوا أهلاً لهذا الفضلِ، وإذا لم تنهضوا بتكاليفِ هذه المكانةِ، وإذا لم تدركوا قيمةَ ما أُعطيتم فيهونُ عليكم كلَّ ما عداه ـ فإنَّ الله يستردُّ ما وهبَ، ويختارُ لهذه المنةِ ممنْ يقدرُ فضلَ الله)[١].

ويقول الغزالي رحمة الله عليه: (اعلمْ أنَّ كلَّ قاعدٍ في بيتِه أينما كانَ فليس خاليًا في هذا الزمانِ عن مُنْكرٍ، منْ حيثُ التَّقاعدَ عن إرشادِ الناسِ وتعليمِهم وحمْلِهم على المعروفِ، فأكثرُ الناسِ جاهلونَ بالشرعِ في شروطِ الصلاةِ في البلادِ، فكيفَ في القرى والبوادي، ومنهم الأعرابُ والأكْرادُ وسائرُ أصناف الخلْق، وواجبٌ أن يكونَ في كلِّ مسجدٍ ومحلة من البلدِ فقيهٌ يعلّم الناسَ دينَهم وكذا في كلِّ قريةٍ، وواجبٌ على كلِّ فقيهٍ فرغَ من فرضِ عينِه لفرضِ الكفايةِ أنْ يخرجَ إلى ما يجاورُ بلدَه من أهلِ السوادِ ومن العربِ والأكرادِ وغيرِهم، ويعلِّمَهم دينَهم وفرائضَ شرعهم)[٢].

فحري بك أن تحمل الراية بعدَ النبيِّ ﷺ فهو الذي أمر قائلًا: (**بلغُوا عنِّي ولو آيةً**)[٣]، فلو حضرت خطبةَ جمعةٍ وتأثرتَ بها، فاكتب ملخصَها، واجلس مع أولادك، مع زوجتِك، مع زملائِك في العملِ، مع شريكِك في التجارةِ، وانقلها له، أو خذْ شريطًا وأعطِه لمن تثقُ أنه سينتفع به.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٣٣٠٤/٦).
(٢) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، (٣٢٧/٢).
(٣) رواه البخاري، (٣٢٧٤).

ولا تنسَ نفسَك في ما نصحتَ الناسَ به، حتى لا تكونَ فتيلةً تضيءُ للناسِ وتحرقُ نفسها؛ قال رسول الله ﷺ: **(مثلُ الذي يُعلِّم الناسَ الخيرَ وينسى نفسَه مثلُ الفتيلةِ تضيءُ على الناسِ وتَحرقُ نفسها)**[1].

(وكأني بالإسلام اليومَ في زمانِ استضعافِ أمةِ الإسلامِ يحلمُ؛ يحلمُ بأولئك الفرسانِ النبلاءِ من صنَّاعِ الحضارةِ، ممن سيعود على أيديهم مجدَه من جديد.

وستظلُّ هذه الأحلام أضغاثًا وستظلُّ هذه المعادلاتِ حبرًا على ورقٍ، ما لم ينتصبْ لها غرٌّ ميامينٌ يكفكفونَ دمعَ أمتهم، ويترجمونَ أفعالَ الرسولِ ﷺ إلى واقعٍ حيٍّ وإلى منهجِ حياة)[2].

(١) رواه الطبراني في الكبير، (١٦٥٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، (٥٨٣٧).
(٢) مصابيح لا شموع، فريد مناع، (٢٩).

## النبي ﷺ كان أجود الناس في رمضان

**كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ بِالْخَيْرِ وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ إِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ سَنَةٍ فِي رَمَضَانَ حَتَّى يَنْسَلِخَ فَيَعْرِضُ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْقُرْآنَ فَإِذَا لَقِيَهُ جِبْرِيلُ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدَ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ**[١]، هكذا وصفه عبدُ الله بنُ عباسٍ رضي الله عنهما.

(ومدارستُه القرآنَ تجددُ له العهدَ بمزيدِ غنى النفسِ، والغنى سببُ الجود)[٢].

وكان جوده ﷺ: (يجمعُ أنواعَ الجود كلها من بذلِ العلمِ والنفسِ والمالِ لله عز وجل، في إظهار دينِه وهدايةِ عباده وإيصالِ النفع إليهم بكلِ طريقٍ من تعليمِ جاهلِهم وقضاءِ جوائهم وإطعام جائعهم)[٣].

وكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدَ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ؛ في سرعةِ مبادرته في الجودِ والإحسانِ في رمضان، واستنفاعُ الجميعُ بذلك كما هي سرعةُ الريحِ المرسلة، وعمومُها لجميعِ ما تهبُّ عليه، يقول ابن المنير رحمه الله: (فيعمُّ خيرُه وبرُّه من هو بصفة الفقرِ والحاجةِ ومَنْ هو بصفةِ الغنى والكفايةِ أكثر مما يعم الغيثُ الناشئةُ عن الريحِ المرسلةِ ﷺ)[٤].

كان يقول عليه الصلاة والسلام: **(الصدقةُ تطفئُ الخطيئةَ، كما يذهب الجليدُ على الصفا)**[٥].

وكان يقول: **(من أنفقَ نفقةً في سبيلِ الله كُتب له سبعمائةُ ضعفٍ)**[٦].

وكان يقول: **(كلُّ امرئٍ في ظلِّ صدقتِه حتى يُفصلَ بين الناسِ)**[٧].

وكان يقول: **(من استطاعَ منكم أن يستتر من النارِ ولو بشقِ تمرةٍ فليفعلْ)**[٨].

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٣٠٤٨)، ومسلم (٦١٤٩).
(٢) فتح الباري، ابن حجر، (٤١/١).
(٣) مجموع فتاوى ابن عثيمين، (٢٦٢/٢٠).
(٤) فتح الباري، ابن حجر، (١٣٩/٤).
(٥) رواه ابن حبان (٥٥٦٧) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥١٣٦).
(٦) رواه أحمد (١٨٩٠٠)، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.
(٧) رواه أحمد (١٧٣٧١)، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.
(٨) رواه مسلم (٢٣٤٧).

وكان يقول: (**منْ أنفقَ زوجينِ في سبيلِ الله نوديَ من أبوابِ الجنةِ**)[١].

يقول ابن عمر رضي الله عنهما: (**ما رأيتُ أحدًا أنجدَ ولا أجودَ ولا أشجعَ ولا أضوأَ وأوضأَ من رسول الله ﷺ**)[٢].

وعن جابر رضي الله عنهما قال: ما سُئل رسولُ الله ﷺ شيئًا قط فقال: لا)[٣].

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال ما سُئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئًا إلا أعطاه، قال: فجاءه رجلٌ فأعطاه غنمًا بين جبلينِ فرجعَ إلى قومه، فقال: يا قوم أسلموا فإن محمدًا يعطى عطاءَ لا يخشى الفاقة[٤].

ومن جودِه ﷺ أنه جاءته امرأةٌ بِبُرْدة فقالت: يا رسولَ الله أكْسوك هذه، فأخذَها النبيُّ ﷺ محتاجًا إليها، فَلَبسَها، فرآها عليه رجل من الصحابةِ، فقال: يا رسول الله، ما أحْسَنَ هذه، فاكْسُنيها فقال له: نعمْ، فلما قام النبيُّ لامه أصحابُه فقالوا: ما أحسنْتَ حين رأيتَ النبي أخَذها مُحتاجًا إليها، ثم سألتَهُ إياها، وقد عرفتَ أنه لا يُسْأَل شيئًا فيمنعه فقال: (**رجوتُ بَرَكَتَهَا حين لَبِسها النبي لَعَلي أُكَفَّن فيها**)[٥].

وكان لمثل هذه المواقف أثرٌ بالغٌ في نفوس الأعراب حتى قال أنس: (إن كانَ الرجلُ ليسلمُ ما يريد إلا الدنيا، فما يسلمُ حتى يكونَ الإسلامُ أحبَّ إليه من الدنيا وما عليها)[٦].

فالصدقة تنمي الإيمان، وتُعظِم التوكل، وتزيدُ الطمأنينةُ، وتعمقُ حسنَ الظنِّ برب العالمين سبحانه، وتدفعُ البلايا والمصائبَ، وتغلقُ أبوابَ السوء، وتشرحُ الصدرَ، وتفرحُ القلبَ، وتنيلُ الشرفَ، وتزيلُ الشحَّ، وتتغلبُ على هوى النفس، وتسترُ العيوب، وتستميلُ النفوس، وتظفرُ بثقتها ومودتها.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (١٧٩٨)، ومسلم (٢٤١٨).
(٢) رواه الدارمي (٥٩) ورجاله ثقات.
(٣) متفق عليه، رواه البخاري (٥٥٧٤)، ومسلم (٦١٥٨).
(٤) رواه مسلم (٦١٦٠).
(٥) رواه البخاري، (٥٦٨٩).
(٦) رواه مسلم، (٦١٦١).

ويتعلم أبو الدحداح من مربيه وقدوته ومعلمه محمد بن عبد الله ﷺ فيستمعُ إلى قول الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [البقرة: ٢٤٥].

فقال لرسول الله ﷺ: وإنَّ الله ليريدُ منا القرضَ، قال: «**نعمْ يا أبا الدحداح**»، قال: أرني يدكَ يا رسول الله، قال: فناوله رسولُ الله يدَه، قال: فإني قد أقرضتُ ربي حائطي، قال: وحائطه له فيه ستمائةُ نخلةٍ وأمُّ الدحداح فيه وعيالها، قال: فجاءَ أبو الدحداح فنادى: يا أم الدحداح، قالت: لبيك، قال: اخرجي من الحائطِ فقد أقرضته ربي.

فلما سمعته يقولُ ذلك عمدتْ إلى صبيانِها تخرجُ ما في أفواههم وتنفض ما في أكمامِهم فقال النبي ﷺ: (**كمْ منْ عِذْقٍ رداحٍ في الجنةِ لأبي الدحداح**)[1]. والعِذْقُ: هو ما يحملُ التمرَ في النخلةِ، رداح: ثقيلةٌ من كثرةِ ما تحمل.

والدرجات العلى لا تنال إلا بهذا الجودِ الذي بدأه النبي ﷺ ثم تبعهُ أبو الدحداح والصالحينَ من بعدهم في سلسلةٍ متواترة ذهبيةٍ من الجودِ والكرم، ويجملها الله سبحانه وتعالى في آية سورة آل عمران بقوله: {**لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ**}[آل عمران: ٩٢].

يقول الإمام السعدي في تفسيره: (تنالوا: أي: تدركوا وتبلغوا البرَّ الذي هو كلُّ خير من أنواع الطاعاتِ وأنواعِ المثوباتِ الموصلُ لصاحبِه إلى الجنة، {حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} أي: من أموالِكم النفيسة التي تحبُّها نفوسُكم، فإنكم إذا قدمتم محبةَ الله على محبةِ الأموال فبذلتموها في مرضاته، دلَّ ذلك على إيمانِكم الصادق وبرِّ قلوبكم ويقينِ تقواكم، فيدخل في ذلك إنفاقُ نفائسِ الأموالِ، والإنفاقُ في حالِ حاجةِ المنفقِ إلى ما أنفقه، والإنفاقُ في حال الصحةِ، ودلت الآية أن العبد بحسب إنفاقه للمحبوباتِ يكون بره، وأنه ينقصُ من بره بحسب ما نقصَ من ذلك)[2].

(١) رواه أحمد (١٢٤٨١)، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.
(٢) تفسير السعدي، (١٣٨).

ثم يفسره النبي ﷺ في مجلسه مع الصحابةِ رضوان الله عليهم بقوله: (**سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ قَالُوا وَكَيْفَ قَالَ كَانَ لِرَجُلٍ دِرْهَمَانِ تَصَدَّقَ بِأَحَدِهِمَا وَانْطَلَقَ رَجُلٌ إِلَى عُرْضِ مَالِهِ فَأَخَذَ مِنْهُ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ فَتَصَدَّقَ بِهَا**)[١].

وها هو عمرُ بن الخطابِ وأبو بكر الصديق يتسابقا في تنفيذِ هذا الحديث الشريفِ ويضربا أروع الأمثلةِ في الجودِ والكرم وبذلِ المالِ والجهدِ في سبيل رب العالمين سبحانه وتعالى، يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه: (أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا أَنْ نَتَصَدَّقَ فَوَافَقَ ذَلِكَ مَالًا عِنْدِى فَقُلْتُ الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِى فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (**مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ**) قُلْتُ مِثْلَهُ.

قَالَ: وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ رضى الله عنه بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (**مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ**) قَالَ أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، قُلْتُ: لاَ أُسَابِقُكَ إِلَى شَىْءٍ أَبَدًا)[٢].

(والمهمُ أن نعرفَ أن هؤلاء الناس، الذين تمثلت فيهم نماذجُ الإنسانيةِ العليا: النماذجُ التي ظلت فريدةً في سموقها، وظلت سائرُ النماذج على مدار القرون تبدو في ظلها أقزامًا صغيرة، أو كائناتٍ غير تامة الوجود...

المهم أن نعرف أن هؤلاء الناس الذي حققوا ذلك المنهج الإلهي في حياتِهم على هذا النحوِ العجيب، قد ظلوا مع هذا ناسًا من البشرِ لم يخرجوا عن طبيعتهم، ولا عن فطرتهم؛ ولم يكبتوا طاقةً واحدةً من طاقاتهم البانية، ولم يكلفوا أنفسَهم كذلك فوق طاقتهم.

لقد زاولوا كلَّ نشاطٍ إنسانيٍّ، وأصابوا من الطيباتِ كلَّ ما كان متاحاً لهم في بيئتهم وزمانهم.

لقد أخطأوا وأصابوا، وعثروا ونهضوا، وأصابهم الضعفُ البشري أحياناً كما يصيبُ سائرَ البشرِ وغالبوا هذا الضعف، وانتصروا عليه أحياناً أخرى)[٣].

(١) رواه النسائي، وحسنه الألباني في صحيح النسائي (٢٥٢٧).
(٢) رواه أبو داود، وحسنه الألباني في صحيح أبي داوود (١٦٧٨).
(٣) هذا الدين، سيد قطب، (٢٨).

وها هم الصالحون على الدربِ النبوي؛ فقد كان قيسُ بن سعدٍ بن عبادةَ رضي الله عنهما من الأجواد المعروفين، حتى إنه مرضَ مرة، فاستبطأ إخوانَه في العيادة، فسأل عنهم، فقيل له: إنهم كانوا يستحيونَ مما لك عليهم من الدينِ، فقال: أخزى الله مالًا يمنع الإخوان من الزيارة، ثم أمر مناديًا ينادي: من كان لقيس عليه مال فهو منه في حلٍّ؛ فما أمسى حتى كسرت عتبة بابه من كثرة من عاده.

وإبراهيم بن أدهم أيضًا: قال إبراهيم بن بشار: مضيت مع إبراهيم بن أدهم في مدينةٍ يقال لها طرابلس، ومعي رغيفانِ ما لنا شيءٌ غيرهما، وإذا سائلٌ يسأل، فقال لي: ادفع إليه ما معك، فلبثتُ، فقال: ما لك!! أعطه!! قال: فأعطيتُه وأنا متعجبٌ من فعلِه، فقال: يا أبا إسحاق.. إنك تلقى غدًا بين يدي الله ما لم تلقَه قط، واعلم أنكَ تلقى ما أسلفتَ ولا تلقى ما خلفتَ، فمهِّد لنفسك، فإنك لا تدري متى يفاجئك أمرُ ربك. قال: فأبكاني كلامُه وهوَّن علي الدنيا، فلما نظر إليَّ بكى قال: هكذا فكن.

وها هي زوجةُ النبي ﷺ وأمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها التي تربتْ في بيتِ الصديق ثم استكملتْ التربية العليا في بيتِ رسول الله ﷺ.

بعث محمد بن المنكدر إليها مالًا في غرارتين بلغ ثمانينَ أو مائةَ ألف درهم، فدعتْ بطبقٍ، وهي يومئذ صائمة، فجلست تقسمُ بين الناسِ، فأمست وما عندها من ذلك درهمٌ، فلما أمست قالت: يا جارية هلمي فطوري، فجاءتها بخبز وزيت، فقالت لها الجارية: أما استطعت مما قسمت اليوم أن تشتري لنا لح بدرهمٍ فنفطر عليه؟ قالت: لا تعنفيني، لو كنت ذكرتني لفعلت.

اِنْسَ نفسك هو شعار الصالحينَ، ورمضانُ هو شهرُ الجود، وشهرُ السخاء؛ فالنفوسُ في هذا الشهر تميلُ للكرم بفطرتها، وتوسِّع فيه على الغيرِ رجاءَ أن يوسِّع اللهُ عليها، وتشمل المحتاجينَ بالإحسان طمعًا في أن يشملنا الله بإحسانه الأهم، وتندفعُ بقوةٍ نحو فعلِ الخير بعد تصفيدِ الشياطين، فتنبعث إلى ما يزكيها ويطهرها من شحها.

**فحيَّ على** اختيار أفضلِ ما تحبُّ أو تحبين ونتصدقُ به ابتغاء وجه جل وعلا، وعلى قدرِ التضحيةِ تكون الدرجةُ والمنزلةُ عنده سبحانه وتعالى.

**وحيَّ على أن تعود أولادَكَ وأولادَكِ** الصدقةَ على فقيرٍ مستحقٍّ يعرفه فإن لم يجدْ ففي صندوقِ المسجدِ.

**وحيَّ على** مشروعاتِ إفطارِ الصائمينَ والمشاركةِ في إعداد الوجبات لهم وتوزيعها عليهم.

**وحيَّ على** شراءِ ملابسَ للأيتامِ والأطفالِ الفقراء وتوزيعها عليهم قبل يومِ العيد كي نرسم البسمةَ على وجوهم.

## النبي ﷺ وتعليم الأمة التوبة

صَعدَ رَسُولُ الله ﷺ الْمِنْبَرَ، فَقَالَ: آمِينَ آمِينَ آمِينَ، فَلَمَّا نَزَلَ قِيلَ لَهُ، فَقَالَ: أَتَانِي جِبْرِيلُ، فَقَالَ: رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَدْرَكَ رَمَضَانَ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ أَوْ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ، قُلْ: آمِينَ، فَقُلْتُ: آمِينَ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ فَلَمْ يُدْخِلاهُ الْجَنَّةَ أَوْ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ، قُلْ: آمِينَ، قُلْتُ: آمِينَ، وَرَجُلٌ ذُكِرْتَ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ، قُلْ: آمِينَ، فَقُلْتُ: آمِينَ[1].

من الذي يدعو هنا؟ ومن الذي يقولُ آمين؟

الداعي هو سيدُ الملائكةِ والمؤمِّنُ هو سيدُ الأنبياءِ!

دعاءٌ بالطردِ من رحمةِ الله ممن وصفه ربنا بأنه بالمؤمنين رؤوفٌ رحيمٌ.

ودافعه الحرصُ علينا والرأفةُ بحالنا حثًا على اغتنام الفرصةِ واستغلالِ اللحظة، وشحذًا للهمةِ لئلا تخسرَ وتفلتَ من يديكَ هذه الهبةُ والعطيَّةُ.

إنه الزمانُ المضاعفُ ولعل ساعةَ رمضان تعدلُ في بركتها شهرًا في ما سواه ولم لا؟

أليست ليلةُ القدرِ فيه وهي خيرٌ من ألفِ شهر؟

أليس يُعتقُ فيه من النارِ ما لا يُعتقُ في غيره؟

أليس رمضانُ كفارة إلى رمضانَ الذي يليه؟

مما يلقي في حسِّكَ ووجدانِك أن لا تتعامل مع هذا الشهر كغيره من الشهور، ويجعل إضاعةَ الوقتِ فيه وبذلِه في التفاهاتِ جريمةً مضاعفةً وخسارةً فادحةً، لن يدركَها صاحبُها إلا حينَ يجدُ الأرباحَ توزعُ أمامَ عينيه يومَ القيامةِ ليس له فيها نصيبٌ.

يقول ابن القيم: (كلُّ نَفَسٍ يخرجُ في غير ما يقرب إلى الله فهو حسرةٌ على العبد)[2].

فكيف إذا خرجَ هذا النَفَسُ في ما يَكره اللهُ بل في ما يغضبُه؟

كيف تكونُ حسرتك يومَ القيامة؟

---

(١) رواه ابن حبان، (٤٠٩)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، (١٦٧٨): صحيح لغيره.
(٢) مدارج السالكين، (١/١٤٤).

حسرةٌ نازلةٌ بك ولو دخلتَ الجنة، فكيف لو كانت الأخرى؟

وماذا لو وافقَ أحدُ هذه الأنفاسِ المعصيةَ التي رجَّحت كفةَ سيئاتِك فهويتَ بها إلى النارِ؟

كيفَ يكونُ فرارُك منها وبغضُك لها؟

وإذا فرَّطَ العبدُ في رمضانَ فتفريطه في غيره من الشهورِ من باب أولى، ولهذا أبعدَه اللهُ ودعا عليه رسولُ الله لأنه لا يستحقُ رحمةً ولا أجرًا.

وماذا لو لم يُغفرْ لأحدِنا في هذا الشهرِ، بل ثقلَ ميزانُ سيئاتِه، وتكاثرت ذنوبُه؟!

رأسُ مال كان عليه أن يستثمره وينمِّيه، فإذا به يضيِّعه ويبدِّده!!

والتائبُ من الذنب كمن لم يرتكبْه: **(التائبُ من الذنبِ كمن لا ذنبَ له)**[1]، والثوبُ المغسولُ كالذي لم يتسخْ أصلاً.

والتائبُ حبيبُ الرحمن: قال الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} [البقرة: ٢٢٢].

والتائبُ يفرحُ به الرحمنُ: قال ﷺ: **(لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بتَوْبَةِ عَبْدِه الْمُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ في أَرْضٍ دَوِيَّةٍ مَهْلَكَةٍ مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ ثُمَّ قَالَ أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ.**

**فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِه لِيَمُوتَ فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَاللَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ)**[2].

بل يرسمُها الرسولُ ﷺ في مشهدٍ يراه الصحابةُ رضوان الله عليهم ويشعرونَ به في موقف مهيب كما جاء في صحيح مسلم، (عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ قَالَ: قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِسَبْيٍ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ تَبْتَغِي إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ.

(١) رواه ابن ماجه، وحسنه الألباني في سنن ابن ماجه (٤٢٥٠).
(٢) رواه مسلم، (٧١٣١).

فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (**أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ**).

قُلْنَا: لاَ وَاللَّهِ وَهِي تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لاَ تَطْرَحَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (**لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا**)[١].

والتائبُ نادمٌ محمودٌ: عن عون بن عبد الله بن عتبة، قال: اهتمامُ العبدِ بذنبه داع إلى تركه، وندُمه عليه مفتاحُ توبتِه، ولا يزال العبدُ يهتمُّ بالذنبِ يصيبُه حتى يكونَ أنفعُ لهً من بعضِ حسناته.

وها ﷺ القدوةُ والأسوةُ كان يقول لصحابته الكرام ولنا من بعدهم، (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُم وَتُوبُوا إِلَيْهِ، فَإِنِّي أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِئَةَ مَرَّةٍ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ مِئَةِ مَرَّةٍ**)[٢].

واللهُ سبحانه وتعالى ينادي على عباده فيقول لهم، {**وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا**} [النساء: ٢٧].

بل يأمر سبحانه وتعالى عباده فيقول لهم {**وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**} [النور: ٣١]، أمَر الله الكافة بالتوبةِ؛ العاصين بالرجوعِ إلى الطاعةِ من المعصيةِ، والمطيعين من رؤيةِ الطاعةِ إلى رؤية التوفيق، وخاصَّ الخاصِّ من رؤيةِ التوفيق إلى مشاهدةِ الذي وفقهم لهذه الطاعةِ وهو الله جل جلاله، ولذا قيل أحوجُ الناسِ إلى التوبةِ مَنْ تَوَهَّمَ أنَّه لا يحتاج إلى التوبة.

وهو **التوابُ** سبحانه وتعالى، المرادُ بالتوابِ المبالغةُ في قبولِ التوبةِ وذلك من وجهين:

**الأول**: أن واحدًا من ملوكِ الدنيا متى جنى عليه إنسانٌ ثمَّ اعتذرَ إليه فإنه يقبلُ الاعتذار، ثم إذا عاد إلى الجنايةِ وإلى الاعتذارِ مرة أخرى فإنه لا يقبله لأن طبعَه يمنعُه من قبولِ العذرِ، أما اللهُ سبحانه وتعالى فإنه بخلافِ ذلك.

**الثاني**: أن الذين يتوبونَ إلى اللهِ تعالى كثيرٌ عددُهم، فإذا قبلَ توبةَ الجميعِ استحقَّ المبالغةَ في ذلك.

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٥٦٥٣)، ومسلم (٧١٥٤).
(٢) رواه أحمد، (١٨٢٩٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، (١٤٥٢).

لقد فتح اللهُ بمنِّه وكرمِه بابَ التوبةِ؛ حيثُ أمرَ بها، ووعدَ بقبولِها مهما عظُمت الذنوب.

قال تعالى: {وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ} [الزمر: ٥٤].

وقال: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} [الشورى: ٢٥].

وقال: {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً} [النساء: ١١٠].

وقال جلّت قدرتُه محرضاً على التوبة: {أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المائدة: ٧٤].

وقال في حقِّ أصحابِ الأخدودِ الذين حفروا الحُفَر لتعذيب المؤمنين وتحريقهم بالنار: {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ} [البروج: ١٠].

قال الحسن البصري رحمه الله: (انظروا إلى هذا الكرمِ والجودِ، قتلوا أولياءَه، وهو يدعوهم إلى التوبةِ والمغفرةِ). اهـ.

بل إنه عز وجل حذّرَ من القنوطِ من رحمتِه فقال: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الزمر: ٥٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (من أيّسَ عبادَ الله من التوبةِ بعد هذا؛ فقد جحدَ كتابَ الله عز وجل).

يقول الفضيلُ بنُ عياضٍ: ما من ليلةٍ اختلطَ ظلامُها وأرخى الليلُ سربالَ سترِها إلا نادى الجليلُ جل جلاله: مَنْ أعظمَ مني جودًا، والخلائقُ عاصون، وأنا لهم مراقبٌ، أكلؤهم في مضاجعِهم كأنهم لم يعصوني، وأتولى حفظَهم كأنهم لم يذنبوا، أجودُ بالفضلِ على العاصي؛ وأتفضلُ على المسيءِ.

مَنْ ذا الذي دعاني فلمْ أسمعْ إليه؟ أو مَنْ ذا الذي سألني فلم أعطِه؟ أم منْ ذا الذي أناخَ ببابي ونحيتُه، أنا الفضلُ ومني الفضلُ، أنا الجوادُ ومني الجودُ، أنا الكريمُ ومني الكرمُ.

ومِنْ كرمِي أن أغفر للعاصي بعد المعاصي، ومن كرمي أن أعطيَ التائبَ كأنه لم يعصني، فأين عني تهربُ الخلائقُ، وأين عن بابي يتنحى العاصون؟!(١).

**واحذر من لعنة المعصية في رمضان**: إن أي نعمة لا يغتنمُها العبدُ تتحولُ ولابد إلى نقمة، ورمضانُ من أعظمِ النعمِ، فمن عصى اللهَ فيه، فعقوبتُه قادمةٌ لا محالة، قد تتأخر لكنها نازلةٌ نازلةٌ، كالنار تحت الرماد، قال ابن القيم: (نكتةٌ دقيقةٌ يغلطُ فيها الناسُ في أمر الذنبِ، وهي أنهم لا يرون تأثيرَه في الحالِ، وقد يتأخرُ تأثيره فيُنسى، ويظنُّ العبدُ إنه لا يغير بعد ذلك، وسبحانَ اللهِ ماذا أهلكت هذه النكتةِ من الخلقِ، وكم أزالت من نعمةٍ، وكم جلبت من نقمةٍ، وما أكثر المغترينَ بها من العلماءِ والفضلاءِ فضلاً عن الجهالِ، ولم يعلمْ المغترُّ أن الذنبَ ينقضُّ ولو بعدَ حينٍ كما ينقضُّ السهمُ، وكما ينقضُّ الجرحُ المندملُ على الغشِ والدغلِ).

سُئل **عبدُ الله بن المباركِ** عن بدء حالِه، فقال: كنت في بستانٍ، فأكلت مع إخواني وكنت مولعًا حريصًا بضربِ العودِ والطنبورِ، فقمتُ في جوفِ الليلِ والعودُ بيدي وطائر فوقَ رأسي يصيحُ على شجرةٍ، فسمعت الطير يقول: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ} [الحديد: ١٦]؛ فقلت: بلى، وكسرتُ العودَ، فكان هذا أول زهدي.

وسمعَ عليٌّ **أعرابيًا** يقول: اللهم إني أستغفركُ وأتوبُ إليك، فقال: يا هذا إن سرعةَ اللسانِ بالتوبةِ توبةُ الكذابين، قال: وما التوبة؟ قال: يجمعها ستةُ أشياء: على الماضي من الذنوبِ الندامةُ، وعلى الفرائضِ الإعادةُ، وردُ المظالمِ واستحلالُ الخصوم، وأن يعزمَ على أن لا يعود، وأن تدئبَ نفسُك في طاعةِ الله كما أدأبتها في المعصيةِ، وأن تذيقَها مرارةَ الطاعةِ كما أذقتها حلاوةَ المعاصي.

(١) حلية الأولياء، (٨/٩٣).

أخي القارئ نادي على ربك سبحانه وتعالى بلسانِك واصرخ بصوتِ قلبك وناجِ ربك وقل له:

بك أستجيرُ فمن يجيرُ سواك ... فأجر ضعيفاً يحتمي بحماكَ
إني ضعيفٌ أستعين على قوى ... ذنبي ومعصيتي ببعض قواكَ
أذنبتُ ياربي وآذتني ذنوبٌ ... ما لها من غافر إلاكَ
دنياي غرتني وعفوك غرني ... ما حيلتي في هذهِ أو ذاك
يا مدرك الأبصارِ والأبصارُ لا ... تدري له ولكنهه إدراكَ
إن لم تكن عيني تراك فإنني ... في كل شيء أستبين علاكَ
أنا كنت ياربي أسيرُ غشاوةٍ ... رانت على قلبي فضلَّ سناكَ
واليومُ ياربي مسحتُ غشاوتي ... وبدأت بالقلب البصير أراكَ
يا غافرَ الذنب العظيم وقابلاً ... للتوب قلبٌ تائبٌ ناجاك
يارب جئتك ثاوياً أبكي على ... ما قدمتْه يداي لا أتباكَ
أخشى من العرض الرهيب عليك يا ... ربي وأخشى منكَ إذ ألقاكَ
يارب عدتُ إلى رحابك تائباً ... مستسلماً مستمسكاً بعراكَ
مالي وما للأغنياء وأنت يا ... ربي الغني ولا يحدُّ غناكَ
إني أويت لكل مأوىً في الحياةِ ... فما رأيتُ أعزَّ من مأواكَ
وتلمستْ نفسي السبيلَ إلى النجاة ... فلم تجدْ منجى سوى منجاكَ
وبحثت عن سر السعادة جاهداً ... فوجدت هذا السرَ في تقواكَ
فلْيرضَ عني الناس أو فليسخطوا ... أنا لم أعدْ أسعى لغير رضاكَ
أدعوك ياربي لتغفرَ جوبتي ... وتعينني وتمدني بهداكَ

## النبي ﷺ وتوجيهه للأمة بحفظِ الجوارح في رمضان

كان ﷺ يعتني بحفظِ الجوارحِ، ويعلمُ المسلمينَ أن الصيامَ لا يقتصرُ على تركِ الطعام والشراب فقط، وإنما تركُ كلِّ ما يغضبُ اللهَ تبارك وتعالى، فهو القائل ﷺ: (**مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ وَالْجَهْلَ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ**)[١].

وإذا جهلَ عليه أحدٌ فيذكر نفسَه أنه صائم، قال ﷺ: (**الصِّيَامُ جُنَّةٌ، فَلاَ يَرْفُثْ وَلاَ يَجْهَلْ، وَإِنِ امْرُؤٌ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ، إِنِّي صَائِمٌ**)[٢].

فيقولها (بلسانِه جهرًا يسمعُه الشاتمَ والمقاتلَ فينزجرُ غالبًا، أو لا يقولُه بلسانِه بل يُحدِّثُ بها نفسُه؛ ليمنعَها من مشاتمتِه ومقاتلتِه ومقابلتِه ويحرصُ صومَه عن المكدراتِ، ولو جمعَ بين الأمرينِ كان حسنًا.

واعلم أن نهيَ الصائمِ عن الرفثِ والجهلِ والمخاصمةِ والمشاتمةِ ليس مختصًّا به، بل كلَّ أحدٍ مثلِه في أصلِ النهي عن ذلك لكن الصائمَ آكد. والله أعلم)[٣].

وفي ضوءِ الحقائقِ السابقةِ تتجلى معاني الصوم الساميةِ، التي تعلو عن مجردِ الجوع والعطش، فليس هذا ما ترتبَ عليه الجزاءُ العظيمُ الذي ينالُه الصائمُ، إن هذه الجوائزَ العظيمةَ لمن خالجتْ معاني الصيام كيانَه، وعملَ بمقتضاها، فلو كانت الجنانُ والعتقُ من النيرانِ والمغفرةُ والرحمةُ فقط لمَن جوعَ نفسَه وعطشَها دونَ القيام بحقوقِ الصيام ـ لما تميزَ التقيُّ عن الشقيِّ، ولا المطيعُ عن العاصي، فالكلُّ يجوعُ والكلُّ يظمأُ، ففيم تتفاوت الأجور؟!

فاحذر أن تكونَ ممن قال فيهم رسولُ الله ﷺ: (**رُبَّ صَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ صِيَامِهِ الْجُوعُ وَالْعَطَشُ، ورُبَّ قَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ قِيَامِهِ السَّهَرُ**)[٤].

---

(١) رواه البخاري، (١٨٠٤).
(٢) متفق عليه، رواه البخاري (١٧٩٥)، ومسلم (٢٧٥٩).
(٣) شرح النووي على مسلم (٢٨/٨).
(٤) رواه أحمد (٩٠٩١)، وقال شعيب الأرنؤوط في تحقيق المسند: إسناده جيد.

إذا لمْ يكـــنْ في السمـــعِ مني تصـــامم وفي العينِ غضٌّ وفي منطقِـي صمـــتُ
فحظي إذًا مـن صومِي الجـوعُ والظمأُ فإنْ قلتُ إني صمتُ يومي فما صمـتُ

إن رمضانَ **فرصةٌ عظيمةٌ للتغيير**، وانتقالِ الإنسانِ من حالٍ إلى حالٍ أفضل، والتخلصِ من الذنوبِ التي تسيطرُ عليه، والعاداتِ الخبيثةِ التي ألفَها، فرمضانُ فرصةٌ للتخلصِ منْ كلِّ ما منْ شأنِه أن يحاصرَ المرءَ، ويعوقُه عن المضيِّ في سبيلِ الرشادِ.

فإلى كلِّ منْ قد حاصرته قيودُ العاداتِ السيئةِ، واكتنفته الهمومُ؛ فيصرخُ في نفسه أن: «كفى»، ويصدقُ قلبُه في الرغبةِ في الفرار، ولكنْ يثني عزمَه هذا القيد، فإليه أسوقُ البشرى: قد جاءَتك أيامُ الخلاصِ، لتتحررَ من أسرِك، قد جاءَك رمضانُ يفكُّ عنكَ قيدَ الذنوبِ والعاداتِ السيئةِ، فقط دَع روحكَ وجوارحَك تنسابُ مع قوى رمضان.

فلرمضانُ عواملُ كثيرةٌ بناءةٌ، تتضافرَ فيما بينها؛ لتعينَ الإنسانَ على صياغةِ شخصيتِه من جديدٍ، ويرتقي بنفسِه عن الآفاتِ، فهو فرصةٌ حقيقيةٌ للتغيير.

ففي رمضانَ يصيرُ الغالبُ على المجتمع حرصَه على الطاعةِ والخير، فالمساجدُ تمتلئُ، وأعمالُ البرِّ والصدقاتِ يتسابقُ فيها المتسابقون، والأخلاقُ السمحةُ تفرضُ نفسَها، وما ذلك إلا بما أودَعه الله في هذا الشهرِ من بركاتٍ، وتيسيرُه للناسِ سبلَ الخيرِ عن غيرِه من الشهورِ.

فالطاعاتِ التي ينفردُ بها الكثيرونَ في غيرِ رمضان، تصبحُ في رمضانَ أمرًا عامًّا، وهو ما يحفزُ المرءَ على النشاطِ في الطاعةِ؛ وهو ما يعلي لديه من بناءِ الإيمان، والذي يقومُ بدورِه بهدمِ الآفات.

ونظرًا لأن الإنسانَ يتأثرُ بمن حولِه، ورؤيتُه لمشاهد الطاعة لدى العباد تحفزُّه، أوصى الله تعالى بالتعاونِ على البرِّ والتقوى، فقال: {**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**} [المائدة:٢]، وتضافرتْ الأدلةُ لتؤكد على أهميةِ مصاحبةِ الأخيارِ، ففي الحديث: (**الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**)[1].

(١) رواه أحمد، (٨٦٤١)، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح، (٥٠١٩).

ورمضانُ **يكسرُ الشهواتِ** والتي هي مادةُ النشوز والعصيانِ، فيحفظُ الإنسانُ جوارحَه، يقول رسول الله ﷺ: (**قال الله تعالى: الصِّيَامُ جُنَّةٌ، يَسْتَجِنُّ بِهَا الْعَبْدُ مِنْ النَّارِ، هُوَ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ**)[١]، وجُنَّة: أي وقايةٌ، (وقايةٌ في الدنيا من المعاصي بكسرِ الشهوةِ، وحفظِ الجوارحِ، وفي الآخرةِ من النارِ)[٢].

وفي رمضانَ **تصفدُ الشياطينُ**، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (**إذا جاءَ رمضانُ؛ فُتحتْ أبوابُ الجنةِ، وغُلقت أبوابُ النار، وصُفدت الشياطينُ**)[٣]، وهو تصفيدٌ حقيقي، كمعونةٍ من الله للعبادِ بكفِّ شرِّ الشياطينِ عنهم.

(فإن قيلَ: كيفَ نرى الشرورَ والمعاصي واقعةً في رمضان كثيرًا، فلو صُفدت الشياطينُ لَمَ يقع ذلك؟! فالجواب: أنها إنما تقلُّ عن الصائمينَ الصومَ الذي حوفظَ على شروطِه وروعيت آدابُه، أو المصفدُ بعضُ الشياطينِ وهم المردةُ، لا كلُّهم كما تقدمَ في بعض الرواياتِ، أو المقصودُ تقليلُ الشرورِ فيه، وهذا أمرٌ محسوسٌ؛ فإنَّ وقوعَ ذلك فيه أقلُّ من غيره، إذ يلزم من تصفيدِ جميعِهم أن لا يقعَ فيه شرٌّ ولا معصيةٌ؛ لأن لذلك أسبابًا غير الشياطين: كالنفوسِ الخبيثةِ، والعاداتِ القبيحةِ، والشياطينِ الإنسية)[٤].

وعلى كل حال، فحدةُ تسلُّطِهم على الإنسِ تنكسرُ أو تضعفُ؛ مما يفتحُ الطريقَ أمامَ العبادِ لسلوكِ دربِ الاستقامةِ، ويمنحُ العبدَ فرصةَ التخلصِ من حصارِ الآفات.

أخي ..رمضان ..فرصةُ العمر السانحة لإحداثِ التغيير .. والكفةُ الراجحةُ في ميزانِ الأعمالِ ..قد فُتحتْ فيه أبوابُ الخيراتِ على مصراعيها ولم يبق إلا أن تلج!!

فغيرْ من نفسِك في رمضانَ، والتغييرُ يبدأُ من الداخلِ قال تعالى: {**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**} [الرعد: ١١]، والآيةُ فيها ربطٌ فريدٌ بين الفردي والجماعي، فما يغيره المرءُ في نفسِه ينعكسُ على المجتمعِ ولابد.

---

(١) رواه أحمد، (١٥٠٤٦)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، (٧٧٥٧).
(٢) فيض القدير، المناوي، (٣١٩/٤).
(٣) رواه مسلم، (٢٥٤٧).
(٤) فتح الباري، ابن حجر، (١٣٦/٦).

**فإذا صمتَ:**

فليصم قلبُك عن سوءِ النوايا والأخلاطِ، وعن الحقدِ والغلِّ والحسدِ لغيرك، بل احبسْه عن الخطراتِ الفاسدةِ وادفعها، واهتم بما يصلحُه ويرقِّقُه ويبعثُ في أوصالِه الخشية.

وليصمْ لسانُك عن الكذبِ ولو مازحًا، وعن الغيبةِ والنميمةِ، وعن الفحشِ من القولِ والبذاءةِ، وأشغلْه بذكرِ الله وتلاوةِ القرآن والدعاءِ.

ولتصم عيناكَ عن النظرِ إلى ما حرمَ الله تعالى، وغُضَّ طرفَك عن النظرِ إلى النساءِ الأجنبياتِ، سواء في الطرقاتِ أو عبر الشاشاتِ، وأشغلهما بالنظرِ إلى كتاب الله تعالى.

ولتصمْ أذناك عن الاستماعِ إلى ما حرمَ الله تعالى من الغناءِ والموسيقى، أو فحشِ الكلام، وأشغلْ سمعكَ بالاستماعِ إلى القرآنِ الكريم أو دروسِ العلمِ النافعة.

ولتصمْ يداكَ عن البطشِ بغيرِ حقٍّ، وعن اغتصابِ الحقوقِ، ومُدَّ يدَ العونِ لإخوانك المسلمين، واسْعَ في حاجاتِهم.

ولتصمْ رجلاكَ عن السعيِّ في الحرام، إلى أماكنَ اللغوِ والمقاهي وكلِّ مكانٍ ترتكبُ فيه المحظورات، وأكثِرْ من الخطا إلى بيوتِ الله تعالى.

## وسطيته ﷺ

كانَ ﷺ حريصًا أشدَّ الحرص على رفع الحرج والمشقة عنهم، وألا يكلفوا أنفسَهم فوق طاقتهم، ويقول لهم: (**خُذُوا مِنَ الْعَمَلِ مَا تُطِيقُونَ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا**)(١).

وسأل عمرُ بنُ أبي سلمةَ رضي الله عنهما النبيَّ ﷺ، فقال: أَيُقَبِّلُ الصَّائِمُ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (سَلْ هَذِهِ) لأُمِّ سَلَمَةَ، فَأَخْبَرَتْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَصْنَعُ ذَلِكَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لأَتْقَاكُمْ لِلَّهِ وَأَخْشَاكُمْ لَهُ)(٢).

وكان ﷺ يؤدبُ من خشي عليه التنطعَ، وهذا أسلوبٌ للتربيةِ لا غنى للمربي الحكيم عنه أحيانًا، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: نَهى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الْوِصَالِ فِي الصَّوْمِ، فَقَالَ لَهُ رَجلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ: إِنَّكَ تُوَاصِلُ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: **وَأَيُّكُمْ مِثْلِي إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِين**، فَلَمَّا أَبَوْا أَنْ يَنْتَهُوا عَنِ الْوِصَالِ؛ وَاصَلَ بِهِمْ يَوْمًا، ثُمَّ يَوْمًا، ثُمَّ رَأَوُا الْهِلاَلَ فَقَالَ: **لَوْ تَأَخَّرَ لَزِدْتُكُمْ**، كَالتَّنْكِيلِ لَهُمْ حِينَ أَبَوْا أَنْ يَنْتَهُوا(٣).

وفي حديث أنس رضي الله عنه قال: (... فَأَخَذَ يُوَاصِلُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَذَاكَ فِى آخِرِ الشَّهْرِ، فَأَخَذَ رِجَالٌ مِنْ أَصْحَابِهِ يُوَاصِلُونَ، فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ: (**مَا بَالُ رِجَالٍ يُوَاصِلُونَ! إِنَّكُمْ لَسْتُمْ مِثْلِي، أَمَا وَاللَّهِ لَوْ تَمَادَّ لِى الشَّهْرُ لَوَاصَلْتُ وِصَالاً يَدَعُ الْمُتَعَمِّقُونَ تَعَمُّقَهُمْ**)(٤).

وكانَ ﷺ يصبُّ الماءَ على رأسه عند اشتدادِ الحرِّ وهو صائمٌ، فعن أبي بكر بن عبد الرحمن عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رُئِيَ بِالْعَرْجِ وَهُوَ يَصُبُّ عَلَى رَأْسِهِ الْمَاءَ وَهُوَ صَائِمٌ مِنْ الْحَرِّ أَوْ الْعَطَشِ(٥).

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (١١٠٠)، ومسلم (١٨٦٣).
(٢) رواه مسلم، (١١٠٨).
(٣) متفق عليه، رواه البخاري (١٩٦٥)، ومسلم (١١٠٣).
(٤) متفق عليه، رواه البخاري (٦٨١٤)، مسلم (٢٦٢٦).
(٥) رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح أبي داوود (٢٣٦٥).

وهذا من الرفقِ بالجسدِ، والتيسيرِ على النفسِ، وبثِّ النشاطِ فيها لتتمكنَ من مزيدِ طاعةٍ، إذ مقصودُ الصيامِ الأعظمِ امتثالُ الأمرِ وتقديمُ الخضوعِ له تعالى على محبوباتِ النفسِ وملذاتها، لا تعذيبَ الجسدِ وإيذائِه والقسوةِ عليه.

ويلحقُ بصبِّ الماءِ على الرأسِ عمومَ الاغتسالِ، وبلَّ الثوبِ، والانتقاعَ في الماء، كما أورد ذلك البخاري في صحيحه، في باب: اغتسالُ الصائم عن بعض الصحابة والتابعين ـ الذين كانوا آية في الحرصِ على التأسي بالنبي ﷺ ـ، فقال: (وبلَّ ابن عمر رضي الله عنهما ثوبًا فألقاه عليهِ وهو صائمٌ ودخلَ الشعبي الحمامَ وهو صائمٌ، .. وقال الحسنُ: لا بأسَ بالمضمضةِ والتبردِ للصائم، وقال ابن مسعود: إذا كان صومُ أحدِكم فليصبحْ دهينًا مترجلًا، وقال أنس: إن لي أَبْزَن أتقحمُ فيه [الأبزن: حجرٌ منقورٌ يشبه الحوضَ، وهي كلمةٌ فارسيةٌ، وأَتَقَحَّمُ فيه، أي: أدخل] وأنا صائمٌ)[1].

ويلتحقُ بذلك في أيامِنا البقاءُ حولَ أجهزةِ التبريد.

وبصورةٍ عامةٍ فكلُّ ما يخففُ العبادةَ على الشخصِ، ويمكِّنُه منْ أدائها وهو نشيطٌ مطمئنٌ مقبلٌ على ربِّه عز وجل أمرٌ مطلوبٌ، وكلُّ مشقةٍ يمكن الانفكاكُ عنها مع أداءِ العبادةِ على وجهِها فليست من مقصوداتِ الشارعِ، بل التخلي عنها من مطلوباتِه، أما المشقةُ التي لا تنفك عنها العبادةُ فهي التي تزيدُ في الأجرِ، كالوضوءِ في الشتاءِ، والسفرِ للحجِّ، والمشي إلى صلاةِ الجماعةِ في شدةِ الحرِّ أو البردِ.

وفي ذلكَ يقول ابنُ تيمية: (ومما ينبغي أن يعرفَ أن الله ليسَ رضاه أو محبتُه في مجردِ عذابِ النفسِ وحملِها على المشاقِّ، حتى يكونَ العملُ كلما كانَ أشقُّ كانَ أفضل، كما يحسبُ كثيرٌ من الجهالِ أن الأجرَ على قدرِ المشقةِ في كلِّ شيءٍ، لا! ولكنَّ الأجرُ على قدرِ منفعةِ العملِ ومصلحتِه وفائدتِه، وعلى قدرِ طاعةِ أمرِ الله ورسولِه، فأيُّ العملين كانَ أحسنُ، وصاحبُه أطوعُ وأتبعُ كان أفضلُ؛ فإنَّ الأعمالَ لا تتفاضلُ بالكثرةِ، وإنما تتفاضلُ بما يحصلُ في القلوبِ حالَ العملِ)[2]، والله أعلم.

(١) البخاري (٢/٦٨٠-٦٨١).
(٢) مجموع الفتاوى، (٢٥/٢٨١-٢٨٢).

وقد قال تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة: ١٨٥].

(وهذه هي القاعدةُ الكبرى في تكاليفِ هذه العقيدةِ كلها . فهي ميسرةٌ لا عسرَ فيها . وهي توحي للقلبِ الذي يتذوقُها بالسهولةِ واليسرِ في أخذِ الحياةِ كلِّها؛ وتطبعُ نفسَ المسلمِ بطابعٍ خاصٍّ من السماحةِ التي لا تكلفَ فيها ولا تعقيد.

سماحةٌ تؤدَّى معها كلُّ التكاليفِ وكلُّ الفرائضِ وكلُّ نشاطِ الحياةِ الجادةِ وكأنما هي مسيلُ الماء الجاري، ونمو الشجرةِ الصاعدةِ في طمأنينةٍ وثقةٍ ورضاءٍ، معَ الشعورِ الدائمِ برحمةِ اللهِ وإرادتِه اليسرَ لا العسرَ بعبادِه المؤمنين)[١].

والبعضُ لا يفقهُ هذه القاعدة فيلجأُ للتشددِ، وقد عالجَ النبي ﷺ هذا الأمر عند الثلاثةِ الذين جاؤوا يسألونَ عن عبادتِه، فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ؛ قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا؛ وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ؛ وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا.

فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: (**أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؛ أَمَا وَاللهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ للهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ؛ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**)[٢].

فهؤلاءِ الثلاثةُ أرادوا الاجتهادَ في العبادةِ غير أنهم أخطأوا الطريقَ فاتجهوا لإلزامِ أنفسِهم بما لم يلزمْهم به اللهُ ورسولُه.

فالشريعةُ واسعةٌ، وأفضلُ الأمرِ أيسرُه، والتشديدُ على النفسِ أو الآخرينَ في هذا البابِ خلافُ الهديِ الثابتِ عن النبي ﷺ.

---

(١) في ظلال القرآن، (١ / ١٤٥- ١٤٦).
(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٤٧٧٦)، ومسلم (٣٤٦٩).

إن شريعةَ الإسلامِ شريعةُ اليسرِ والسهولةِ (**وَلَنْ يُشَادَّ الدِّيْنُ إلاَّ غَلَبَهُ**)[١]، ولطالما تواردت النصوصُ علَى هذا الأصلِ: أصلُ التيسيرِ ورفعُ الحرجِ، واعتمادُ الرفقِ وتركُ التكلفِ.

وهذه خاصيةُ الدينِ الرباني المراعي لواقعِ الناسِ وأحوالهم، الملائمِ للفطرة، والذي أرادَ اللهُ تعالى له البقاءَ حتى تقومَ الساعة، فالحمد لله على نعمة الإسلام.

وتنكيلُه ﷺ بمن أرادوا الوصالَ، وتبردُه في حرِّ رمضانَ وغيرها ينسجمُ مع ذلك الأصل؛ إذ يخشى ﷺ عليهم العنتَ والمشقةَ، لكن لما كانتْ بعضُ النفوسِ لا يكفيها الكلامُ احتاجَ ﷺ إلى العقوبةِ، ولم تكنْ تلك العقوبةُ على أمرٍ محرم، فلو كانَ محرمًا ما فعلوه ولما أقرّهم عليه، بل زادَهم من جنس ما رغبوا فيه، حتى يدركوا الفرقَ بينهم وبينَه ﷺ، وهو النبيُّ الموصولُ من ربه تعالى بألطافٍ ومعانٍ قلَّ من يدركها.

ولا يقصدُ بالوسطيةِ التهاونُ في أوامرِ اللهِ أو الوقوعِ في المحرماتِ، فالنبيُّ ﷺ كانَ يتخيرُ الأيسرَ لأمتِه ما لم يكن حرامًا، ومع ذلك كان يغضَبُ إذا انتُهكت محارمُ الله، فعن عَائشَة، أَنَّهَا قَالَتْ: مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، بَيْنَ أَمْرَيْنِ إلاَّ أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا، مَا لَمْ يَكُنْ إثْمًا فَإِنْ كَانَ إثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِنَفْسِهِ، إلاَّ أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللهِ فَيَنْتَقِمَ للهِ بِهَا)[٢].

(١) رواه البخاري (٣٩).
(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٣٣٦٧)، ومسلم (٢٣٢٧).

## النبي ﷺ والجهاد في رمضان «غزوة بدر»

حدثَ في مثلِ هذا اليوم من السنة الثانية من الهجرةِ النبوية، أولُ معركةٍ كبرى بين الحق والباطل في تاريخ الأمة المحمدية سماها اللهُ سبحانه وتعالى يومَ الفرقان: {وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [الأنفال: ٤١].

يوم أن خرج النبيُّ ﷺ ومعه بضعةَ عشرَ وثلاثمائة، وكانت قواتُ المسلمين في بدرٍ لا تمثلُ القدرةَ العسكريةَ القصوى للدولةِ الإسلاميةِ، ذلك أنهم إنما خرجوا لاعتراض قافلةٍ واحتوائِها، ولم يكونوا يعلمونَ أنهم سوفَ يواجهونَ قواتِ قريشٍ وأحلافَها مجتمعةً للحرب، والتي بلغ تعدادُها ألفًا[١]، معهم مائتا فرسٍ يقودونها إلى جانب جمالهم، ومعهم القيان يضربون بالدفوفِ، ويغنينَ بهجاءِ النبي ﷺ وأصحابِه[٢]، في حين لم يكنْ مع القواتِ الإسلامية من الخيل إلا فرَسَانِ، وكانَ معهم سبعونَ بعيرًا يتعاقبونَ ركوبها[٣].

ولما بلغَ النبيَّ ﷺ نجاةُ القافلةِ وإصرارِ زعماءِ مكةَ على قتالِ النبيِّ ﷺ استشارَ رسولُ الله ﷺ أصحابَه في الأمرِ، وأبدى بعضُ الصحابةِ عدمَ ارتياحِهم لمسألةِ المواجهةِ الحربيةِ مع قريشٍ، حيثُ إنهم لم يتوقعوا المواجهةَ ولم يستعدوا لها، وحاولوا إقناعَ الرسولِ ﷺ بوجهةِ نظرهم.

وقد صورَ القرآنُ الكريمُ موقفَهم وأحوالَ الفئةِ المؤمنةِ عمومًا في قوله تعالى: {كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ (6) وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (7) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ} [الأنفال: ٥-٨].

---

(١) شرح النووي على مسلم ، (١٢/٨٤).
(٢) البداية والنهاية، ابن كثير، (٣/٢٦٠).
(٣) مجمع الزوائد (٦/٦٩)، جوامع السير، (١٠٨).

وقدْ أجمعَ قادةُ المهاجرينَ على تأييدِ فكرةِ التقدم لملاقاةِ العدو[١]، وكان للمقدادِ بن الأسودِ موقفٌ متميزٌ، فقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: شهدتُ من المقدادِ بن الأسود مشهدًا لأن أكونَ صاحبُه أحبَّ إليَّ مما عُدلَ به[٢]: فقالَ: يا رسولَ الله، لا نقولُ لكَ كما قالتْ بنو إسرائيلَ لموسى: {فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} ولكنِ امضِ ونحن معكَ، فكأنه سرَّى عن رسولِ الله ﷺ.

وبعدَ ذلك عادَ رسولُ الله ﷺ فقال: (**أشيروا عليَّ أيها الناس**)، وكان إنما يقصدُ الأنصارَ؛ لأنَّهم غالبيةَ جندِه، ولأنَّ بيعةَ العقبةِ الثانيةِ لم تكنْ في ظاهرِها ملزمةً لهمْ بحمايةِ الرسولِ ﷺ خارجَ المدينةِ، وقدْ أدركَ الصحابيُّ سعدُ بن معاذ، وهو حاملُ لواءِ الأنصار، مقصدَ النبي ﷺ منْ ذلكَ فنهضَ قائلًا: والله لكأنَّكَ تريدُنا يا رسولَ الله؟ قال ﷺ: (**أجل**).

قال: (لقدْ آمنَّا بكَ وصدقناكَ، وشهدنَا أن ما جئتَ به هو الحقُّ، وأعطيناكَ على ذلكَ عهودَنَا ومواثيقَنا على السمعِ والطاعةِ، فامضِ يا رسولَ الله لما أردتْ، فوالذي بعثكَ بالحقِّ لو استعرضتَ بنا هذا البحرَ فخضتَه لخضناه معكَ، ما تخلَّفَ منَّا رجلٌ واحدٌ، وما نكرهُ أن تلقَى بنا عدوَّنا غدًا، إنا لصُبُرٌ في الحربِ، صُدُقٌ عند اللِّقاءِ، ولعلَّ الله يريك منَّا ما تقرُّ به عينُك، فسِرْ بنا على بركةِ الله)[٣].

سُرَّ النبي ﷺ من مقالة سعد بن معاذ، ونشطه ذلك فقال ﷺ: (**سيروا على بركةِ الله وأبشروا، فإنَّ الله قد وعدني إحدَى الطَّائفتين، والله لكأنِّي الآن أنظرُ إلى مصارعِ القومِ**)[٤].

بل تتجلى روحُ القيادةِ الفذةِ في اهتمامه ﷺ بمشورةِ المسلمينَ وتتعدى ذلك في موقفه مع الحُبابِ بن المنذر عندما يقترح عليه تغييرَ مكانِ المعركةِ لأسبابٍ يبديها، وهيَ مقنعةٌ ومعقولةُ المعنى فيستجيب صلواتُ ربي وسلامه عليه.

وبعد أن جمعَ ﷺ معلوماتٍ دقيقةً عن قواتِ قريشٍ سارَ مسرعًا ومعه أصحابَه إلى بدر

---

(١) انظر: موسوعة نضرة النعيم (٢٨٨/١).
(٢) المبالغة في عظمة ذلك المشهد، وأنه كان لو خُير بين أن يكون صاحبه وبين أن يحصل له ما يقابل ذلك لكان حصوله أحب إليه.
(٣) رواه مسلم، (١٧٧٩).
(٤) البداية والنهاية، ابن كثير، (٢٦٢/٣).

ليسبقوا المشركين إلى ماءِ بدر، وليَحُولوا بينهم وبين الاستيلاءِ عليه، فنزلَ عندَ أدنى ماءٍ من مياه بدرٍ، وهنا قام الحبابُ بن المنذر، وقال: يا رسول الله، أرأيتَ هذا المنزل، أمنزلًا أنزَلَكه اللهُ ليس لنا أن نتقدَّمَه ولا نتأخَّرَه؟ أم هو الرأيُ والحربُ والمكيدةُ؟

قال: (**بلْ هوَ الرأيُ والحربُ والمكيدةُ**) قال: يا رسولَ اللهِ فإنَّ هذا ليس بمنزلٍ، فانهضْ يا رسول اللهِ بالناسِ حتى تأتيَ أدنى ماءٍ من القوم - أي جيش المشركين - فننزلُه ونُغور [نخرب] ما وراءَه من الآبارِ ثمَّ نبني عليه حوضًا فنملؤه ماءً ثم نقاتلُ القومَ، فنشربُ ولا يشربون.

فأخذ النبي ﷺ برأيه ونهضَ بالجيشِ حتى أقربَ ماءٍ من العدو فنزل عليه، ثم صنعوا الحياضَ وغوروا ما عداها منَ الآبارِ[1].

إن هذه الحريةَ التي ربَّى عليها رسول الله ﷺ أصحابَه مكنتْ مجتمعَهم من الاستفادةِ منْ عقولِ جميع أهلِ الرأي السديدِ والمنطقِ الرشيدِ، فالقائدُ فيهم ينجحُ نجاحًا باهرًا، وإن كان حديثُ السنِّ؛ لأنه لم يكنْ يفكرُ برأيه المجردِ، أو آراءِ عصبةٍ مهيمنةٍ عليه قد تنظرُ لمصالحها الخاصةِ قبل أن تنظرَ لمصلحةِ المسلمينَ العامة، وإنما يفكرُ بآراءِ جميع أفرادِ جندِه، وقد يحصلُ لهُ الرأيُ السديدُ منْ أقلِّهم سمعةً وأبعدِهم منزلةً من ذلك القائد؛ لأنه ليسَ هناك ما يحولُ بين أيِّ فردٍ منهمْ والوصولِ برأيه إلى قائدِ جيشِه[2]، والقائدُ الحقُّ هو من يصنعُ قياداتٍ لا منْ يصنعُ أتباعًا.

وبعدَ نزولِ النبيِّ ﷺ والمسلمينَ معه على أدنى ماءِ بدرٍ من المشركينَ، بدأَ يعدُّ الخطةَ العسكريةَ لمواجهةِ جيشِ المشركينَ.

وابتكرَ الرسول ﷺ في قتاله مع المشركينَ يومَ بدرٍ أسلوبًا جديدًا في مقاتلةِ أعداءِ الله تعالى، لم يكنْ معروفًا من قبلُ حتى قاتلَ ﷺ بنظامِ الصفوفِ، وهذا الأسلوب أشار إليه القرآنُ الكريم في قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ} [الصف: ٤].

(١) مرويات غزوة بدر، (١٦٥).
(٢) التاريخ الإسلامي، الحميدي، (٤/١١٠).

ومن جهةِ النظرةِ العسكريةِ، فإنَّ هذه الأساليبَ تدعو إلى الإعجابِ بشخصيةِ النبي ﷺ وبراعتِه العسكريةِ؛ لأن التعليماتِ العسكريةَ التي كان يُصْدِرُها خلالَ تطبيقه لها، تطابقُ تمامًا الأصولَ الحديثةَ في استخدامِ الأسلحة[١].

وقد تجلى في أمورٍ، منها:

١- **الأمرُ الأولُ**: أمرُه ﷺ الصحابةَ برمي الأعداءِ إذا اقتربوا منهمْ؛ لأنَّ الرميَ يكونُ أقربُ إلى الإصابةِ في هذه الحالة (**إنْ دنا القومَ منكمْ فانضحوهمْ بالنبلِ**)[٢].

٢- **الأمر الثاني**: نهيه ﷺ عنْ سلِّ السيوفِ إلى أن تتداخلَ الصفوفُ: (**ولا تسُلُّوا السُّيوفَ حتَّى يغشَوكم**)[٣].

٣- **الأمر الثالث**: أمرُه ﷺ الصحابةَ بالاقتصادِ في الرمي: (**واسْتَبْقُوا نَبْلَكم**)[٤].

وعندما تقارنُ هذه التعليماتِ الحربيةَ بالمبادئِ الحديثةِ في الدفاعِ تجدْ أن رسول الله ﷺ كانَ سبَّاقًا إليها من غيرِ عكوفٍ على الدرس ولا التحاقٍ بالكلياتِ الحربيةِ، فالنبيُّ ﷺ يرمي من وراءِ تعليماتِه التي استعرضنَاها آنفًا إلى تحقيقِ ما يُعرفُ حديثًا بكبتِ النيرانِ إلى اللحظةِ التي يصبحُ فيها العدوُّ في المدى المؤثرِ لهذه الأسلحةِ.

ولأنَّ النبيَّ ﷺ يعلمُ أن الأخذَ بالأسبابِ فريضةٌ والاعتقادُ فيها شركٌ؛ فما إن نظمَ ﷺ صفوفَ جيشِه، وأصدرَ أوامرَه لهمْ وحرَّضَهم على القتالِ، رجعَ إلى العريشِ الذي بُنيَ له ومعهُ صاحبَه أبا بكر رضي الله عنه وسعدَ بن معاذ على باب العريشِ لحراستِه وهو شاهرٌ سيفَه.

واتجه رسولُ الله ﷺ إلى ربِّه يدعُوه ويناشدُه النصرَ الذي وعدَه ويقولُ في دعائه: (**اللهمَّ أنجزْ لي ما وعدتني، اللهمَّ إن تهلِك هذه العصابةُ من أهلِ الإسلام فلا تُعبدُ في الأرض أبدًا**)، وما زالَ ﷺ يدعو ويستغيثُ حتى سقطَ رداؤه، فأخذه أبو بكر وردَّه على منكبيْه وهو يقولُ: يا رسولَ اللهِ كفاكَ مناشدتكَ ربَّك فإنه منجزٌ لك ما وعدَك[٥].

(١) المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية، محمد محفوظ، (١٢١).
(٢) صحيح السيرة النبوية، (٢٣٩).
(٣) صحيح السيرة النبوية، (٢٣٩).
(٤) رواه البخاري، (٣٩٨٤).
(٥) رواه مسلم، (٤٦٨٧).

فأنزل الله عز وجل: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ}، فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك الله، فخرج ﷺ وهو يقول: {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ}(١).

ثم تتجلى مشاهدُ من عظمة التضحيةِ والفداءِ من رجال {رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ} [الأحزاب: ٢٣]؛ يحكي أنسٌ رضي الله عنه وأرضاه عن أخيه حارثةَ بن سراقة قائلًا: أصيب حارثةُ يوم بدرٍ وهو غلامٌ فجاءت أمُّه إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسولَ الله، قد عرفتَ منزلةَ حارثةَ مني، فإنْ يكنْ في الجنةِ أصبرُ وأحتسبُ، وإنْ تكنِ الأخرى ترى ما أصنع؟ فقال: (**ويحك أَوَهَبِلْتِ أَوَجَنَّة واحدةٍ هي؟ إنها جنانٌ كثيرةٌ، وإنه في جنةِ الفردوسِ**)(٢).

**ثم ينطلقُ** ابنُ عفراء(٣) قال: يا رسول الله ما يُضحكُ الربَّ من عبده؟ قال: (**غَمْسُهُ يدَهُ في العدوِّ حاسرًا**)(٤) فنزع درعًا كانتْ عليهِ فقذفها، ثم أخذَ سيفَه فقاتلَ القوم حتى قُتل(٥).

وهذا الخبرُ يدلُ على قوةِ ارتباطِ الصحابةِ الكرام بالآخرةِ، وحرصِهم على رضوانِ الله تعالى؛ ولذلكَ انطلقَ عوفُ بن الحارث رضي الله عنه كالسهم وهو حاسرٌ غيرُ متدرِّعٍ يثخنُ في الأعداءِ حتى أكرَمَه الله بالشهادةِ، لقدْ تغيرتْ مفاهيمُ المجتمع الجديد، وتعلقَ أفرادُه بالآخرةِ، وأصبحوا حريصينَ على مرضاتِه بعد أن كان جلَّ همِّهم أن تتحدثُ عنهم النساءُ عن بطولاتِهم، ويرضى سيدُ القبيلةِ عنهم، وتنشدُ الأشعارُ في شجاعتِهم(٦).

فبعدما استفرغوا الوسعَ والطاقةَ ونفذوا أمر الله في كتابه العزيز؛ {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ} [الأنفال: ٦٠].

يأتي المددُ من السماء، قال تعالى: {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ} [الأنفال: ١٢].

---

(١) رواه البخاري، (٣٩٥٣).
(٢) رواه البخاري، (٣٩٨٢).
(٣) عفراء بنت عبيد بن ثعلبة شارك أولادها السبعة في غزوة بدر.
(٤) حاسراً: غير لابس الدرع.
(٥) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص(٢٤٥).
(٦) التربية القيادية، (٣١/٢).

وقال تعالى: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ(١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} [آل عمران: ١٢٣-١٢٦].

وعن ابن عباس رضي الله عنه، قال: (بينما رجلٌ من المسلمينَ يومئذٍ يشتدُ في إثرِ رجلٍ من المشركين أمامَه، إذ سمعَ ضربةً بالسوطِ فوقَه، وصوت الفارس يقول: أقدِم حيزوم[١] فنظر إلى المشركِ أمامَه فخرَّ مستلقيًا فنظر إليه فإذا هو خُطِم أنفُه[٢]، وشُقَّ وجهُه كضربةِ السوطِ فاخضرَّ ذلكَ أجمعُ، فجاء الأنصاريُّ فحدثَ بذلك رسول الله فقال: (**صدَقتْ، ذلك مددٌ من السماءِ الثالثة**)[٣].

(كانت غزوةُ بدرٍ، التي بدأتْ وانتهتْ بتدبيرِ اللهِ وتوجيهِه وقيادتِه ومددِه فرقانًا بين الحقِّ والباطلِ، كما يقول المفسرون إجمالاً، وفرقانًا بمعنى أشملَ وأدقَّ وأوسعَ وأعمقَ كثيرًا.

كانتْ فرقانًا بين هذا الحقِّ وهذا الباطلِ في أعماقِ الضميرِ؛ فرقانًا بين الوحدانيةِ المجردةِ المطلقةِ بكلِّ شُعَبِها في الضميرِ والشعورِ وفي الخلقِ والسلوكِ، وفي العبادةِ والعبوديةِ، وبين الشركِ في كلِّ صورِه التي تشملُ عبوديةَ الضميرِ لغيرِ اللهِ من الأشخاصِ، والأهواءِ والقيمِ والأوضاعِ والتقاليدِ والعاداتِ، وكانت فرقانًا بين هذا الحقِّ وهذا الباطلِ في الواقعِ الظاهرِ)[٤].

---

(١) حيزوم: اسم الفرس الذي يركبه الملك.
(٢) الخطم: الأثر على الأنف
(٣) رواه مسلم، (١٧٦٣).
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب، (١٥٢١/٣- ١٥٢٢).

## تواضعه وزهده ﷺ في رمضان

كانَ ﷺ متواضعًا دائمًا زاهدًا في الدنيا، وهي من سماتِ من رقيت نفسُه وعرف عظمةَ معبودِه حقَّ المعرفة وشدةَ ضَعْفِ نفسه، فكانت تلك المعرفةُ والخشيةُ سببًا لتواضع القلبِ للشرعِ والخلقِ، ولقوة التعظيمِ لله تعالى ونماءِ الصلة به، وللزهدِ في الدنيا والتعلقِ بحياة الآخرة.

وقد برز زهدُه ﷺ في رمضانَ في أمور كثيرة، منها صلاتُه ﷺ بالليلِ على حصير، كما في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: (كَانَ النَّاسُ يُصَلُّونَ فِى الْمَسْجِدِ فِى رَمَضَانَ أَوْزَاعًا فَأَمَرَنِى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَضَرَبْتُ لَهُ حَصِيرًا فَصَلَّى عَلَيْهِ)[١].

وكان معتكفه ﷺ متواضعًا، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (اعتكف رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في العشرِ الأواخرِ، فبُنيَ له بيتٌ مِنْ سَعَفٍ...)[٢] والسعف: أغصان النخلة إذا يبست.

وكان فطورُه وسحورُه ﷺ متواضعًا، وهذا ما ذكره خادمه أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: (كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يفطر قبل أن يصليَ على رطباتٍ، فإن لم تكن رطباتٌ فتُميراتٌ، فإن لم تكن تُميراتٌ، حسا حسَواتٍ من ماءٍ)[٣].

ولم يكن سحوره بأعظمَ من ذلك، قال أنس: قال رسول الله ﷺ ـ وذلك عند السحور ـ: يا أَنَسُ إنِّي أريدُ الصِّيامَ، أطعِمني شيئًا، فأتيتُه بتمرٍ وإناءٍ فيهِ ماءٌ، وذلِك بعدما أذَّنَ بلالٌ)[٤].

ولم يكن هذا حالُه في رمضانَ فقط، بل كان التواضعُ والزهدُ من أخلاقه الثابة في كل وقت وحين ﷺ، فقد كان يتخلقُ ويتمثل بقوله تعالى: {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [القصص: ٨٣].

---

(١) رواه أبو داود، وحسنه الألباني في صحيح أبي داوود (١٣٧٤).
(٢) رواه أحمد (٥٣٤٩) وقال شعيب الأرنؤوط حديث صحيح.
(٣) رواه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٦٩٦).
(٤) رواه النسائي، وصححه الألباني في صحيح النسائي (٢١٦٧).

وكان ﷺ متواضعًا في ذاتِه الشريفة، فلا يحب المدحَ، وينهى عن إطرائه ويقول: (**لاَ تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ ، وَلَكِنْ قُولُوا : عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**)[١].

وجاءه رجلٌ يومًا فقال له: يا سيدَنا وابنَ سيدِنا، ويا خيرَنا وابنَ خيرِنا، فقال النبي ﷺ: (**يا أيها الناس، قولوا بقولِكم ولا يستهوينَّكم الشَّيطانُ، أنا محمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ، عبدُ اللهِ ورسولُه، واللهِ ما أحبُّ أن ترفعوني فوق منزلتي الَّتي أنزلني اللهُ عزَّ وجلَّ**)[٢]، ويستهوينكم الشيطان أي يدفعكم إلى اتباع الهوى.

وجاءه رجل فقال يا خير البرية، فقال: (**ذلكَ إبراهيمُ عليهِ السلام**)[٣]، قال النووي: (قال العلماء: إنما قال ﷺ هذا تواضعًا واحترامًا لإبراهيم عليه السلام لخُلَّتِه وأبوَّتِه، وإلا فنبينا ﷺ أفضل، كما قال ﷺ (**أنا سيدُ ولدِ آدم**) ولم يقصدْ به الافتخارَ ولا التطاولَ على من تقدمه، بل قاله بيانًا لما أمر ببيانِه وتبليغِه، ولهذا قال ﷺ: (**ولا فخر**)؛ لنفي ما قد يتطرقُ إلى بعضِ الأفهامِ السخيفة ...)[٤].

وكان ﷺ يقول: (**آكلُ كما يأكلُ العبدُ وأجلسُ كما يجلسُ العبدُ**)[٥].

وكان ﷺ متواضعًا مع أصحابِه، يقول عثمان بن عفان رضي الله عنه: (إنا واللهِ، قدْ صحبْنا رسولَ الله ﷺ في السفرِ والحضرِ، وكان يعودُ مرضانا، ويَتْبَعُ جنائزَنا، ويغزو معنا، ويواسينا بالقليلِ والكثيرِ)[٦].

وكان ﷺ لا يأنفُ أن يمشيَ مع الأرملةِ والمسكينِ فيقضي له الحاجةَ[٧].

وكان ﷺ متواضعًا في بيتِه، فقد سُئلت عائشة رضي الله عنها: ما كانَ النبي ﷺ يصنعُ في بيتِه؟ قالت: (كانَ يكونُ في مهنةِ أهلِه؛ تعني خدمةَ أهلِه، فإذا حضرتِ الصلاةُ خرجَ إلى الصلاةِ)[٨].

---

(١) رواه البخاري (٣٢٦١).
(٢) رواه أحمد (١٢١٤١) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة.
(٣) رواه مسلم (٢٣٦٩).
(٤) شرح مسلم للنووي ، (١٢١/١٥).
(٥) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٥٩٧٥) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة.
(٦) رواه أحمد (٥٠٦) وقال شعيب الأرنؤوط إسناده صحيح.
(٧) رواه النسائي، وصححه الألباني في صحيح النسائي (١٤١٤).
(٨) رواه البخاري (٦٧٦).

وكان ﷺ (يخيطُ ثوبَه، ويَخصِفُ نعلَه، ويعملُ ما يعملُ الرجالُ في بيوتِهم) كما قالت عائشة رضي الله عنها[١].

أما عن زهدِه ﷺ فلم يكنْ كأيِّ زهدٍ، وإنما هو زهدُ من لو أراد جبالَ الدنيا أن تكون له ذهبًا وفضة لكانت، زهدُ من عُرِضت عليه الدنيا، وتزينت له، وأقبلت عليه، فقال: (**ما لي وللدنيا، إنما مَثَلي ومَثَلُ الدنيا كمَثَلِ راكب قَالَ في ظل شجرة في يوم صَائِفٍ ثم راح وتركها**)[٢] و(قال): منَ القيلولة: نامَ وسطَ النهار.

فلم يكنْ زهدُه عن عِوَزٍ وحاجةٍ، بل كان زهدًا مختارًا، فإذا جاءه المالُ الكثيرُ من الغنيمةِ أو الفيء؛ أنفقَه كلَّه، ولم يُبقِ لنفسه منه شيئًا، إيثارًا لما عند الله، وزهدًا في الدنيا ومتاعها.

ويقول ﷺ: (**يا أيها الناسُ، إنه لا يحلُّ لي مما أفاء اللهُ عليكم قدرَ هذه** ـ وأشار إلى وَبَرَة من جنب بعير ـ **إلا الخُمُسُ، والخُمسُ مردودٌ عليكم**)[٣] والوبرة: أي شعرةٌ، ومردود عليكم: أي والخمسُ المذكور ـ مع كونه لي ـ فهو مصروفٌ في مصالحكم من السلاحِ والخيرِ وغير ذلك.

وكان ﷺ ينامُ على الحصيرِ ليس تحته شيء غيره، فيؤثرُ في جنبِه الشريف، حتى بكى عمر رضي الله عنه تأثرًا على حالِ رسول الله ﷺ[٤].

وكان من زهدِه ﷺ أن بيتَه ربما كان يخلو من الطعام، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (جاءَ رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: إني مَجْهُودٌ، فأرسلَ إلى بعضِ نسائِه، فقالت: والذي بعثك بالحقِّ ما عندي إلا ماء، ثم أرسلَ إلى أخرى فقالت مثل ذلك، حتى قلن كلهنَّ مثل ذلك: لا والذي بعثك بالحقِّ ما عندي إلا ماء، فقال: **من يُضِيفُ هذا الليلةَ رحمه الله؟** فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله...)[٥]، و(إني مجهودٌ) أي أصابني الجهدَ وهو المشقةُ والحاجةُ وسوءُ العيش والجوع.

تخلو بيوت النبي ﷺ كلُّها من كلِّ شيء إلا من الماء!! أي زهد هذا!!

(١) رواه أحمد (٢٤٣٨٢) وصححه الألباني.
(٢) رواه أحمد (٤١٩٦) وصححه الألباني.
(٣) رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح أبي داوود (٢٧٧٥).
(٤) رواه البخاري (٤٩١٣).
(٥) رواه مسلم (٢٠٤٥).

فكيف إذ لم يجدْ فيها رسول الله ﷺ نفسُه ما يسدُّ به جوعَه، فيخرج من بيته علَّه يجد ما يسدُّ جوعَه؟!

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: خرجَ رسولُ الله ﷺ ذاتَ يوم أو ليلةٍ، فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: (**ما أخرجَكما من بيوتِكما هذه الساعة؟**) قالا: الجوع يا رسول الله، قال: (**وأنا والذي نفسي بيده، لأَخْرَجَنِي الذي أخرجَكما ...**)[1].

ومن هذا يتبينُ أن الأقربَ إلى هديه ﷺ هو التواضعُ والزهد (وهو تركُ ما لا ينفعُ في الآخرةِ والتبسطُ وتركُ التكلف والتقللُ من نعيم الدنيا حتى لا تنغمس النفسُ في ركامِ الشهواتِ وأوديةِ الملذاتِ فتُرْديها وتقعُ في حبالها فتأسرها.

وبهذا يُدرَك أن الحدَّ الأدنى من الزهدِ واجب، وضابطه: أن لا يقارفَ المرءُ شهوةً محرمةً، وأن لا يلتهي بملذةٍ مباحةٍ عن أداءِ واجب، وما زاد عن ذلكَ من مفارقة الشهواتِ المكروهاتِ أو الملذاتِ المباحاتِ التي تُسربلُ المرءَ في أثوابِ الغفلةِ وتحولُ بينه وبين المستحباتِ ـ ففضلٌ ومزيد يقظة.

وليس المرادُ أن نُعرضَ عن الملذاتِ مطلقًا، فإن تلك رهبانيةٌ مبتدعةٌ، نفاها الله ـ تعالى ـ عن هذا الدين، بل المرادُ أن نقتفي أثرَ رسولِ الله ﷺ وصحابتِه الكرام، والذي يجدُ من تأملَ في سيرِهم أن حياتَهم كانت بحسب الحالِ، بحيث لا يمتنعونَ عن موجودٍ من غير سرفٍ ولا مخيلةٍ، ولا يتكلفونَ حَوْزَ مفقودٍ، فنسأل ربنا الرحمن أن يهدينا طريقَهم ويوفقَنا لاتباعِهم، بمنِّه وإحسانه عز وجل.

فتحصيلُ المالِ بذلك الضابطِ غيرِ مذموم، لكن لابد أن يرافقَ العبدَ أثناء ذلك التحصيلِ تواضعُ القلبِ لله تعالى وإخباتُه له، وإقبالُه عليه، وطمأنينتُه ورضاه به، وتعلقُه بنعيمِ الآخرةِ الباقي، وهذه حقيقة الزهدِ، لا أن نتركَ الإغراقَ في ذلك ظاهرًا، والقلوبُ شغوفةٌ به متطلعةٌ إليه مشغولةٌ بالتفكير في كيفية الظفرِ به وتحصيله، إذ تلك عبودية الدنيا كعبوديةِ الدرهم والدينار، لكنها جمعت مع حرصِ القلبِ بخلَ اليدِ، مهما أكثر العبد فيها من التحلي بمظاهر التواضعِ والورعِ واكتساءِ أرديةِ الزهد، نسأل الله تعالى السلامة والعافية.

(١) رواه مسلم (٢٠٣٨).

## رحمتُه ﷺ بأمته

قال أنسٌ رضي الله عنه: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي فِي رَمَضَانَ، فَجِئْتُ فَقُمْتُ إِلَى جَنْبِهِ، وَجَاءَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَامَ أَيْضًا حَتَّى كُنَّا رَهْطًا، فَلَمَّا حَسَّ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّا خَلْفَهُ جَعَلَ يَتَجَوَّزُ فِي الصَّلاَةِ، ثُمَّ دَخَلَ رَحْلَهُ فَصَلَّى صَلاَةً لاَ يُصَلِّيهَا عِنْدَنَا. قَالَ: قُلْنَا لَهُ حِينَ أَصْبَحْنَا: أَفَطِنْتَ لَنَا اللَّيْلَةَ، فَقَالَ: (**نَعَمْ، ذَاكَ الَّذِي حَمَلَنِي عَلَى الَّذِي صَنَعْتُ**)[١].

وهذا جليٌّ وفي سيرته إذ ما بعثَه الله تعالى إلا رحمةً للناس، كما قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ١٠٧]، وقال ﷺ: (**إنَّما بعثتُ رحمةً**)[٢]، فعمت رحمتُه، واتسعت شفقتُه.

وصفه الله سبحانه وتعالى بالرحمة فقال سبحانه : {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} [آل عمران: ١٥٩].

{لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة: ١٢٨].

جاء أعرابيٌّ - كما تروي عائشة رضي الله عنها - إلى النبيِّ ﷺ فرأى أمراً لم يعهده رآه يقبلُ الصبيانَ، فقَالَ: تقبِّلُونَ الصِّبْيَانَ؟ قال ﷺ: **نعم**، قال الأعرابي: إنا لا نُقَبِّلُهُمْ، فقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **أَوَ أَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ**[٣].

ويصلي بأصحابه فيسجد فيأتي الحسن أو الحسين فيرقى على ظهره، فيطيل السجود حتى ظنوا أنه نسي فلما فرغ من صلاته قال: (إن ابني هذا ارتحلَني فكرهتُ أن أقومَ قبلَ أن يقضيَ حاجتَه)[٤].

---

(١) رواه مسلم، (١١٠٤).
(٢) رواه مسلم، (٢٥٩٩).
(٣) متفق عليه، رواه البخاري (٥٦٥٢)، ومسلم (٦١٦٩).
(٤) رواه أحمد (٢٧٦٨٨)، وقال شعيب الأرنؤوط إسناده صحيح.

ومن رحمته ﷺ ما ذكرهُ أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: (أَتَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى نَهَرٍ مِنْ السَّمَاءِ [أي من ماء المطر] وَالنَّاسُ صِيَامٌ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ [يوم صيف شديد الحرارة] مُشَاةً، وَنَبِيُّ اللَّهِ عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ، فَقَالَ: **اشْرَبُوا أَيُّهَا النَّاسُ**، قَالَ: فَأَبَوْا، قَالَ: **إِنِّي لَسْتُ مِثْلَكُمْ إِنِّي أَيْسَرُكُمْ** [من اليسار، أي: أغناكم عن الماء أو الإفطار] **إِنِّي رَاكِبٌ**، فَأَبَوْا، قَالَ: فَثَنَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَخِذَهُ فَنَزَلَ فَشَرِبَ وَشَرِبَ النَّاسُ، وَمَا كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَشْرَبَ)[١].

ومن رحمته ﷺ ما روته عائشةُ رضي الله عنها، قالت: (نَهى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الْوِصَالِ، رَحْمَةً لَهُمْ، فَقَالُوا: إِنَّكَ تُوَاصِلُ قَالَ: **إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ، إِنِّي يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي**)[٢].

ومن رحمته ﷺ أنه تركَ الصلاةَ بأصحابِه رضي الله عنهم جماعةً في قيام الليل خشيةً من أن تفرضَ عليهمْ.

عن عائشةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ ذَاتَ لَيْلَةٍ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ فَصَلَّى فِي الْمَسْجِدِ، فَصَلَّى رِجَالٌ بِصَلَاتِه، فَأَصْبَحَ النَّاسُ فَتَحَدَّثُوا، فَاجْتَمَعَ أَكْثَرُ مِنْهُمْ فَصَلَّوْا مَعَهُ، فَأَصْبَحَ النَّاسُ فَتَحَدَّثُوا، فَكَثُرَ أَهْلُ الْمَسْجِدِ مِنَ اللَّيْلَةِ الثَّالِثَةِ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَصَلَّوا بِصَلَاتِه، فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الرَّابِعَةُ عَجَزَ الْمَسْجِدُ عَنْ أَهْلِه حَتَّى خَرَجَ لِصَلَاةِ الصُّبْحِ؛ فَلَمَّا قَضَى الْفَجْرَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَتَشَهَّدَ ثُمَّ قَالَ: **أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَخْفَ عَلَيَّ مَكَانُكُمْ، لَكِنِّي خَشِيتُ أَنْ تُفْرَضَ عَلَيْكُمْ فَتَعْجِزُوا عَنْهَا**، قَالَ: وَذَلِكَ فِي رَمَضَانَ)[٣].

وكثيرًا ما كانَ يقولُ ﷺ: لولا أَنْ أشقَّ على أمتي لأمرتُهم بكذا..

فقال ﷺ: (**لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي أَوْ عَلَى النَّاسِ لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلَاةٍ**)[٤].

وقال ﷺ: (**لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُؤَخِّرُوا الْعِشَاءَ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ أَوْ نِصْفِهِ**)[٥].

(١) رواه أحمد (١١٤٤١)، وقال شعيب الأرنؤوط إسناده صحيح على شرط مسلم.
(٢) متفق عليه، رواه البخاري (١٨٦٣)، ومسلم، (٢٦٢٧).
(٣) متفق عليه، رواه البخاري (٨٨٢)، ومسلم، (١٨٢٠).
(٤) متفق عليه، رواه البخاري (٨٤٧)، ومسلم، (٦١٢).
(٥) رواه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١٦٧).

وقال ﷺ: (**لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لأَحْبَبْتُ أَنْ لاَ أَتَخَلَّفَ خَلْفَ سَرِيَّةٍ**)[١].

وقال ﷺ: (**لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ وُضُوءٍ**)[٢].

بل كانَ ﷺ في بعضِ الأحيانِ يؤثرُ أمتَهُ على حظِّ نفسِه في العبادةِ التي يجدُ فيها قرةَ عينِه؛ فكثيرًا ما يترك العملَ الذي يحبُّ أن يعملَ به رحمةً بهم.

تقول عائشة رضي الله عنها: إِنْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيَدَعُ الْعَمَلَ وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ خَشْيَةَ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ النَّاسُ فَيُفْرَضَ عَلَيْهِمْ[٣].

ويقولُ ﷺ: (**إِنِّي لأَقُومُ إِلَى الصَّلاَةِ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَأَتَجَوَّزُ كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ**)[٤].

وقِيلَ له ذات مرة: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ. فقَالَ ﷺ: (**إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً**)[٥].

ولم تقتصرْ رحمةُ النبيِّ ﷺ لأمتِه في الدنيا فقط، بل استعتْ لتشملَهم في الآخرةِ، فيومَ يقولُ كلُّ نبيٍّ: نفسي نفسي! يقول النبي ﷺ: (**يَارَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي**)[٦]، فلا تقرُّ عينُه ﷺ حتى تدخلَ أمتُه الجنةَ.

بل إنه آثرَ أمتَه بدعوتِه المستجابة، التي خصَّ الله بها كلَّ نبيٍّ؛ فادخرَها هو لأمتِهِ يومَ القيامة، حين تشتدّ حاجتُها وكربتُها!!

يقول ﷺ: (**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لاَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا**)[٧].

---

(١) رواه مسلم (٤٩٧٣).
(٢) رواه أحمد (٩٩٢٨)، وقال شعيب الأرنؤوط إسناده صحيح على شرط الشيخين.
(٣) متفق عليه، رواه البخاري (١٠٧٦)، ومسلم (١٦٩٥).
(٤) رواه البخاري (٨٦٨).
(٥) رواه مسلم (٦٧٧٨).
(٦) جزء من حديث الشفاعة الطويل؛ متفق عليه، رواه البخاري (٧٠٧٢)، ومسلم (١٩٣).
(٧) رواه مسلم، (١١٩).

وهو ﷺ الذي سكبَ الدمعاتِ على أمته، لَمَّا تَلَا قولَ الله عز وجلَّ في إبراهيمَ: {رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [إبراهيم: ٣٦]، وقول عيسى عليه السلام: {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [المائدة: ١١٨]، فرفع يَدَيْهِ وَقَالَ: (**اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي**) وَبَكَى.

فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: (**يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ ـ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ ـ فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ**)، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَا قَالَ. وَهُوَ أَعْلَمُ. فَقَالَ اللَّهُ: (**يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوؤُكَ**)(١).

ومن رحمته ﷺ بأمتِه أنه قامَ يدعو إلى الله عز وجل بلا كللٍ ولا مللٍ، ولم يدخرْ في ذلك وسعًا؛ حتى كادَ يُهلِكُ نفسَه الشريفةَ ﷺ حزنًا على المشركين، لتركِهم الإيمانَ وبعدهم عنه.

فقال له ربه: {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا} [الكهف: ٦]، وقال له: {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [الشعراء: ٣]، وقال له: {فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ} [فاطر: ٨].

وكأنه عتابٌ وإشفاقٌ على رسولِ الله ﷺ لشدةِ ضيقه وهمِّه بعدم إيمانِ قومه، وهو يوقنُ بما ينتظرهم بعد التكذيبِ، فتذوبُ نفسُه عليهم وَهُمْ أهلُه وعشيرتُه وقومُه، ويضيقُ صدرُه؛ فربُّه الرؤوفُ الرحيمُ يرأفُ به، وينهه عن هذا الهمِّ القاتلِ، ويهونُ عليه الأمر.

ومن رحمته في دعوتِه ما فعله مع الشبابِ الذي جاء يطلبُ الإذنَ بالزنا، فعن أبي أمامةَ رضي الله عنه قال: إِنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ، قَالُوا: مَهْ مَهْ [كلمة زجر وإنكار بمعنى: اكفف].

فَقَالَ ﷺ: (**ادْنُهْ**) فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا، قَالَ: فَجَلَسَ، قَالَ: (**أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟**) قَالَ: لَا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: (**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ**).

قَالَ: (**أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟**) قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: (**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ**).

(١) رواه مسلم (٣٠٢).

قَالَ: (**أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟**) قَالَ: لَا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: (**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ**).

قَالَ: (**أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟**) قَالَ: لَا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: (**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ**).

قَالَ: (**أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟**) قَالَ: لَا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: (**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ**).

قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: (**اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ**) فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ[1].

والملحوظُ من رحمةِ النبي ﷺ لأمتِه أنها مشوبةٌ بمحبةٍ، وممزوجةٌ بتقديرٍ واحترامٍ، وأنه ﷺ تركَ أحيانًا بعضَ العملِ الذي يرغبه متى كان التوجيهُ القوليُّ غير كافٍ في إحداث الرحمةِ وتحقيقِ الرفقِ الذي يريده ﷺ لأصحابِه رضي الله عنهم.

إن مراعاةَ ضعفِ الناسِ والرفقِ بهم، وتسهيلَ التطبيقِ عليهم، وعدمَ إلزامِهم بما يُلزمُ المرءُ نفسَه به منْ فضائلِ وأعمالِ البرِّ، والتدرجَ معهم رويدًا رويدًا في صعودِ مراقي الكمالِ ـ مفتاحُ كسبِ القلوبِ وبوابةُ الحفاظِ على فرحِ الناسِ بلزومِ أروقةِ الطاعةِ، والاستمرارِ في دروبِ الخيرِ ونهجِ الهدى.

(١) رواه أحمد (٢١٧٠٨) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٠٧).

## جهاده ﷺ «فتح مكة»

حدثَ في مثلِ هذا اليوم من السنة الثامنةِ من الهجرةِ النبوية، دخل رسولُ الله ﷺ مكةَ **دخولَ الخاشعِ المتواضعِ، لا دخولَ الفاتحِ المتعالِ**؛ وعليه عمامةٌ سوداءُ بغيرِ إحرام، وهو واضعٌ رأسَه تواضعًا لله، حين رأى ما أكرَمَه الله به من الفتحِ، حتى إن ذقنَه ليكادُ يمسُّ واسطةَ الرحل، ودخل وهو يقرأ سورةَ الفتح[١] مستشعرًا بنعمةِ الفتحِ وغفرانِ الذنوبِ، وإفاضةِ النصرِ العزيز[٢].

وعندما دخلَ مكةَ فاتحًا رفع كلَّ شعار من شعائرِ العدلِ والمساواةِ، والتواضعِ والخضوعِ، فأردف أسامة بن زيد[٣] -وهو ابن مولى رسول الله ﷺ- ولم يردفْ أحدًا من أبناء بني هاشم وأبناءِ أشرافِ قريش وهمْ كثير، وكان ذلك صبحَ يومِ الجمعة لعشرين ليلةٍ خلتْ من رمضانَ، سنة ثمانٍ من الهجرة[٤].

(إن هذا الفتح المبين ليُذكِّرَه بماضٍ طويلِ الفصولِ: كيف خرجَ مطاردًا؟ وكيف يعودُ اليومَ منصورًا مؤيدًا؟ وأيُّ كرامةٍ عظمى حفَّه الله بها هذا الصباحَ الميمونَ؟ وكلما استشعر هذه النعماءَ ازداد لله على راحلته خشوعًا وانحناءً)[٥].

هذا وقد حرص النبيُ ﷺ على تأمينِ الجبهةِ الداخليةِ في مكةَ عند دخولِه يوم الفتح؛ ولذلك عندما بلغته مقولةَ سعد بن عبادة لأبي سفيان: اليومَ يومُ الملحمة، اليومَ نستحلُّ الكعبةَ قال ﷺ: (**هذا يومٌ يُعَظِّمُ اللهُ فيه الكَعْبَةَ، ويَوْمٌ تُكْسَى فيه الكَعْبَةُ**)[٦]، وأخذ الرايةَ من سعدُ بن عبادة وسلَّمَها لابنه قيس بن سعد؛ وبهذا التصرف الحكيم حالَ دونَ أي احتمالٍ لمعركةٍ جانبيةٍ هُمْ في غنى عنها، وفي نفسِ الوقت لم يثرْه ولا أثارَ الأنصاري، فهو لم يأخذ الراية من أنصاري ويسلمها لمهاجر، بل أخذها من أنصاري وسلمها لابنه، ومن طبيعة

---

(١) رواه البخاري، (٤٢٨١).
(٢) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، (٣٩٦).
(٣) رواه البخاري، (٤٢٨٩).
(٤) انظر: السيرة النبوية، لأبي الحسن الندوي، (٣٣٧).
(٥) انظر: فقه السيرة، محمد الغزالي، (٣٧٩- ٣٨٠).
(٦) رواه البخاري، (٤٢٨٠).

البشر ألا يرضى الإنسانُ بأن يكون أحدٌ أفضلَ منه إلا ابنه[١].

ولما نزل رسولُ الله ﷺ بمكةَ واطمأنَّ الناسُ خرجَ حتى جاءَ البيتَ فطافَ به، وفي يده قوسٌ، وحول البيتِ وعليه ثلاثمائة وستون صنمًا، فجعل يطعنها بالقوس، ويقول: {جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} [الإسراء:٨١]، {جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ} [سبأ:٤٩]، والأصنامُ تتساقطُ على وجوهِها[٢].

وإنه لمظهرٌ رائعٌ لنصرِ الله وعظيم تأييده لرسولِه، إذ كان يطعنُ تلك الآلهة الزائفةِ المنثورةِ حولَ الكعبة بعصا معه، فما يكادُ يطعنُ الواحدَ منها بعصاه حتى ينكفئَ على وجهِهِ أو ينقلبَ على ظهرِهِ جذاذًا، ورأى في الكعبةِ الصورَ والتماثيلَ فأمرَ بالصورِ وبالتماثيلِ فكسرتْ[٣] وأبى أن يدخلَ جوفَ الكعبةِ حتى أُخرجت الصورُ، وكان فيها صورةٌ يزعمونَ أنها صورةَ إبراهيمَ وإسماعيلَ وفي يديهما من الأزلامِ فقال النبي ﷺ: **(قاتلهم اللهُ؛ لقدْ علموا ما اسْتَقْسَما بها قطُّ)**[٤].

ثم دخلَ البيتَ وكبَّر في نواحيه ثم صلى، فقد روى ابن عمر أنَّ رسولَ الله ﷺ دخلَ الكعبةَ هو وأسامةُ وبلالٌ وعثمانُ بن طلحة، فأغلقها عليهِ ثمَّ مكثَ فيها قال ابن عمر: فسألتُ بلالًا حين خرج: ما صنعَ رسولُ الله؟ قال: جعلَ عمودين عن يسارِه وعمودًا عن يمينه وثلاثةَ أعمدة وراءه -وكان البيت يومئذ على ستةِ أعمدة- ثم صلى[٥].

وكان مفتاح الكعبة مع عثمانِ بن طلحةَ، قبل أن يُسلمَ، فأرادَ عليٌّ رضي الله عنه أن يكونَ المفتاحُ له مع السقايةِ، لكن النبي ﷺ دفعَهُ إلى عثمانَ بعد أن خرجَ من الكعبةِ وردَّه إليه قائلًا: اليومُ يومُ برٍّ ووفاء[٦]، وكان ﷺ قد طلبَ من عثمانَ بن طلحة المفتاحَ قبل أن يهاجرَ إلى المدينة، فأغلظَ له القولَ ونالَ منه، فحلم عنه، وقال: **(يا عثمانُ، لعلكَ ترى هذا المفتاحَ يومًا بيدي**

(١) انظر: قيادة الرسول ﷺ السياسية والعسكرية، (١٩٦).
(٢) انظر: السيرة النبوية، للندوي، (٣٣٩).
(٣) انظر: السيرة النبوية للندوي، ص٣٣٩.
(٤) رواه البخاري، (٤٢٨٨).
(٥) انظر: السيرة النبوية، لابن هشام (٤/٦١- ٦٢).
(١) المصدر نفسه (٤/٦١).

**أضعُه حيثُ شئتَ)** فقال: لقد هلكتْ قريشٌ يومئذٍ وذلتْ، فقال: **(بل عَمُرَت وعزَّتْ يومئذ)**، ووقعتْ كلمتُه من عثمانَ بن طلحة موقعًا، وظنَّ أن الأمرَ سيصيرُ إلى ما قالَ.

ولقد أعطى له رسولُ الله ﷺ مفاتيحَ الكعبةِ قائلًا له: **(هاكَ مفتاحكَ يا عثمانُ، اليومُ يومُ برٍ ووفاءٍ، خذُوها خالدةً تالدةً لا ينزعُها منكم إلا ظالمٌ)** وهكذا لم يشأْ النبيُّ ﷺ أن يستبدَّ بمفتايحَ الكعبة، بلْ لم يشأْ أن يضعَه في أحدٍ من بني هاشم، وقد تطاولَ لأخذِه رجالٌ منهم، لما في ذلك من الإثارةِ، ولما به من مظاهرِ السيطرةِ وبسطِ النفوذِ، وليستْ هذه من مهامِ النبوةِ بإطلاقٍ، هذا مفهومُ الفتحِ الأعظمِ في شرعةِ رسولِ الله ﷺ: البرُّ والوفاءُ حتى للذين غدروا ومكروا، وتطاولوا.

هذا، وقد أمرَ النبيُّ ﷺ بلالًا أن يصعدَ فوقَ ظهرِ الكعبةِ فيؤذنُ للصلاةِ، فصعدَ بلالٌ وأذنَ للصلاةِ، وأنصتَ أهلُ مكةَ للنداءِ الجديدِ على آذانهمْ كأنهم في حلم، إنَّ هذه الكلماتِ تقصفُ في الجوِّ فتقذفُ بالرعبِ في أفئدةِ الشياطينِ؛ فلا يملكونَ أمامَ دويِّها إلا أن يولوا هاربينَ، أو يعودوا مؤمنينَ.

الله أكبر، الله أكبر.

ذلكَ الصوتُ الذي كان يهمسُ يومًا ما تحتَ أسواطِ العذابِ: أَحَدٌ، أَحَدٌ؛ ها هو اليومَ يجلجلُ فوقَ كعبةِ الله تعالى قائلًا: لا إله إلا الله، محمدٌ رسول الله، والكلُّ خاشعٌ منصتٌ خاضعٌ.

**وبعدَ كلِّ هذا يعلن النبيُّ الأمينُ ﷺ**، {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ١٠٧]؛ لأهل مكة عفوًا عامًّا رغمَ أنواعِ الأذى التي ألحقُوها به ﷺ وبدعوتِه، ورغمَ قدرةِ الجيشِ الإسلامي على إبادتِهم، وقدْ جاءَ إعلانُ العفوِ عنهم وهم مجتمعونَ قربَ الكعبةِ ينتظرونَ حكمَ الرسولِ ﷺ فيهمْ، فقال: **(ما تَظُنَّونَ أنِّي فاعلٌ بكُم؟)** فقالوا: خيرًا، أخٌ كريمٌ وابن أخٍ كريمٍ، فقال: **{لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ}** [يوسف:٩٢].

وقد ترتبَ على هذا العفوِّ العام حفظُ الأنفسِ من القتلِ أو السبيِّ، وإبقاءُ الأموالِ المنقولةِ والأراضي بيد أصحابِها عدمُ فرضِ الخراجِ عليها، فلمْ تعاملْ مكةُ كما عوملت المناطقُ الأخرى المفتوحةُ عنوةً؛ لقدسيتها وحرمتها، فإنها دار النسكِ ومتعبدُ الخلقِ وحرمُ الربِّ تعالى.

وكان من أثرِ عفوِ النبي ﷺ الشاملِ عن أهلِ مكةَ، والعفوِ عنْ بعضِ منْ أهدرَ دماءَهم، أنْ دخلَ أهلُ مكةَ -رجالاً ونساءً وأحرارًا وموالي- في دينِ الله طواعيةً واختيارًا، وبدخولِ مكةَ تحتَ رايةِ الإسلامِ دخلَ الناسُ في دين الله أفواجًا، وتمت النعمةُ، ووجب الشكرُ[١].

وبايع رسولَ الله ﷺ الناسُ جميعًا الرجالُ والنساءُ، والكبارُ والصغارُ، وبدأ بمبايعةِ الرجالِ، فقد جلسَ لهم على الصفا، فأخذ عليهم البيعةَ على الإسلامِ والسمعِ والطاعةِ لله ولرسولِه فيما استطاعوا.

وجاء مجاشعُ بن مسعود بأخيه مجالد بعد يوم الفتح فقال لرسول الله ﷺ: جئتُك بأخي لتبايعَه على الهجرةِ، فقال عليه الصلاة والسلام: **(ذهبَ أهلُ الهجرةِ بما فيها)** فقال: على أيِّ شيءٍ تبايعُه؟ قال: **(أبايعُه على الإسلامِ والإيمانِ والجهاد)**[٢].

وقد روى البخاريُّ أن رسولَ الله ﷺ قال يومَ الفتحِ: **(لا هجرةَ بعد الفتحِ ولكنْ جهادٌ ونيةٌ)**[٣] وإذا استنفرتم فانفروا.

ولما فرغَ رسولُ الله ﷺ من بيعةِ الرجالِ بايع النساءَ، وفيهنَّ هندُ بنت عتبة متنقبةً متنكرةً، على ألا يشركنَ بالله شيئًا ولا يسرقنَ، ولا يزنينَ، ولا يقتلنَ أولادهنَّ، ولا يأتينَ ببهتانٍ يفترينه بين أيديهنَّ وأرجلهنَّ، ولا يعصينَ في معروفٍ، ولما قال النبي: **(ولا يسرقنَ)** قالت هند: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجلٌ شحيحٌ لا يعطيني ما يكفيني ويكفي بنيَّ فهلْ عليَّ من حرجٍ إذا أخذتُ من ماله بغير علمه؟

(١) السيرة النبوية، لأبي شهبة، (٢/٤٥٦).
(٢) رواه البخاري، (٤٣٠٥).
(٣) رواه البخاري، (٢٧٨٣).

فقال لها ﷺ: (**خُذِي منْ مالِه ما يكفيكِ وبنيكِ بالمعروفِ**)، ولما قال: (**ولا يزنينَ**) قالت هند: وهل تزني الحرة؟! ولما عرفها رسول الله قال لها: (**وإنَّك لهندُ بنت عتبة؟**) قالت: نعم، فاعف عما سلفَ عفا الله عنك.

وقد بايعنَ رسولَ الله ﷺ من غيرِ مصافحةٍ، فقد كان لا يصافحُ النساءَ، ولا يمسُّ يدَ امرأةٍ إلا امرأةً أحلَّها الله له أو ذاتَ محرمٍ منه، وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (**لا واللهِ، ما مستْ يدُ رسولِ اللهِ يدَ امرأةٍ قطُّ**) وفي رواية: ما كان يبايعهنَّ إلا كلامًا ويقول: (**إنما قولي لامرأةٍ واحدةٍ كقولي لمائةِ امرأة**)[١].

لما دخل رسول الله ﷺ مكةَ ودخل المسجدَ، أتى أبو بكر بأبيه يقودُه، فلما رآه رسولُ الله ﷺ قال: (**هلَّا تركتَ الشيخَ في بيتِه حتى أكونَ أنا آتيه فيه؟**).

قال أبو بكر: يا رسولَ الله، هو أحقُّ أن يمشيَ إليك من أن تمشي إليه أنت، فأجلسَه بين يديه، ثم مسحَ صدَره، ثم قال له: (**أسلمْ**) فأسلم، قالت: فدخلَ به أبو بكر وكأنَّ رأسَهُ ثغامةٌ، فقال رسول الله ﷺ: (**غيِّروا هذا من شعرِه**)[٢] ويُروى أن رسول الله ﷺ هنأَ أبا بكرٍ بإسلامِ أبيه[٣].

وفي هذا الخبر منهجٌ نبويٌّ كريمٌ سنَّه النبي ﷺ في توقيرِ كبارِ السنِّ واحترامِهم، ويؤكدُ ذلك قوله ﷺ: (**ليسَ منَّا منْ لمْ يوقرْ كبيرَنا ويرحمْ صغيرَنا**)[٤]، وقوله ﷺ: (**إنَّ منْ إجلالِ اللهِ تعالى إكرامُ ذي الشيبةِ المسلم**)[٥]، كما أنَّه ﷺ سنَّ إكرامَ أقاربِ ذوي البلاءِ والبذلِ والعطاءِ والسبقِ في الإسلام؛ تقديرًا لهم على ما بذلوه من الخدمةِ للإسلامِ والمسلمينَ ونصرِ دعوةِ الله تعالى[٦].

---

(١) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير، (٣١٩/٤).
(٢) انظر: السيرة النبوية، لابن هشام، (٥٤/٤- ٥٥).
(٣) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (٥٧٧).
(٤) رواه أحمد (٦٩٣٧)، وقال شعيب الأرنؤوط: صحيح.
(٥) رواه أبو داود، (٤٨٤٣)، وحسنه الألباني.
(٦) انظر: التاريخ الإسلامي، للحميدي، (١٩٥/٧).

هكذا كانَ فتحُ مكة بمثابةِ انتصارٌ للرسالةِ المحمديةِ فلقدْ دخلتْ مكةُ تحتَ نفوذِ المسلمينَ، وزالتْ دولةَ الكفرِ منها، وحانتْ الفرصةُ للقضاءِ على جيوبِ الشركِ في حنينَ والطائفِ، ومنْ ثَمَّ إلى العالمِ أجمع؛ لذلك قال الله عنه في القرآن الكريم: {**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا**} [النصر: ١ - ٣].

وبعدها أصبحَ المسلمونَ قوى عظمى في جزيرةِ العربِ؛ وتحققت أمنيةُ الرسولِ ﷺ بدخولِ قريشٍ في الإسلامِ، وبرزتْ قوةٌ كبرى في الجزيرةِ العربيةِ لا يستطيعُ أيُّ تجمع قبلي الوقوفَ في وجهها، وهي مؤهلةٌ لتوحيدِ العربِ تحتَ رايةِ الإسلامِ ثم الانطلاقِ إلى الأقطارِ المجاورةِ، لإزالةِ حكوماتِ الظلمِ والطغيانِ، وتأمينِ الحريةِ لخلقِ الله لكي يدخلوا في دينِ الله، ويعبدوه وحدَه من دون سواه.

وها هو يتحققُ وعدَ الله بالتمكينِ للمؤمنينَ الصادقينَ بعد ما ضحوا بالغالي والنفيسِ، وحققُّوا شروطَ التمكينِ وأخذوا بأسبابِه، وقطعوا مراحلَه وتعاملوا مع سننِه كسنةِ الابتلاءِ، والتدافعِ، والتدرجِ، وتغيرِ النفوسِ، والأخذِ بالأسبابِ، ولا ننسى تلك الصورةَ الرائعةَ وهي وقوفَ بلالٍ فوقَ الكعبةِ مؤذنًا للصلاةِ بعد أن عُذِّبَ في بطحاءَ مكةَ وهو يردد: «أَحَدٌ أَحَدٌ» في أغلالِه وحديدِه، ها هو اليومَ قد صعدَ فوقَ الكعبةِ، ويرفعُ صوتَه الجميلَ بالأذانِ وهو في نشوةِ الإيمانِ.

## اعتكاف النبي ﷺ

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: (أنَّ رسولَ الله كانَ يعتكفُ في العشرِ الأوسطِ من رمضانَ فاعتكفَ عامًا حتَّى إذا كان ليلة إحدى وعشرين - وهي اللَّيلة التي يخرجُ من صبيحتها من اعتكافه- قال: (**منْ كانَ اعتكفَ معي فليعتكفْ العشرَ الأواخر وقدْ أريتُ هذه الليلةَ ثم أنسيتها وقد رأيتَني أسجدُ في ماءٍ وطينٍ من صبيحتِها، فالتمسوها في العشرِ الأواخرِ، والتمسوها في كلِّ وترٍ**).

فمطرت السَّماء تلك الليلة وكان المسجدُ على عريش، فَوَكَفَ المسجدُ فبصرت عيناي رسولَ الله على جبهتِه أثر الماءِ والطينِ من صبح إحدى وعشرين[١].

و(كان رسولُ الله إذا دخلَ العشْرُ أحيا اللَّيل، وأيقظ أهلَه، وجدَّ وشدَّ المئزر)[٢]، كما قالت عائشة رضيَ الله عنها.

وقالت رضي الله عنها: (كانَ رسول الله يجتهدُ في العشرِ الأواخرِ ما لا يجتهدُ في غيره)[٣].

أما عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه فيقول: (كان رسولُ الله يوقظُ أهلَه في العشرِ الأواخرِ من شهر رمضانَ، وكلَّ صغيرٍ وكبيرٍ يطيقُ الصلاةَ)[٤].

وتروي لنا عن حياته ﷺ أمُّنا أمُّ المؤمنينَ الصديقةُ بنتُ الصديق رضي الله عنها وعن أبيها: (أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يعتكفُ العشرَ الأواخرَ من رمضانَ حتَّى توفَّاه الله، ثم اعتكف أزواجُه من بعدِه)[٥].

وتقولُ أيضًا رضي الله عنها: (وإن كانَ رسولُ الله ليُدْخِل عليَّ رأسِه وهو في المسجدِ فأرَجِّلُه، وكانَ لا يدخلُ البيتَ إلاَّ لحاجةٍ إذا كان معتكفًا)[٦].

(١) رواه البخاري، (١٩٢٣).
(٢) متفق عليه، رواه البخاري (١٩٢٠)، ومسلم (١١٧٤).
(٣) رواه مسلم، (١١٧٥).
(٤) رواه الطبراني في الأوسط، (٧٤٢٥).
(٥) متفق عليه، رواه البخاري (١٩٢٢)، ومسلم (٢٨٤١).
(٦) متفق عليه، رواه البخاري (١٩٢٥)، ومسلم، (٧١١).

أما أبوها ورفيق النبيِّ صلي الله عليه وسلم الصديق يقول عنه ابنه عبد الرحمن: (كانَ أبو بكر يُصَلي في رمضانَ كصلاته في سائرِ السنةِ فإذا دخلت العشرُ اجتهدَ)[١].

بل ويصحُ أن نقول: إن اعتكافَ النبيِّ محمد ﷺ هو من قبيلِ إحياءِ السنن القديمةِ التي ترجع إلى ما قبل سيدنا إبراهيم عليه السلام، يلفتُنا إلى ذلك لفتًا شديدًا قولُه تعالى في سورة البقرة: {وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ} [البقرة: ١٢٥].

**لكن أينَ اعتكف النبيُّ ﷺ؟**

تعالوا بنا إخواني في الله نتعرف على الموضعِ الذي كان رسول الله ﷺ يعتكفُ فيه، فقد قال نافع مولى ابن عمر: (وقدْ أراني عبد اللهَ بن عمر المكانَ الذي كان رسولُ الله ﷺ يعتكفُ فيه من المسجدِ)[٢].

نعم! هذا هو اتباعُ الأثرِ، وتعقبُ السنَّة، واقتفاءُ السبيلِ، وهذا هو طريقُ الهدي وأصلُ الفلاح.

فعن ابن عمر عن النبي ﷺ: (أنه كان إذا اعتكفَ طُرِحَ له فراشُه، أو يُوضعُ له سريرُه وراءَ إسطوانةِ التوبةِ)[٣].

وهذه الأسطوانة هي الرابعة من ناحية المنبر، فهي تلي أسطوانة عائشةَ من جهةِ المشرقِ بلا فاصلٍ، وهي الثانيةُ من ناحيةِ القبر، والثالثةُ من ناحيةِ القبلةِ، وشرقي هذه الأسطوانة تقعُ أسطوانة أخرى اسمها «أسطوانة السرير»، ذُكر أن سرير النبي ﷺ كان يوضع عندها.

واعتكف النبيُّ ﷺ من منطلقِ التشميرِ للطاعاتِ في مواعيدِ القربِ، والاغترافِ من معين البركاتِ حين تتفسحَ الطرقاتُ، وتتكشفَ الأغطيةُ، وهو من فنونِ العبادةِ التي يؤتاها الصادقون في مودتهم مع الله جل وعلا، ومن فقهِ الطاعةِ الذي يُمنحه الموفقون في سلوكهم إليه تعالى، وكانَ ﷺ هو رائدُهم وفرطُهم ومقدمُهم، به الاقتداءُ، ومنه الاهتداءُ صلوات ربي وسلامه عليه.

(١) رواه البخاري، (١٩٢٥).
(٢) رواه مسلم، (٢٨٣٨).
(٣) رواه ابن ماجه، (١٧٧٤)، وقال الألباني في قيام الليل ص(٢٩): إسناده قريب من الحسن.

وحقيقةُ الاعتكافِ: قطعُ العلائقِ عن الخلائقِ للاتصالِ بخدمةِ الخالقِ سبحانه وتعالى، وهذه حقيقةُ الاعتكافِ عند ذَوي البَصائرِ؛ واعتكافُ الصَّالحينَ انقطاعٌ عن الخلقِ، وأنسٌ باللهِ، ونسيانٌ للشَّهَواتِ والرَّغباتِ الطبعيَّةِ. ولَعَلَّ هذا هو السرُّ في امتناعِ النبيِّ ﷺ عن مثلِ ذلك فقد كانَ يشدُّ مئزرَه، وذلك كناية عن الإقلالِ منَ الطَّعامِ والشَّرابِ والجماعِ.

وكُلَّما قويتْ المعرفةُ باللهِ والمحبةُ له والأنسُ به، أورثتْ صاحبَها الانقطاعَ إلى الله تعالى بالكُليَّة على كلِّ حالٍ.

ولهذا قال عطاءُ إنَّ مثلَ المعتكفَ مثلَ المُحْرم ألقى نفسَه بين يدَي الرحمن، فقال: واللهِ لا أبرحُ حتى ترحَمَني[1].

لنقرأْ سويًا قولَ الله تعالى في سورة البقرة: {وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [البقرة: ١٨٧].

(والمتفقُ عليه عند العلماءِ: أن المعتكفَ يحرمُ عليه النساءُ ما دام معتكفًا في مسجدِه، ولو ذهبَ إلى منزلِه لحاجةٍ لابد له منها فلا يحلُّ له أن يتلبثَ فيه إلا بمقدارِ ما يفرغُ من حاجته تلك، من قضاءِ الغائطِ، أو أكلٍ، وليس له أن يقبلَ امرأتَه، ولا يضمَها إليه، ولا يشتغلَ بشيءٍ سوى اعتكافِه، ولا يعودَ المريضُ، لكن يسألُ عنه وهو مارٌّ في طريقه.

يقول حبرُ هذه الأمةِ عبد الله بنِ العباس عن الآية: هذا في الرجلِ يعتكفُ في المسجدِ في رمضانَ أو في غيرِ رمضانَ، فحرَّمَ اللهُ عليه أن ينكحَ النساءَ ليلًا ونهارًا حتى يقضيَ اعتكافَه)[2].

ومعروفٌ أنه ﷺ كانَ إذا اعتكفَ ضُربَ له خباءٌ، وهو قبةٌ تشبه الخيمةَ، وهذا أعونُ على الخلوةِ، والانصرافِ إلى الله، والانقطاعِ عن الشواغلِ الخارجيةِ، وفي هذا تمامُ السكينةِ بمناجاةِ الحقِّ سبحانه.

واعتكافُ النبيِّ ﷺ إذًا هو اعتكافُ الروحِ والجسدِ إلى جوارِ الربِّ الكريم المنانِ في خلوةٍ مشروعةٍ تتخلصُ النفسُ من أوضارِ المتاعِ الفاني، واللذةِ العاجلة، وتبحرُ الروح في الملكوتِ الطاهرِ؛ طالبةً القربِ من الحبيبِ مالكِ الملكِ، ملتمسةً لنفحاتِه المباركات.

(١) شُعب الإيمان للبيهقي، (٣٩٧٠).
(٢) تفسير ابن كثير، (١ / ٥١٩).

إنه التعبيرُ عن الشوقِ إلى اللهِ واللجوءِ إلى حماهُ سبحانه، والاشتغالُ به عمن سواه، لا يخلو وقتَه عن عرضِ القرآنِ ومدارستِه معَ جبريلَ عليه السلام، أو الصلاةِ وقراءةِ القرآن، وألوانِ العبادةِ الروحيةِ، يشغلُه ذلك عن عيادةِ المريضِ وشهودِ الجنائزِ.

فالاعتكافُ المسنون هو الخلوةُ الصادقةُ مع اللهِ تفكرًا في آلائِه ومننِه وفضائلِه، واعترافًا بربوبيتِه وإلهيتِه وعظمتِه، وإقرارًا بكل حقوقِه، وثناءً عليه بكلِّ جميلٍ ومحمودٍ.

أخي القارئ لا تكنْ كصاحبِ الشنطةِ وهي قصةٌ طريفةٌ يحكيها أحدُ الدعاةِ عن مُعتَكِفٍ لا يدركُ حقيقةَ الاعتكافِ وطبيعتِه:

فحينما كانَ ذلك الداعيةُ المباركُ يعتكفُ مع بعضِ إخوانِه في العشرِ الأواخرِ من رمضانَ، في مسجدٍ يقعُ في أحدِ الأحياءِ الراقيةِ بإحدى عواصم الدولِ العربيةِ الكبرى، وبعد أن صلوا صلاةَ التراويحِ جاءَ إليه رجلٌ منْ عِلْيَةِ القومِ مستفسرًا عن حالِهم، وماذا يفعلونَ في المسجدِ؛ بعدما رأى ثيابَهم وفُرُشَهم التي وضعوها جانبًا.

فقال الشيخُ: نحن هنا لنعبدَ اللهَ تعالى في العشرِ الأواخرِ، نرجو بذلكَ أن تُعتَقَ رقابُنا من النارِ بكرمِ أكرمِ الأكرمين، فسأله الرجلُ: وهل تسمحُ لي أن أعتكفَ معكم؟ فقال الشيخ: تفضَّلَ، على الرحبِ والسعةِ.

فاستأذنَ الرجلُ أن يذهبَ ليأتيَ بمتاعِه وفُرُشِه وثيابِه، وما هي إلا سويعاتٍ حتى فوجئَ الجميعُ بذلك الرجلِ يدخلُ عليهم المسجدَ، وقد سبقَه أربعٌ من خدمِه يحملونَ من الحقائبِ ما إنَّ ثقلَها لينوءُ بالعصبةِ أولي القوةِ، فإذا بهم يُخرجونَ من أحداها صندوقًا كبيرًا من السيجارِ الكوبي الفاخرِ، ومن أخرى جهازَ الفيديو، ومن الثالثةِ جهاز التلفازِ، غيرَ الأغطيةِ الفاخرةِ والثيابِ الغالية.

فالاعتكافُ يساعدُك على التخلُّصِ من رواسبِ الماضي المظلم؛ فأحدُهم يحملُ في حقيبتِه إدمانًا لسماعِ الأغاني ورؤيةِ الأفلامِ والمسلسلات، والآخرُ يحملُ في حقيبتِه علاقةً مع زميلةٍ له في الجامعةِ، وثالثٌ يحملُ في حقيبتِه تعلقًا بسيجارةٍ، أو حبًّا لمالٍ أو منصبٍ أو جاه.

فلسانُ أحدِهم يقول:

أهوى هوى الدينِ واللذاتِ تعجبُني فمنْ لي بهـــوى اللذاتِ والدينِ

لكنْ الخلوة بالله واللجوء إليه في بيتِه تمنحُك قوةً لا بعدها قوة، واستعانةً بالعظيمِ سبحانه في مسجدِه، لتخرجَ بعد الاعتكافِ وقد تبتَ إليه وتقبلَك في عبادِه الصالحين.

**وهذه خطوات على طريق العمل:**

اجتهد أن تعتكفَ في العشرِ الأواخرِ لتتحرى ليلةَ القدرِ، قدرَ استطاعتِك.

اشغل نفسك بالتفكرِ والتأملِ في حالك وتقصيرك وفي عفوِ اللهِ ورحمتِه وقربِه من عبدِه الطائعِ.

أكثر من دعاءِ النبي ﷺ **(اللهمَّ إنك عفوٌ تحبُ العفوَ فاعفُ عنا)**.

## النبي ﷺ وليلة القدر

كانَ رسول الله ﷺ يقول: (**منْ قامَ ليلةَ القدرِ إيمانًا واحتسابًا غفرَ لهُ ما تقدمَ من ذنبِه**)[١].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دخلَ رمضانُ فقال رسول الله ﷺ: (**إنَّ هذا الشهرَ قد حضركم، وفيه ليلةٌ خيرٌ منْ ألفِ شهرٍ من حُرمَها فقدْ حُرم الخيرَ كلَّه ولا يحرمُ خيرَها إلا محرومٌ**)[٢].

ليلةٌ عظيمةُ القدرِ، رفيعةُ الشأنِ، من حازَ شرفَها فازَ وغَنِمَ، ومن خسرَها خابَ وحُرِمَ، العبادةُ فيها خيرٌ من عبادةِ ألفِ شهر.

ليلةُ القدرِ ليلةٌ ليست كبقيةِ الليالي، أجرُها عظيم، وفضلُها جليل، المحرومُ من حُرمَ أجرَها ولم ينلْ من خيرِها.

ليلةٌ مباركةٌ يكفي بها قدرًا أن الله جل شأنه أنزلَ فيها خيرَ كتبه، وأفضلَ شرائع دينه، يقول الله تعالى فيها {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ، لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ، سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ} [سورة القدر١-٥].

(وهذه النصوصُ القرآنيةُ التي تذكرُ هذا الحدثَ تكادُ ترف وتنير، بل هي تفيضُ بالنورِ الهادئِ الساري الرائقِ الودودِ، نورُ الله المشرقُ في قرآنه الكريم)[٣].

ويقول الله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ} [الدخان: ٣ - ٥].

وقوله تعالى: {فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ}، أي تقدَّرُ في تلكَ الليلةِ مقاديرُ الخلائقِ على مدى العام، فيكتبُ فيها الأحياءُ والأمواتُ والناجون والهالكون والسعداءُ والأشقياءُ والعزيزُ والذليلُ والجدبُ والقحطُ وكلُّ ما أراده الله تعالى في تلكَ السنةِ.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (١٨٠٢)، ومسلم (١٨١٧).
(٢) رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٦٤٤).
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٧٣/٨).

والمقصودُ بكتابةِ مقاديرِ الخلائقِ في ليلةِ القدرِ أنها تُنقلُ في ليلةِ القدرِ من اللوحِ المحفوظِ.

وسببُ تسميتها بليلةِ القدرِ؛ يقول عنها الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى:

أولًا: سميتْ ليلةُ القدرِ من القدرِ وهو الشرفُ كما تقول فلانٌ ذو قدرٍ عظيمٍ، أي ذو شرف.

ثانيًا: أنه يقدرُ فيها ما يكونُ في تلك السنةِ، فيكتبُ فيها ما سيجري في ذلك العام، وهذا من حكمةِ الله عز وجل وبيانِ إتقانِ صنعِه وخلقِه.

ثالثًا: وقيل لأنَّ للعبادةِ فيها قدرٌ عظيمٌ لقولِ النبي ﷺ **(منْ قامَ ليلةَ القدرِ إيمانًا واحتسابًا غفرَ له ما تقدمَ من ذنبِه)**[١].

أما عنْ وقتِها وموعدِ ليلةِ القدرِ: فعن أبي سلمةَ رضي الله عنه قال انطلقتُ إلى أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه فقلتُ: ألا تخرجُ بنا إلى النخلِ نتحدثُ فخرجَ فقال قلت: حدثني ما سمعتَ من النبي ﷺ في ليلةِ القدرِ؟ قال اعتكفَ رسولُ الله ﷺ عشرَ الأولِ من رمضانَ واعتكفنا معه.

فأتاه جبريلُ فقال: إن الذي تطلبُ أمامك، فاعتكف العشرَ الأوسطَ فاعتكفنا معه.

فأتاه جبريلُ فقال: إن الذي تطلبُ أمامك، فقام النبيُّ ﷺ خطيبًا صبيحةَ عشرين من رمضان فقال: **منْ كانَ اعتكفَ مع النبي ﷺ فليرجعْ فإني أُريت ليلةَ القدرِ وإني نُسِّيتُها وإنها في العشرِ الأواخرِ وفي وترٍ وإني رأيتُ كأني أسجدُ في طينٍ وماءٍ.**

وكان سقفُ المسجد جريدَ النخل وما نرى في السماء شيئًا فجاءتْ قزعة [وهي: قطعة رقيقة من السحاب] فأمطرنا فصلى بنا النبيُّ ﷺ حتى رأيتُ أثر الطينِ والماءِ . على جبهةِ رسولِ الله ﷺ وأرنبتِه [وهي: طرف أنفه])[٢].

وعن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رجالًا من أصحابِ النبي ﷺ أروا ليلةَ القدرِ في المنام في السبع الأواخرِ فقال رسول الله ﷺ: **(أرى رؤياكم قدْ تواطأتْ في السبعِ الأواخرِ فمنْ كانَ متحريها فليتحرَّها في السبعِ الأواخرِ)**[٣].

(١) متفق عليه، رواه البخاري (١٨٠٢)، ومسلم (١٨١٧).
(٢) رواه البخاري، (٧٨٠).
(٣) متفق عليه، رواه البخاري، (١١٩١)، ومسلم (٢٨١٨).

ولقد ثبت من الأحاديثِ الشريفةِ الصحيحةِ أنها تأتي في الوترِ من العشرِ الأواخرِ (ليلةَ الحادي والعشرين أو الثالثِ والعشرين أو الخامسِ والعشرين أو السابعِ والعشرين أو التاسعِ والعشرين).

وقد خرجَ النبيُّ ﷺ ليخبرَ صحابتَه رضي الله عنهم بليلةِ القدرِ فتلاحى رجلانِ من المسلمينَ فقال: (**خرجتُ لأخبرَكم بليلةِ القدرِ فتلاحى فلانٌ وفلانٌ فرفعتْ وعسى أن يكونَ خيرًا لكمْ فالتمسوها في التاسعةِ والسابعةِ والخامسةِ**)[١].

ولعلَّها لم تُحَدَّد بشكلٍ قطعيٍّ حتى يجتهدَ المسلمونَ في طلبها في العشرِ الأواخرِ بالقيامِ والدعاءِ.

ولكن لنا مع هذا الحديثِ وقفة فالله جل وعلا يربِّي صحابتَه الكرام على المحبة والألفة، وعدم التباغض والبعد عن الخصومة، بل لقد قال ﷺ: (**تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الاثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا إلا رَجُلا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا**)[٢].

وقد قال ﷺ: (**لا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ، يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ**)[٣].

فأخوةُ المؤمنيين أمرٌ عظيمٌ ينبه الله جل وعلا عليه صحابتَه الكرام وينبهُنا من بعدهم، بل ويسميها سبحانه وتعالى بنعمة هي من أجلِّ النعم على عباده الموحدين، {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [آل عمران: ١٠٣].

(هذه الأخوةُ المعتصمةُ بحبلِ اللهِ نعمةٌ يمتنُّ الله بها على الجماعةِ المسلمين الأوائلِ، وهي نعمةٌ يهبها الله لمن يحبُهم من عبادِه دائمًا، وهو هنا يذكرُهم هذه النعمةَ، يذكرهم كيف كانوا

(١) رواه البخاري، (١٩١٩).
(٢) رواه مسلم (٢٥٦٥).
(٣) متفق عليه، رواه البخاري (٥٧٢٧)، ومسلم (٢٥٦٠).

أعداءً فألفَ الله بين القلوبِ بالإسلامِ؛ وما كان إلا الإسلامُ وحدَه يجمعُ هذه القلوبِ المتنافرة)[١].

أما عن رحمتِه سبحانه وتعالى في ليلةِ القدرِ فحدِّث ولا حرج، أليسَ هو القائل جل وعلا؛ {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}.

فهي ليلةٌ خيرٌ من ألفِ شهرٍ، يكثرُ فيها العفوُ، وتسطرُ فيها بأقلامٍ من نورٍ أقلامُ الفائزين بعفوِ الله ورضوانه، فقط شمرْ عن ساعدِ الجدِ وأكثرْ من الابتهالِ إلى ربِّك بدعاءِ نبيك الذي نصحَ به عائشة رضي الله عنها فقال: (**قولي: اللهمَّ إنَّك عفوٌّ تحبُّ العفوَ فاعفُ عنِّي**)[٢].

ولكن احذر أيها المريد، فمن اتكل على رحمةِ الله وعفوِه ولم يحسنْ العملَ أو يقدمْ ما يبرهنُ على صدقه فهو المغبونُ الذي خسرَ دنياه وآخرته، فربُّك الغفورُ هو ذاته شديدُ العقابِ، وبيدِه خلقُ الجنةِ والنارِ، وهو الذي يحذرنا نفسه قائلًا سبحانه: {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ}.

فمن طمعَ في رحمةِ الله وتحججَ بحسنِ الظنِّ به ثم قعدَ عن العملِ والطاعةِ، فهو كالمنبتِّ لا أرضًا قطعَ ولا ظهرًا أبقى، وهؤلاء هم منْ قال في حقِّهم الحسنُ البصري رحمه الله (كذبُوا واللهِ لو أحسنُوا الظنَّ لأحسنوا العملَ).

فاقرنْ رجاءَك بخوفِك، واسألِ الله العتقَ من النيرانِ كما تسألُه الفوزَ بالجنانِ، فلا خابَ أبدًا من عبدَ اللهَ بالخوفِ والمحبةِ معًا.

وقد روي أن الحجاجَ بن يوسف الثقفي طاغيةَ بني أمية حين موتِه نادى ربه فقال: (اللهمَّ اغفرْ لي فإنَّهم يقولونَ إنَّك لن تغفرَ لي).

وحين سمع الحسنُ البصريُ تلك المقولة قال: أوقدْ قالها؟ واللهِ أخشى أن يغفرَ الله لهُ بها.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٤١١/١).
(٢) رواه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣٥١٣).

فلما قسَا قلبِي وضاقتْ مذاهبي جعلتُ الرجا مني لعفوكِ سلما
تعاظمنِي ذنبِي فلما قرنتُه بعفوكَ ربي كانَ عفوكَ أعظما
فما زلتَ ذا جودٍ وفضلٍ ومنة تجودُ وتعفو منةً وتكرما

**وهذه بعض الخطوات على طريق العمل:**

١. اكثر من دعاء النبي ﷺ **(اللهمَّ إنك عفوٌّ تحبُ العفوَ فاعفُ عنا)** وخاصةً في الليالي الوترية.

٢. احرص على صلاةِ التهجدِ في الليالي العشرِ الأواخرِ من رمضانَ وأكثر فيها من الدعاء.

٣. اتصل على كلِّ من تقدرُ من أقاربك لتصلَ رحمك حتى لو كانت بينكم خصومة.

٤. اتصل على كلِّ من له خصومة معك وصالحه حتى لا تطرد من رحمة الله.

٥. حاول الإصلاح بين كل متخاصمين تعرفهم حتى تأخذ الأجر والثواب.

# النبي ﷺ وذكر الله

رمضانُ موسمُ الخيرات، وميدانُ التنافسِ في القربات، وإن ذُكر الله عز وجل لمن أعظم ما يُتقرب به، وأجل ما يسابقُ وينافسُ عليه؛ إذ هو المقصودُ الأعظم في مشروعيةِ العبادات؛ فما شرعتِ الصلاة إلا لإقامة ذكر الله، قال تعالى: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي} [طه: ١٤].

وقد جاءَ الذكرُ مع الصيام، فبعد أن تناولت الآياتُ أحكام الصيام قال تعالى: {وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [البقرة: ١٨٥].

ونصوصُ الشرع متضافرةٌ متظاهرةٌ على فضلِ الذكرِ، وعمومِ نفعه، والثناءِ على أهلِه، والحثِّ على الإكثار منه.

فعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (**ألا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أعْمالِكُمْ، وأزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وأرْفَعِهَا في دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيرٍ لَكُمْ مِنْ إنْفَاقِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ أن تَلْقَوا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أعْنَاقَكُمْ؟**) قَالَوا: بَلَى، قَالَ: (**ذِكر الله تَعَالَى**)[١].

وها هي وصيةُ النبيِّ ﷺ للرجلِ الذي جاءه فقال: يا رسول الله، إن شرائعَ الإسلامِ قد كثرت عليَّ، فأخبرني بشيء أتشبَّث به، قال: (**لا يزالُ لسانُك رطبًا من ذكرِ الله**)[٢].

ثم كرَّرها النبي ﷺ لحبيبه معاذِ بن جبل رضي الله عنه حين سألَه فقال: أيُّ الأعمالِ أحبُّ إلى الله؟ قال ﷺ: (**أن تموتَ ولسانُك رطبٌ من ذكرِ الله**)[٣].

فالذكرُ كالماء البارد ينسابُ على لسانِك فينديه ويرطبُه، ثم يتدفقُ إلى قلبك الذي ألهبته حرارةُ المعاصي فيضفي عليه بردًا وحلاوةً وسكونًا واطمئنانًا، كما أخبر ربنا سبحانه وتعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد: ٢٨].

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣٣٧٧).
(٢) رواه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣٣٧٥).
(٣) رواه الطبراني في الكبير (٢١٢)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٤٩٢): حسن صحيح.

ومن أرادَ أن يكون من السابقينَ في رمضانَ فلابد أن يكونَ أولًا من الذاكرين، جزاءً بجزاءٍ ومثلًا بمثل، قال تعالى: {وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الأحزاب: ٣٥]؛ وقال تعالى أيضًا: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} [الأحزاب: ٤١ - ٤٣].

وقال ﷺ: (**سبقَ المُفرِّدون**)، قالوا: وما المُفرِّدون يا رسول الله؟ قال: (**الذاكرونَ الله كثيرًا والذاكرات**)[١].

وعن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: (**مثلُ الذي يذكرُ ربَّه والذي لا يذكرُه مثلُ الحيِّ والميت**)[٢].

فشتانَ بين ميتِ القلبِ وإن كان يمشي بين الأحياءِ، وبين من امتلأ قلبُه حياةً وإن وهن جسدُه وضعفَ، فالذاكرُ لربه حي وإن ماتتْ منه جميعُ الأعضاءِ، والغافلُ عن ذكره ميت، وإن مشى وتحركَ بين الأحياء.

والذاكرُ يذكره الرحمن، يقول تعالى: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ} [البقرة: ١٥٢]، وقال ﷺ: (**يقولُ الله تعالى: أنا عندَ ظنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسِه ذكرتُه في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرتُه في ملأٍ خيرٍ منهم**)[٣].

ألا تريدُ أن يذكرَك الله تعالى في الملأِ الأعلى، فيترددُ اسمُك في جنباتِ السماء على ألسنةِ الملائكةِ الكرام البررة؟ فإذا كان العبدُ يفرح بذكرِ اسمه على لسانِ عظيمٍ أو ملكٍ أو مسئولٍ، فكيف تكونُ فرحتَه إذا ذكره خالقُ الكون وجبارُ السماوات والأرض؟

أليس هو سبحانه وتعالى القائل؛ (**أنا معَ عبدي ما ذكرني وتحركتْ بي شفتاه**)[٤].

---

(١) رواه مسلم (٦٩٨٤).
(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٦٠٤٤)، ومسلم (١٨٥٩).
(٣) متفق عليه، رواه البخاري (٦٩٧٠)، ومسلم (٢٦٧٥).
(٤) رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٧٢٩).

وهذه قطوف يسيرةٌ من حدائقِ الذكرِ الغناءِ، لطالما داوم عليها النبي ﷺ، خذْ منها ما تستطيعُ، وأبشر فإنها بضاعةٌ خفيفةُ الحملِ في الدنيا ثقيلةُ الوزن يومَ القيامة، فقط حركْ لسانَك، واستحضرْ قلبَك، واغترفْ من حلاوةِ الإيمان كيفما تشاء.

فعن جابر رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (**أفضلُ الذكرِ: لا إله إلا الله**)[١].

وعنْ أبي هريرة رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ قالَ: (**منْ قال لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له، له الملكُ وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٍ، في يوم مائةَ مرة، كانت له عدلُ عشرِ رقابٍ، وكتبت له مائةُ حسنة، ومحيت عنه مائةُ سيئة، وكانت له حرزًا من الشيطانِ يومَه ذلك حتى يمسي، ولم يأتِ أحدٌ بأفضلِ مما جاء به، إلا أحدٌ عمل أكثر من ذلك**)[٢].

وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: (**من قالَ لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له، له الملكُ وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قدير، عشرَ مرات، كان كمنْ أعتقَ أربعةَ أنفسٍ من ولد إسماعيل**)[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**منْ قال سبحانَ الله وبحمدِه، في يومٍ مائةَ مرة، حُطَّت خطاياه وإن كانتْ مثلَ زبد البحر**)[٤].

وهذا الحديثُ العظيمُ وكلُّ أحاديثِ النبيِّ ﷺ عظيمةٌ الذي يختم به البخاري صحيحه فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**كلمتانِ خفيفتانِ على اللسانِ ثقيلتانِ في الميزانِ، حبيبتانِ إلى الرحمنِ، سبحانَ الله وبحمدِه، سبحانَ الله العظيم**)[٥].

وها هو إبراهيم عليه السلام يوصي أمةَ محمدٍ ﷺ بالذكرِ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**لقيتُ إبراهيمَ ليلةَ أسري بي، فقال: يا محمد أقرئ أمتَك مني السلامَ،**

---

(١) رواه الترمذي، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٣٣٨٣).
(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٣١١٩)، ومسلم (٢٦٩١).
(٣) رواه مسلم (٧٠٢٠).
(٤) متفق عليه، رواه البخاري (٦٠٤٢)، ومسلم (١٣٨٠).
(٥) متفق عليه، رواه البخاري (٦٠٤٣)، ومسلم (٧٠٢١).

وأخبرهم أن الجنةَ طيبةُ التربة، عذبةُ الماء، وأنها قيعانٌ وأنَّ غراسها، سبحانَ الله، والحمدُ لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر)[١].

ويعلمنا النبيُّ ﷺ أن الذكرَ هو زكاةٌ عن هذه الصحةِ التي منحك الله إياها فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: (إنَّه خُلقَ كلُّ إنسان من بني آدم على ستينَ وثلاثمائة مفصلٍ، فمنْ كبَّر اللهَ، وحمدَ الله، وهللَ الله، وسبحَ الله، واستغفرَ الله، وعزلَ حجرًا عن طريقِ الناسِ، أو شوكةً أو عظمًا عن طريقِ الناس، وأمرَ بمعروفٍ أو نهى عنْ منكرٍ، عدد تلك الستينَ والثلاثمائة السلامى؛ فإنَّه يمشي يومئذٍ وقد زحزحَ نفسَه عن النار)[٢].

وشاهدْ معي هذا المشهدَ الذي يحدث الآن، إنهم الملائكة، شاهد هذه اللقطة بقلبك؛ (إنَّ لله تباركَ وتعالى ملائكةً سيارةً فضلاً، يتبعون مجالسَ الذكرِ؛ فإذا وجدوا مجلسًا فيه ذكرٌ قعدوا معهم، وحفَّ بعضُهم بعضًا بأجنحتِهم، حتى يملئوا ما بينهمْ وبينَ السماءِ الدنيا، فإذا تفرقوا عرجُوا وصعدُوا إلى السماءِ.

قال: فيسألُهم الله عز وجل وهو أعلمُ بهم، من أينَ جئتم؟ فيقولون: جئنا من عندِ عبادٍ لك في الأرضِ يسبحونَك ويكبرونَك ويهللونَك ويحمدونَك ويسألونَك.

قال: وماذا يسألوني؟ قالوا: يسألونك جنتَك، قال: وهلْ رأوا جنتِي؟ قالوا: لا أي رب، قال: فكيفَ لو رأوا جنتِي؟

قالوا: ويستجيرونَك، قال: ومم يستجيرونني؟ قالوا: من نارِك يا رب، قال: وهل رأوا ناري؟ قالوا: لا، قال: فكيفَ لو رأوا ناري؟

قالوا: ويستغفرونك، فيقول: قد غفرتُ لهم، فأعطيتُهم ما سألوا، وأجرتُهم مما استجاروا.

فيقولون: ربِّ فيهم فلانٌ عبدٌ خطاءٌ إنما مرَّ فجلسَ معهم، فيقول: وله غفرتُ، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم)[٣].

(١) رواه الترمذي، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٣٤٦١).
(٢) رواه مسلم (٢٣٧٧).
(٣) رواه مسلم (٧٠١٥).

فكن منهم أو جالسهم، فكلا الأمرين فوز وفلاح.

وكـــنْ ذاكرًا لله في كـــلِّ حالـــة ... فليسَ لذكـــرِ الله وقتٌ مقيـــــد
فذكـرُ إله العرشِ سـرًّا ومعلنـًا ... يزيلُ الشقا والهمُّ عنك ويطـردُ
ولو لمْ يكنْ في ذكرِه غير أنـــــه ... طريقٌ إلى حبِّ الإلهِ ومرشـــدُ
لكانَ لنا حظٌّ عظيـــمٌ ورغبـــةٌ ... بكثرةِ ذكرِ الله نِعـمَ الموحَّـــدُ
ولكننا من جهلِنا قلَّ ذكرُنـــــا ... كما قلَّ منـــا للإلـــهِ التعبـــدُ

**وإذا أردتَ أن تنضم إلى صفوفِ الذاكرين فهاك الطريق.**

اقتنِ كتيبًا للأذكار الموظفة، مثل حصنِ المسلم أو أذكارِ اليوم والليلة، وواظب يوميًّا على حفظِ ذكرٍ جديد لا تعرفه.

لا تضيعْ أذكارَ الصباحِ والمساءِ خاصةً في رمضان فالحسناتِ مضاعفة.

احمل كتيب الأذكارِ معك أينما ذهبتَ، واقرأ منه الأذكارَ المتعلقةَ بكل موقفٍ، مثل الخروج من المنزلِ، والنزولِ والصعودِ، ورؤيةِ المبتلى، وركوبِ السيارة، ودخولِ المسجدِ والخروجِ منه.

احرص على أن يكونَ لسانُك رطبٌ من ذكر الله، بأن تكثرَ من التسبيحِ والتحميدِ والتهليلِ، وخاصةً في نهارِ رمضان حيثُ تتضاعفُ الحسنات.

من أفضلِ الذكرِ قراءةُ القرآنِ، وهذا هو شهرُ القرآنِ، فحافظ على وردٍ ثابت، على الأقلِ جزء يوميًّا.

تكلم مع أحدِ أصدقائك أو أقاربك عن أهميةِ الذكر، وابعث هذه الرسالة عبر البريدِ الإلكتروني إلى أكبرِ عددٍ ممكن من معارفِك، أو اطبعها وعلقها في المسجدِ المجاورِ لك لتنشرها في كل مكان.

## قيام النبي ﷺ في رمضان

كان رسول الله ﷺ يُرَغِّبُ في قيام رمضانَ من غيرِ أن يأمرَهم بعزيمته ثم يقول: (**من قامَ رمضانَ إيمانًا واحتسابًا غُفرَ لهُ ما تَقدمَ من ذنبِه**)[١].

قال الألباني: (هذا الترغيبُ وأمثالُه بيانٌ لفضلِ هذه العباداتِ، بأنه لو كان على الإنسانِ ذنوبٌ تغفرُ له بسببِ هذه العبادات، فإن لم يكنْ للإنسانِ ذنبٌ، يظهر هذا الفضلُ في رفعِ الدرجاتِ كما في حقِّ الأنبياءِ المعصومين من الذنوبِ)[٢].

وعلى الدربِ سار عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فكان إذا دخلَ أولُ ليلةٍ من رمضانَ يصلي المغربَ ثم يقولَ: (أما بعدُ، فإن هذا الشهر كُتبَ عليكم صيامَه، ولم يُكتبْ عليكم قيامَه، فمن استطاعَ منكم أن يقومَ فلْيقمْ، فإنها نوافلُ الخير التي قال الله)[٣].

وقيامُ رمضانَ من علامةِ الصديقين والشهداء، جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: يا رسولَ الله، أرأيتَ إن شهدتُ أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، وصليتُ الصلواتِ الخمس، وأديتُ الزكاةَ، وصمتُ رمضانَ وقمتُه، فَمِمَّنْ أنا؟ قال: (**من الصديقينَ والشهداءِ**)[٤].

تأملْ: ما الذي زادَه الصحابيُّ الجليلُ على أركانِ الإسلامِ الخمسةِ حتى يستحقَّ بهذه الزيادةِ اسمَ الصديقينَ والشهداءِ؟ إنه قيامُ رمضان.

ومن قامَ مع إمامِه كُتب له قيامُ ليلة: جاء في حديثِ أبي ذرٍّ قوله ﷺ: (**إنَّ الرجلَ إذا صلى مع الإمامِ حتى ينصرفَ حُسبَ له قيامُ الليلة**)[٥].

قال الألباني: والشاهدُ من هذا الحديث قوله: (**من قام مع الإمام ...**) فإنَّه ظاهرُ الدلالةِ على فضيلةِ قيامِ رمضان مع الإمام)[٦].

فأقبِل على صلاةِ الليلِ يُقبلُ اللهُ عليك، وانظرْ إلى سلفِك من الصحابةِ وسِرْ على دربِهم.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٣٧)، ومسلم (١٨١٥).
(٢) صحيح الترغيب والترهيب (٤١٥/١).
(٣) مصنف عبد الرزاق (٧٧٤٨).
(٤) رواه ابن حبان (٣٤٣٨)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٩٩٣).
(٥) رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح أبي داوود (١٣٧٧).
(٦) صلاة التراويح، ص(١٥).

وواللهِ ما صلاحُ الأجسادِ إلا بانتصابِها في القيام، وهو شفاءٌ من أمراضِ الأجسادِ والقلوبِ ورفعةٌ للدرجاتِ عند علامِ الغيوبِ، وهذا طريق الصالحينَ من قبلنا.

قال ﷺ: (عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ، فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَقُرْبَةٌ إِلَى اللَّهِ، وَتَكْفِيرٌ لِلسَّيِّئَاتِ، وَمَنْهَاةٌ عَنِ الإِثْمِ، وَمَطْرَدَةٌ لِلدَّاءِ عَنِ الْجَسَدِ)[١].

ومن الناس من ينضمُ إلى زمرة المقنطرين، قال ﷺ: (مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْقَانِتِينَ وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْمُقَنْطَرِينَ)[٢].

وقوله من المقنطرينَ، أي: ممن كتبَ له قنطارٌ من الأجرِ، والنقطارُ خيرٌ من الدنيا وما فيها.

وما أعظمَ ما أعده الله للمتهجدين، قال تعالى: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [السجدة: ١٦ - ١٧].

قال ابن كثير في تفسيره: (يعني بذلكَ قيامَ الليلِ وتركَ النومِ والاضطجاعَ على الفرشِ الوطيئةِ)[٣].

ولذا جاء في صفة أهل الجنة: {كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الذاريات: ١٧ - ١٨]. قال الحسن البصري: كابدوا الليلَ، ومدّوا الصلاةَ إلى السحرِ، ثم جلسوا في الدعاءِ والاستكانةِ والاستغفارِ.

كان رسولُ الله ﷺ لا يدعُ القيامَ مهما اشتد به المرضُ أو شغلته الظروفُ.. قالت عائشة رضي الله عنها لعبدِ الله بن أبي قيس: (لا تَدَعْ قيامَ الليلِ، فإنَّ رسولَ الله ﷺ كان لا يَدَعُه، وكان إذا مرضَ أو كسلَ صلى قاعدًا)[٤].

---

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣٥٤٩)، عدا (ومطردة للداء عن الجسد).
(٢) رواه أبو دواد، وصححه الألباني في صحيح أبي داوود (١٤٠٠).
(٣) تفسير ابن كثير (٣٦٣/٦).
(٤) رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح أبي داوود (١٣٠٩).

وعلَّمنا النبي ﷺ أن القيامَ لونٌ من ألوان شكرِ النعمةِ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبيُّ يقوم من الليلِ حتى تتفطرَ قدماه. فقلت له: تصنع هذا يا رسول الله، وقد غُفر لك ما تقدمَ من ذنبك وما تأخرَ؟ قال: (**أَفَلا أكون عبدًا شكورًا؟**)[١]، دلالةٌ على أن الشكرَ لا يكون باللسانِ فحسب، وإنما يكون بالقلبِ واللسانِ والجوارح، وقد كان النبيُّ ﷺ القدوةَ العليا والنموذجَ الأكملَ، فقام النبيُّ بحق العبوديةِ لله والشكرِ له على وجهِه الأكملِ وصورتها الأتم.

وكان يوقظُ من يحبُّ للقيام: عن الحسن بن علي بن أبي طالب أن أباه أخبره أن رسول الله ﷺ طَرَقَه وفاطمةَ بنت النبي ﷺ ليلةً، فقال: ألا تصليانِ؟ فقلت: يا رسول الله أنفسنَا بيدِ الله، إن شاء أن يبعثَنا بعثنا، فانصرفَ حين قلتُ ذلك، ولم يرجعْ إليَّ شيئًا، ثم سمعته يقول وهو مولٍّ، يضربُ فخذه وهو يقول: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا} [الكهف: ٥٤].

قال الطبري معلقًا: لولا علمُ النبي ﷺ من عظم الصلاةِ في الليل، ما كان يزعجُ ابنتَه وابنَ عمه في وقت جعله الله لخلقه سكنًا، لكنَّه اختارَ لهما إحرازَ تلك الفضيلة على الدعة والسكون، امتثالاً لقوله تعالى: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى} [طه: ١٣٢].

وكان ﷺ لا يقومُ الليلَ كلَّه، بل كان يخلطُه بقراءةِ قرآنٍ وغيره، قالت عائشة رضي الله عنها: (ولا أعلمُ نبيَّ الله ﷺ قرأَ القرآنَ كله في ليلةٍ، ولا قامَ حتى أصبحَ، ولا صامَ شهرًا كاملًا غير رمضان)[٢].

وفي ذلك إراحةٌ للجسدِ وتنشيطٌ للنفس، وقيامٌ بحقِّ الأهلِ، وضمانٌ لديمومةِ الاستمرارِ في دروبِ الطاعةِ، إذ القليلُ الدائمُ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من الكثيرِ المنقطعِ.

وكان ﷺ يطيلُ القيامَ، كما يدل لذلك قولَ أمِّ المؤمنينَ عائشة رضي الله عنها حين سئلت: كيف كانت صلاةُ رسول الله ﷺ في رمضانَ؟ فقالت: (ما كان يزيدُ في رمضانَ ولا

(١) رواه مسلم (٧٣٠٤).
(٢) رواه مسلم (١٧٧٣).

في غيره على إحدى عشرةَ ركعةً: يصلي أربعًا فلا تسلْ عن حسنِهنَّ وطولِهنَّ، ثم يصلي أربعًا فلا تسلْ عن حسنِهنَّ وطولِهنَّ، ثم يصلي ثلاثًا. فقلت: يا رسولَ الله، أتنامُ قبل أن توترَ؟ قال: **يا عائشة، إن عينيَّ تنامانِ ولا ينامُ قلبي**)[١].

لكن على من كانَ إمامًا للناس في مسجدٍ من مساجدِ المسلمينَ أن يطمئنَّ على موافقةِ جماعتِه له، فإن لم يوافقوه على الإطالةِ الشديدةِ، فله أن يطيلَ بهم طولًا لا يشقُّ عليهم؛ لقوله ﷺ: (**إذا قامَ أحدُكم للناسِ فليخففْ، فإن منهم الضعيفَ والسقيمَ والكبيرَ، وإذا صلى أحدُكم لنفسِه فليطولْ ما شاء**)[٢].

وقد تنوعت الكيفياتُ الواردةُ عنه ﷺ في قيامِ الليلِ، فبأيها أتى الناسكُ فهو على خيرٍ، وجميعُ ما نقل عنه ﷺ في قيامِه من عددِ ركعاتٍ وكيفياتٍ يدل دلالةً بينةً على أن إطالةَ القراءةِ بخشوعٍ وتدبُّرٍ في القيامِ، والذكرَ والدعاءَ بشهودِ قلبٍ] واستحضارِ لمعاني الركوعِ والسجودِ وسائرِ أقوالِ الصلاةِ وأفعالها ـ أَتَمُّ في التأسي وأَوْلى من زيادةِ العددِ، وإن كانَ في كلٍّ خيرٌ ومتسعٌ؛ لدخولِه في إطارِ قوله ﷺ: (**صلاةُ الليلِ مثنى مثنى**)[٣]، من غيرِ حدٍّ بكيفيةٍ أو عددٍ.

والناظرُ في عصرِنا هذا يجدُ اختلافًا معتادًا حولَ عددِ الركعاتِ في صلاةِ التراويحِ، وحين نتأملُ في هديه ﷺ نجدُ أنه لم يوقت لأمتِه في قيامِ رمضانَ حدًّا محدودًا، وإنما حثهم على القيامِ فقط؛ فدلَّ على التوسعةِ في هذا الأمرِ، وأن بإمكانِ المسلمِ أن يفعلَ ما يستطيعُ من ذلكَ بخشوعٍ وخضوعٍ وطمأنينةٍ، وإن كانَ الأفضلُ هو التأسي بفعلِه ﷺ من حيثُ الكمِّ والكيفِ، من غيرِ تجريحٍ على من فتحَ له في تحصيلِ كمٍّ أو كيفٍ مادام لم يخلّ بشيءٍ من أركانِ الصلاةِ وواجباتها.

أخي القارئ .. علامةُ المحبَّةِ حبُّ لقاءِ الحبيبِ ويا حبذا لو كان اللقاءُ بعيدًا عن أعينِ الناسِ، لما صَفَتْ أوقاتُ اللقاءِ نادى مؤذِّنُ المحبةِ في الخفاءِ: أقم فلانًا، وأنم فلانًا، فخرجت أسماءُ الفائزين؛ وقرت عيونُ المحبين، فماذا أفادك طولُ الرقادِ ولذةُ السباتِ؟! آهِ لو كنتَ

(١) متفق عليه، رواه البخاري (١٠٩٦)، ومسلم (١٧٥٧).
(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٦٧١)، ومسلم (٤٦٧).
(٣) متفق عليه، رواه البخاري (٤٦٠)، ومسلم (١٧٨٢).

معهم! أسفًا لك يا مسكين!! كم أضعتَ من كنز ثمين!! يا غارقًا في السبات الطويل.. فاتك مدحُ الإله الجليل: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ}، وَحُرِمْتَ مِنْحَةَ الثناء الجزيل: {وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ} [آل عمران: ١٧].

لبست ثوب الرجا والناس قد رقدوا ... وقمت أشكو إلى مولاي ما أجدُ
وقلت يا عُدتي في كل نائبة ... ومن عليه لكشف الضر أعتمدُ
أشكو إليك أمورًا أنت تعلمُها ... مالي على حملها صبرٌ ولا جلدُ
وقد مددت يدي بالذلِّ مبتهلًا ... إليك يا خير من مُدتْ إليه يدُ
فلا تردَّنَّها يا رب خائبةً ... فبحر جودكَ يروي كلَّ ما يَرِدُ

شهر رمضان شهرُ المصابيحِ، شهرُ التهجدِ والتراويحِ، أيامُه نيِّرةٌ بالصيام والتسبيحِ، ولياليه مشرقةٌ بصلاةِ التراويحِ، فطوبى لعبدٍ صامَ نهارَه وقامَ أسحارَه، فبادر أخي فكلُّ ليلةٍ تضيعُ دون قيام يخسرُ فيها المرءُ أجورًا كثيرةً، وكان أبو الدرداء يقول: (صلُّوا في ظلمةِ الليلِ ركعتين لظلمةِ القبورِ، صوموا يومًا شديدَ الحرِّ لحرِّ يومِ النشور، تصدقوا بصدقةٍ لشرِّ يوم عسير)[1].

(١) بغية الإنسان في وظائف رمضان، ص(٢٩).

## دعاء النبي ﷺ في رمضان

كان النبيُّ ﷺ يوصى أمَّ المؤمنين عائشةَ إذا أدركت ليلةَ القدرِ أن تكثر من قول (**اللهمَّ إنك عفوٌّ كريمٌ تحبُّ العفوَ فاعفُ عني**)[١].

ولقد خاطبَ اللهُ سبحانه وتعالى رسولَه ﷺ في سورةِ البقرةِ بعد آيات شهرِ رمضانَ مباشرةً، بقوله: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [البقرة: ١٨٦].

يقول سيدُ قطب رحمه الله في تعليقه على الآية في الظلال: (فإنِّي قريبٌ؛ أجيبُ دعوةَ الداعِ إذا دعانِ أيَّةُ رقةٍ؟ وأيُّ انعطافٍ؟ وأيةُ شفافية؟ وأيُّ إيناس؟ وأين تقعُ مشقةُ الصومِ ومشقَةُ أيِّ تكليفٍ في ظلِّ هذا الودِّ، وظلِّ هذا القرب، وظلِّ هذا الإيناس؟

وإضافةُ العبادِ إليهِ، والردُّ المباشرُ عليهم منه؛ لم يقل: فقلْ لهم: إنِّي قريبٌ؛ إنما تولَّى بذاتِه العليةِ الجوابَ على عبادِه بمجردِ السؤالِ، قريبٌ، ولم يقل أسمعُ الدعاءَ، إنما عجَّل بإجابةِ الدعاء.

إنها آيةٌ عجيبةٌ، آيةٌ تسكبُ في قلبِ المؤمنِ النداوةَ الحلوةَ، والودَّ المؤنسَ، والرضى المطمئنَ، والثقةَ واليقينَ، ويعيشُ منها المؤمنُ في جنابٍ رضيٍّ، وقربى نديةٍ، وملاذٍ أمينٍ وقرارٍ مكينٍ)[٢].

**فإن لم يكنْ رمضانُ شهرُ الدعاءِ، فأيُّ شهر يكون؟!**

دعاءُ ليلةِ القدر.

دعاءٌ في العشر الأواخر.

دعاءٌ قبيلَ الإفطار.

دعاءٌ كلَّ ليلةٍ، فلكلِّ ليلةٍ عتقاءٌ من النارِ في رمضان.

وليس المهمُّ اليومَ من الذي يدعو بل الأهمُّ هو: **كيفَ يدعو وعلى أيِّ حالٍ قلبُه!**

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣٥١٣).
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، (١ / ١٤٦).

وقد كان ﷺ يعلِّمُ الصغارَ قبلَ الكبارِ كيف يدعون ويستعينون باللهِ ويلتجأونَ إليه سبحانه وتعالى، عن ابن عباس قال: كنت خلفَ رسول الله ﷺ يومًا فقال: (**يَا غُلامُ، إنِّي أعلّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسأَلِ اللهَ، وإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ باللهِ.**

**وَاعْلَمْ: أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلاَّ بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَإِن اجتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلاَّ بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحفُ**)[١].

والدعاءُ **يدفعُ غضبَ الله**: فمن لم يسألِ الله يغضبْ عليه، قال رسول الله ﷺ: (**منْ لمْ يسألِ اللهَ يغضبْ عليه**)[٢].

والدعاء **سلامةٌ من العجز**: قال النبي ﷺ: (**أعجزُ الناسِ منْ عجزَ عن الدعاءِ**)[٣].

والدعاءُ **سببُ رفع البلاءِ بعدَ نزولِه**: قال رسول الله ﷺ: (**إنَّ الدعاءَ ينفعُ مما نزلَ ومما لم ينزلْ فعليكم عبادَ الله بالدعاءِ**)[٤].

والدعاءُ **سببُ حصولِ المودةِ بين المسلمين**: فإذا دعا المسلمُ لأخيه المسلمِ في ظهرِ الغيبِ استجيبت دعوتُه، ودعا له الملكُ وقال: ولك بمثلٍ.

قال تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [غافر: ٦٠].

قال القشيري في تفسيره: (ادعوني بالطاعاتِ أستجبْ لكم بالثوابِ والدرجاتِ، ويقال: ادعوني بلا غفلةٍ؛ أستجب لكم بلا مهلةٍ، ويقال: ادعوني بالتنصلِ أستجب لكم بالتفضلِ، ويقال: ادعوني ببذرِ الطاعةِ أستجب لكم بكشفِ الفاقةِ، ويقال: ادعوني بالسؤالِ أستجب لكم بالنوالِ والإفضالِ)[٥].

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٥١٦).
(٢) رواه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣٣٧٣).
(٣) رواه الطبرانى فى الأوسط (٥٥٩١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد، (٣١/٨): رجاله رجال الصحيح غير مسروق بن المرزبان، وهو ثقة.
(٤) رواه الترمذي، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٣٥٤٨).
(٥) تفسير القشيري، (١٠٨/٧).

ويقول عليٌّ رضي الله عنه: ارفعوا أمواج البلاء بالدعاء.

وينصحنا أنسُ بن مالك رضي الله عنه وأرضاه أنه: لا تعجزوا عن الدعاءِ فإنه لم يهلكْ مع الدعاءِ أحدٌ.

ويذكر لنا مجاهد رحمه الله تجربته قائلًا: إن الصلاة جُعلت في خيرِ الساعات فعليكمْ بالدعاءِ خلفَ الصلوات.

أما سفيان بن عُيينة فيحذر قائلًا: لا يمنعنَّ أحدَكم من الدعاء ما يعلمُ من نفسه من الذنوب؛ فإن الله عز وجل أجابَ دعاءِ شرِّ الخلق إبليس لعنه الله: {قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ} [ص: ٧٩ - ٨١].

كان النبي ﷺ يدعو بما جاء في آخر سورة البقرة {رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}[البقرة: ٢٨٦].

وليحرص المسلم على حفظ دعاء رسول الله ﷺ بقدر استطاعته، فقد شرع ﷺ لكلّ حالٍ دعاءً وذكرًا.

ويستحبّ أن يقدِّم بين يدي دعائه عملًا صالحًا، ويثني على الله ببعض ما أثنى به على نفسِه، ويُظهرُ الافتقارَ إلى الله عز وجل وشدّةَ الحاجة والرغبةَ فيما عند الله تبارك وتعالى، ويصلّي على نبيه محمد ﷺ في دعائه؛ لأنّ الدعاءَ معلّقٌ بين السماءِ والأرض حتى يصلَّى على نبيّه ﷺ، فصلواتُ الله وسلامُه عليه ما تعاقبَ الليلُ والنهارُ، ويتوسّل إلى الله بأسمائِه الحسنى، وبالاسم الذي يناسِبُ حاجتَه من أسماءِ الله تبارك وتعالى الحسنى، كقوله تعالى: {وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ} [المؤمنون:١١٨]، وكقوله تعالى: {وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ} [المائدة: ١١٤].

واحذر قبل أن تدعوا: **منْ أكلِ الحرام**: قال وهب بن منبِّه: من سرَّه أن يستجيبَ اللهُ دعوتَه فليطيِّبْ طعمَته، وهي وصيةَ النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص حينما قال له : **(يا سعدُ، أطبْ مطعمَك تكنْ مستجابَ الدعوةِ)**[1].

(١) رواه الطبراني في الأوسط، (٦٤٩٥)، وقال الهيثمي فى مجمع الزوائد (٢٩١/١٠): فيه من لم أعرفهم.

واحذر من **الاستعجال**: لقول النبي ﷺ: **(لا يزالُ يُستجابُ للعبدِ مَا لَمْ يستعجلْ، يقولُ: قدْ دعوتُ وقد دعوتُ فلم أرَ يستجيبُ لي)**[١].

قال أبو الدرداء: من يكثرْ قرعَ البابِ يوشكُ أن يفتحَ له، ومن يكثرُ الدعاءَ يوشك أن يستجابَ له، ولهذا قيل: يا ابن آدم لقد بوركَ لك في حاجةٍ أكثرت فيها من قرعِ بابِ سيدِك.

واحذر من **عدمِ اليقينِ بالإجابة**.

واحذر من **عدم حضورِ القلبِ في الدعاء**: قيل لطاووس اليماني: ادعُ بدعوات؛ قال: لا أجدُ لذلك خشيةً!!

أبحرتُ مالي غيرَ حبك مركبُ ... وضللتُ مالي غيرَ ضوئك كوكبُ
وسئمتُ مالي غيرَ أنسكَ سلوةٌ ... وعطشتُ مالي غير غوثك مشربُ
يامن علا فوقَ السماواتِ العلا ... لكنه من نبضِ قلبي أقربُ
يامن له خشعت جميعُ جوارحي ... والقلبُ من شوقي إليه مذوبُ
اقبل محبًّا عند بابك لم تزل ... عيناه من دمعِ الصبابةِ تسكبُ
يا من يفيضُ على الصدورِ مسرة ... وبأنسِه تسلو النفوسُ وتطربُ

وأخيرا تحرَّ الأوقات التى يستجابُ فيها الدعاءُ قبل الإفطارِ وفي السحرِ، وفي السجودِ، وعقب الصلواتِ المفروضة، وبين الأذانِ والإقامةِ.

حافظ على أذكارِ الأحوالِ فى اليومِ والليلةِ.

اجذبْ قلبكَ من أعباءِ الدنيا إلى ساحات العفوِ المغفرةِ، قال ﷺ: **(واعلموا أن اللهَ لا يستجيبُ دعاءً من قلبٍ غافلٍ لاهٍ)**[٢].

---

(١) رواه مسلم، (٢٧٣٥).
(٢) رواه الترمذي، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٣٤٧٩).

## عمرة النبي ﷺ ورمضان

كان النبيُّ ﷺ كثيرًا ما يؤكدُ على فضائلِ العمرةِ ويأمرُ بها أمته، إلا أن عمرةَ رمضان كان لها شأنٌ آخر.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال، قال رسول الله ﷺ لامرأةٍ من الأنصارِ: (**ما منعك أن تُحجِّي معنا؟** قالت: لم يكن لنا إلا ناضحانِ. فحجَّ أبو ولدِها وابنُها على ناضحٍ. وترك لنا ناضحًا ننضحُ عليه. قال: **فإذا جاء رمضانُ فاعتمِري، فإنَّ عُمرةً فيه تعدِلُ حجَّةً**)[١].

انظر إلى هذه المرأة، تخلفت عن الحج وفاتها ثوابُه، فيسألها الحبيب ﷺ عن سببِ تقاعسها عن الحج، فتقول: «لم يكنْ لنا إلاَ ناضحانِ أي بعيرانِ نستقي بهما»[٢].

ليس لديهم إلا بعيران، «فحجَّ أبو ولدِها وابنُها على بعيرٍ وتركَ لهم بعيرًا يستقون به، فإذا بالحبيب ﷺ يرشدُها إلى ما تعوضُ به ثوابَ الحجة التي فاتتها، فيقول: (**فإذا جاءَ رمضانُ فاعتمري فإن عمرةً فيه تعدلُ حجةً**).

وقوله ﷺ (**تعدل حجةً**)، «أي تعادلها وتماثلها في الثوابِ لأن الثوابَ يفضلُ بفضيلةِ الوقت»[٣].

تأمل أخي القارئ في عظمِ ثوابِ العمرة في رمضانَ، تعدلُ ثوابَ حجة، وطبعًا «المراد من الحديث بيانُ فضلِ العمرةِ في رمضانَ وإعلامها أن ثوابَها كثوابِ حجةٍ لا أنها تقومُ مقامَها في إسقاطِ الفرضِ للإجماعِ على أن الاعتمارَ لا يجزئُ عن فرضِ الحجِّ»[٤].

أرأيتَ إلى فضلِ العمرةِ في رمضانَ، ثوابِ حجةٍ، ولكنها ليست حجةٌ عاديةٌ أيها الأخ الكريم، إنها تعدلُ ثوابَ حجةٍ مع خيرِ من وطأت قدماه الثرى، مع سيدِ الأنبياءِ والمرسلين كما تدلُّ عليها روايات أخرى.

(١) رواه مسلم، (٢٢٠١).
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم، (٢/٩).
(٣) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، للمباركفوري، (٣٠٦/٨).
(٤) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣٠٧)

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (**عمرةٌ في رمضانَ كحجةٍ معي**)[١].

ومع ذلكَ فهو ﷺ لم يُكتبْ له أن يعتمرَ في رمضانَ بل اعتمرَ في الأشهر الحرم، فلماذا؟ هل العمرةُ في غيرِ رمضانَ أفضل؟ فإذا كانَ فكيفَ تعدلُ عمرةُ رمضانَ حجةً مع النبي ﷺ.

أجاب الحافظ ابن حجر رحمه الله عن هذه التساؤلات، فقال: «الذي يظهرُ أن العمرةَ في رمضان لغير النبي ﷺ أفضلُ وأما في حقِّه فما صنعه هو أفضلُ، لأن فعلَه لبيانِ جوازِ ما كان أهلُ الجاهلية يمنعونَه فأراد الردَّ عليهم بالقولِ والفعلِ وهو لو كانَ مكروهًا لغيره لكانَ في حقِّه أفضل»[٢].

فما الذي كان يعتقده أهلُ الجاهلية وأرادَ أن يبطلَه النبيُّ ﷺ ويردَّ عليهم فيه ردًّا قاطعًا يدحضُ معتقدهم؟ كانوا كما قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «كانوا يرونَ أن العمرةَ في أشهرِ الحجِّ من أفجرِ الفجورِ في الأرضِ»[٣].

وهناكَ رأيٌ آخر يفسرُ عدم أداءِ النبي ﷺ العمرةَ في رمضانَ، فـ «يحتملُ أنه ﷺ كانَ يشتغلُ في رمضانَ من العبادةِ بما هو أهمُّ من العمرةِ وخشي من المشقةِ على أمته إذ لو اعتمرَ في رمضانَ لبادروا إلى ذلك معَ ما هم عليه من المشقةِ في الجمع بين العمرةِ والصوم وقد كان يتركُ العملَ وهو يحبُّ أن يعملَه خشيةَ أن يفرضَ على أمتِه وخوفًا من المشقة عليهم».

لقد اعتمرَ النبي ﷺ أربعَ مرات، أولها عمرةُ الحديبية في السنة السادسةِ من الهجرة، وعمرةُ القضاءِ في السنة التي تلتها، وعمرةُ الجعرانة في السنة الثامنةِ من الهجرة، وسميت بالجعرانةِ لأن النبي ﷺ «دخلَ مكةَ ليلًا وأدّى مناسك العمرةِ، ثم خرج منها ليلًا، فبات بالجعرانةِ حتى أصبحَ وزالت الشمسُ من اليوم التالي فتوجَّه إلى المدينة»[٤].

وأما العمرةُ الرابعة تلك التي أداها رسول الله ﷺ مع حجتِه الوحيدةِ، والمعروفةُ بحجة الوداعِ، قبل وفاته ﷺ بأشهر قليلة.

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٧٢٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، (٤٠٩٨).
(٢) فتح الباري، (٣/٦٠٥).
(٣) متفق عليه، رواه البخاري، (١٤٦٢)، ومسلم، (٢١٧٨).
(٤) منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري، حمزة محمد قاسم، (٣/١٥٥).

والعمرة خطوة لتكفير الذنوب، فمنْ منَّا لم يتلبسْ بالذنوبِ والمعاصي، لكن الله تعالى الرحمن الرحيم، قد شرعَ لنا ما يتجاوزُ به عن ذنوبِنا، ومنها العمرة يقول ﷺ: (**العمرةُ إلى العمرةُ كفارةٌ لما بينهما**)[١]، كفارةٌ، مغفرةٌ، تمحوا ما بينهما من الذنوب.

ولذا يوجهنا النبيُّ ﷺ إلى عدمِ الإطالةِ في الفصلِ بين العمرةِ والعمرةِ، لما فيها من فضلٍ عظيم، ليس فقط مغفرةَ الذنوبِ، ولكن معها كذلك سعةَ الرزقِ والغنى، فقال صلوات الله وسلامه عليه: (**تَابِعُوا بين الحجِّ والعمرةِ، فإنَّهما ينفيانِ الفقرَ والذنوبَ، كما يَنفي الكيرُ خَبَثَ الحديدِ والذهبِ والفضةِ**)[٢].

«(ينفيانِ) أي كل منهما (الفقر) أي يزيلانِه وهو يحتملُ الفقرَ الظاهرَ بحصول غنى اليدِ والفقرَ الباطن بحصول غنى القلبِ (والذنوب) أي يمحوانها»[٣].

هلمَّ بنا نتخطى بخيالِنا ومشاعرِنا حواجز الزمن الفائت إلى عهدِ رسول الله ﷺ، تعالوا نتخيلُ إمامنا وحبيبنا وهو يؤدي مناسكَ العمرةِ كما علمنا إياها.

ها هو الحبيب ﷺ يبدأ بالاغتسالِ والتطيبِ عند وصولِه الميقات، حتى أن وبيصَ المسك يُرى في رأسِه ولحيتِه، يتطيبُ ﷺ في إقبالِه على ربِّه في العمرةِ، وبعدها يلبسُ ملابسَ الإحرام، ويصلي الفريضةَ إن كان وقت الفريضة، وإلا فنافلة، ثم يقول الحبيب ﷺ تلك الكلمةَ الخالدةَ، التي يشعُ منها نورُ الاتباع والانقيادِ والاستسلام لأوامرِ رب العالمين، يقول: لبيكَ عمرة، لبيكَ اللهم لبيكَ، لبيكَ لا شريكَ لك لبيكَ، إن الحمدَ والنعمةَ لك والملكُ لا شريكَ لك، فيجددُ عهدَه مع الله تعالى في الاستسلامِ المطلقِ له عز وجل.

وها هو يقتربُ من مكةَ فيغتسلُ قبل دخولِها، فإذا دخلَ المسجدَ الحرامَ قدم رجله اليمنى وقال: (بسم الله، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ الله، اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتحْ لي أبوابَ رحمتك، أعوذُ بالله العظيم، وبوجهِه الكريم، وبسلطانِه القديم من الشيطان الرجيم).

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري، (١٦٥٠)، ومسلم، (٢٤٠٣).
(٢) رواه الترمذي، وقال الألباني: حسن صحيح في صحيح الترمذي (٨١٠).
(٣) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ٣٨٩).

ثم يتقدمُ صلواتُ الله وسلامُه عليه إلى الحجرِ الأسودِ ليبتدئَ الطوافَ فيستلمُ الحجرَ بيدِه اليمنى ويقبله، أتدرونَ من أين أتى ذلكَ الحجر؟ لقد أتى من الجنةِ أيها الأحبة، أتى من وطنِكم الأولِ، والذي نزلَ منه إلى السماءِ أبونا آدم وأمُّنا حواءُ.

وبسبب المخالفة تغير لونُ هذا الحجر، فعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: **(نزلَ الحجرُ الأسودُ من الجنةِ وهو أشدُّ بياضًا من اللبنِ فسودته خطايا بني آدم)**[١].

سبحان الله، كأنَّ الله أرادَ لنا أن نرى قطعةً من الجنةِ على أرضِنا لتذكرَنا بوطنِنا الذي نشتاقُ إلى العودةِ إليه كما قال ابن القيم رحمه الله:

فحي على جنات عدن فإنها ... منازلنا الأولى وفيها المخيم

ولكن هذه القطعةَ من الجنةِ البيضاءِ النقيةِ، سودتها خطايا بني آدم، فنرى الحجرَ على هذا الحال، فتعافُ نفوسنا الذنوبَ والخطايا، ونفرُ منها إلى رب العالمين.

قبَّله النبيُّ ﷺ ونحن نقبله، ليس لالتماسِ البركةِ، إنما الأمرُ أيها الأحبة تعبدي، محضُ اتباعٍ لأوامرِ الله تعالى، فالحجرُ لا ينفعُ ولا يضرُ، وهنا يطالعنا الفاروقُ عمر بن الخطاب وهو يقبل الحجر، ويقول: «إني أعلمُ أنك حجرٌ لا تضرُّ ولا تنفعُ ولولا أني رأيتُ النبيَّ ﷺ يقبلُك ما قبلتُك»[٢].

ثم يأخذُ الحبيبُ ﷺ ذاتَ اليمين ويجعلُ البيتَ عن يساره، فإذا بلغَ الركنَ اليماني استلمه من غير تقبيل، قائلًا: **{رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}**.

وها هو النبي ﷺ يطوفُ حولَ البيت، مقتفيًا آثار أبيه إبراهيم عليه السلام، والذي شيدَّ بيتَ الله الحرام، ليكون كعبةَ أهلِ الدنيا، تهوى إليه أفئدةُ الناسِ ويفدون إليه من كلِّ فجٍ عميق.

يطوفُ حول البيتِ رافعًا رايةَ التوحيدِ الذي استلمَ رايتَها من نفسِ المكانِ الذي رفعَها فيه إبراهيم، من الأرضِ الحرامِ منبعَ التوحيدِ الذي أرسلَ أنوارَه في بقاعِ الأرض.

---

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٨٧٧).
(٢) رواه البخاري، (١٥٠٦).

ويتم النبيُّ ﷺ الطوافَ سبعةَ أشواطٍ ويتقدمُ إلى مقام إبراهيمَ ويقرأ {وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} ثم يصلي ركعتين خلفه يقرأ في الأولى بعد الفاتحة: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ} وفي الثانية: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} بعد الفاتحة، فإذا فرغَ من صلاةِ الركعتين رجعَ إلى الحجرِ الأسودِ فيستلمه.

ويخرج بعدَها الحبيبُ ﷺ إلى المسعى فإذا دنا من الصفا قرأ: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ} ثم يرقى على الصفا حتى يرى الكعبةَ فيستقبلُها ويرفعُ يديه فيحمدُ اللهَ ويدعو ما شاءَ أن يدعو. وكان من دعاءِ النبي ﷺ في هذا الموطن: (لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له، له الملكُ وله الحمدُ وهو على كلِّ شيءٍ قدير، لا إله إلا الله وحده، أنجزَ وعدَه، ونصرَ عبدَه، وهزم الأحزابَ وحده، يكرر ذلك ثلاثَ مرات ويدعو بين ذلك).

في كلِّ حركةٍ في كلِّ كلمةٍ في كلِّ غدوةٍ وروحةٍ، يرفعُ لواء التوحيد ﷺ.

ثم ينزلُ من الصفا إلى المروةِ ماشيًا، فإذا بلغَ العلمَ الأخضرَ ركضَ ركضًا شديدًا بقدر ما يستطيعُ ولا يؤذي، فقد روي عنه ﷺ أنه كان يسعى حتى ترى ركبتاه من شدةِ السعي يدورُ به إزاره.

فإذا بلغ العلم الأخضر الثاني مشى كعادتِه حتى يصلَ إلى المروةِ فيرقى عليها، ويستقبلُ القبلةَ ويرفعُ يديه ويقولُ ما قاله على الصفا، ثم ينزلُ من المروةِ إلى الصفا فيمشي في موضع مشيه، ويسعى في موضعِ سعيه، فإذا وصلَ الصفا فعل كما فعلَ أولَ مرة، وهكذا المروةُ حتى يكملَ سبعةَ أشواطٍ يذكر خلالها جميعًا ربه جل وعلا.

يسعى ﷺ مجددًا للعالمين ذكرى عطرة، ذكرى تلكَ السيدةِ المؤمنةِ التقيةِ أم إسماعيل عليه السلام، تلك التي وضعها زوجُها نبي الله إبراهيم بوادٍ غير ذي زرعٍ عند بيتِ الله المحرم، أمرًا من عند الله تبارك وتعالى، يتركُها ورضيعَها مع شيءٍ من طعامٍ وسقاءٍ، وينصرفُ عنهما وهي تلاحقُه فلا يجيبها، فإذ بها تقول: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالتْ بكلِّ ثقةٍ ويقينٍ بالذي يرزقُ الطيرَ والوحشَ والإنسَ والجنَ: إذًا لن يضيعَنا الله.

وينفدُ الطعامُ والشرابُ ويجفُّ لبنُها ويجوعُ الرضيعُ، فإذ بها تسعى، تبحث، تأخذُ بالأسبابِ، تتردد سبع مرات، سبعَ أشواطٍ بين الصفا والمروة، لتصير سنة للبشرية جمعاء.

حتى إذا أتمها الحبيب ﷺ حلقَ شعرَ رأسِه، وتحللَ من عمرتِه، ليتركَ لأمته على مر العصورِ عبيره وشذاه، يتسللُ إلى أوصالِنا ليهتفَ بنا: أن هلموا إلى العمرةِ، عمرة كعمرةِ حبيبِكم ﷺ.

وفي الختام، أو ما تشتاقونَ إلى عمرةٍ تنالون فيها ثوابَ الحجِّ مع سيدِ الأنبياءِ والمرسلين وحبيبِ رب العالمين محمد ﷺ؟

كأني أسمعُ نبضاتَ تلك القلوبِ النقيةِ العامرةِ بمحبةِ الله ورسوله، وتلك الألسنةِ الذاكرةِ الطيبةِ تقول بكل صدق: نعمْ نشتاقُ، نعم نشتاقُ، فأقول لأحبتنا: هلموا إلى عمرةٍ في رمضان.

## زكاته ﷺ في رمضان

(فرضَ رسولُ الله ﷺ زكاةَ الفطرِ من رمضانَ على الناسِ)[١].

يُودِّع الضيفُ الكريم ويَجْهَزُ بالهدايا والتحفِ والعطايا والطُرَف، أتدرونَ ما تحفةِ ضيفِكم؟ إنها زكاةُ فطرِكم، طهرةُ صومِكم، وزكاةُ نفوسِكم، وصلاحُ أمركِم.

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: (فرضَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زكاةَ الفِطْرِ: طُهْرةً للصائم من اللَغْوِ والرَفَثِ، وطُعْمَةً للمساكينِ)[٢].

إن الحكمةَ من تشريعِ زكاة الفطرِ هو تطهيرُ الصائم من اللغوِ والرفثِ، وذلك أن الصائمَ في الغالبِ لا يخلو من الخوضِ واللهوِ ولغوِ الكلَام، وما لا فائدةَ فيه من القولِ، والرفث الذي هو الساقطُ من الكلام، فيما يتعلق بالعوراتِ ونحو ذلك، فتكونُ هذه الصدقةُ تطهيرًا للصائم مما وقعَ فيه منْ هذه الألفاظِ المحرمةِ أو المكروهةِ، التي تنقصُ ثوابَ الأعمالِ وتخرقُ الصيام.

والقصدُ من زكاةِ الفطرِ كذلك التوسعةُ على المساكينِ، والفقراءِ المعوزين، وإغناؤهم يومَ العيد عن السؤالِ والتطوف، الذي فيه ذلٌّ وهوانٌ في يوم العيد الذي هو فرحٌ وسرورٌ؛ ليشاركوا بقيةَ الناسِ فرحتَهم بالعيد.

وكم أثنى ربنا تبارك وتعالى على الذي يتصدقونَ على الفقراء والمساكينَ ويطعمونَهم الطعامَ، قال تعالى: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا} [الإنسان: ٨ - ١٣].

وهي فرضٌ، تجبُ على الذكرِ والأنثى، والصغيرِ والكبيرِ من المسلمين، كما في حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - المتفق عليه: (**فرضَ رسولُ الله ﷺ زكاةَ الفطرِ، صاعًا من تمرٍ،**

(١) رواه مسلم، (٢٣٢٥).
(٢) رواه أبو داود، وحسنه الألباني في صحيح أبي داوود (١٤٢٧).

**أو صاعًا من شعيرٍ، على العبدِ والحرِّ، والذكرِ والأنثى، والصغيرِ والكبيرِ من المسلمين)**[١].

وإخراجها عن الأطفالِ وغيرِ المكلفينَ والذينَ لم يصوموا لعذرٍ من مرضٍ أو سفرٍ داخلٌ في الحديث، وتكونُ طهرةً لأولياءِ غيرِ المكلفين، وطهرةً لمن أفطرَ لعذرٍ، على أنه سوفَ يصومُ إذا زال عذرُه، فتكون طهرةً مقدمةً قبلَ حصولِ الصومِ أو قبل إتمامِه.

وأما الأصنافُ التي تُخرج منها صدقةُ الفطرِ، ففي حديثِ أبي سعيدٍ رضي الله عنه في الصحيحين قال: (كُنَّا نُخْرِجُ زَكَاةَ الْفِطْرِ صَاعًا مِنْ طَعَامٍ أَوْ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ أَوْ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ أَوْ صَاعًا مِنْ أَقِطٍ أَوْ صَاعًا مِنْ زَبِيبٍ)[٢]. والأقِط: اللَّبنُ المحمضُ يجمدُ حتى يستحجرَ ويطبخُ أو يطبخ به.

وصدقةُ الفطرِ تخرجُ من طعامِ البلدِ، صاعًا من قوتِ البلد، أيًا كان قوته.

وصدقةُ الفطرِ إنما هي للمساكينِ خاصةً، وليست لسائرِ أصنافِ أهلِ الزكاةِ الثمانية؛ لحديث ابن عباس - رضي الله عنهما - الصحيح أن رسولَ الله ﷺ قال في صدقة الفطر: **(وطعمةٌ للمساكينِ)**[٣]، وهذا ما رجحه جماعةٌ من أهل العلمِ، كابن تيمية، وابن القيم- رحمهما الله-.

أما عن تقسيم زكاةِ الفطر على عدةِ فقراءٍ فلا بأس بذلك، فإذا كانَ الفقراءُ كثيرين جازَ أن تفرقَ عليهم زكاةُ شخصٍ واحد، كما يجوز أن يعطى الفقيرُ الواحدُ زكاةَ عددٍ من المزكين، والله أعلم.

وتؤدَّى صدقةُ الفطر قبلَ الخروجِ لصلاةِ العيدِ، كما في الحديث المتفق عليه عن ابن عمر -رضي الله عنهما - أن النبيَّ ﷺ أمرَ بزكاةِ الفطرِ، قبلَ خروجِ الناسِ إلى الصلاة[٤].

ومن أداها قبلَ العيدِ بيوم أو يومين فلا حرجَ، كما جاءَ في البخاري: (وكانَ ابنُ عمر - رضي الله عنهما - يعطيها الذين يقبلونَها، وكانوا يعطونَ قبلَ الفطرِ بيومٍ أو يومين)[٥].

(١) متفق عليه، رواه البخاري (١٤٣٢)، ومسلم (٩٨٤).
(٢) متفق عليه، رواه البخاري (١٤٣٥)، ومسلم (٢٣٣٠).
(٣) رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح أبي داوود (١٦٠٩).
(٤) متفق عليه، رواه البخاري (١٤٣٢)، ومسلم (٩٨٤).
(٥) رواه البخاري (١٤٤٠).

ولا يجوزُ تأخيرهُا عن صلاةِ العيدِ، فإن أُخرتْ عنها فإنما هي صدقةٌ من الصدقاتِ، لحديث ابن عباس رضي الله عنهما: (مَنْ أدَاها قبلَ الصلاةِ؛ فهي زكاةٌ مقبولةٌ، ومَنْ أدَّاها بعدَ الصلاةِ؛ فهي صَدَقَةٌ من الصدقات)[١].

ومن السُّنةِ أن يكونَ لها من تجمع عنده؛ فقد وكَّل النبي ﷺ أبا هريرة رضي الله عنه قال: (**وكلني رسولُ الله ﷺ بحفظ زكاةَ رمضان**)[٢].

إن المسلمَ لا يعيش لنفسِه أبدًا، لا يعرفُ الإسلامُ هذه الأنانية، والنبي ﷺ ربَّى المجتمعَ الأولَ على بذلِ الخيرِ للآخرين وحملِ همومهم، بل ضربَ مثلًا رائعًا للمجتمع المسلم، حين قال: (**مَثَلُ المُؤْمِنينَ فِي تَوَادِّهِمْ وتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالسَّهَرِ والحُمَّى**)[٣].

هو مجتمعٌ يرحمُ القويُّ فيه الضعيف، ويرفقُ الكبيرُ فيه بالصغير، ويعطفُ الغنيُّ فيه على الفقير، ويعطي القادرُ فيه ذا الحاجة.

والنبي ﷺ كانَ أجودَ الناسِ، وكانَ أجودَ ما يكونُ في رمضانَ حين يلقاه جبريل، كان أجودَ بالخيرِ من الريحِ المرسلة[٤].

والمؤمن عندما يكون صائمًا متصدقًا، يكون قد جمعَ من خصالِ الخيرِ والبرِّ ما يدخلُه الجنةَ، ففي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (**مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ صَائِمًا**) قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضى الله عنه: أَنَا. قَالَ: (**فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ جَنَازَةً**) قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضى الله عنه: أَنَا. قَالَ: (**فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مِسْكِينًا**) قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضى الله عنه: أَنَا. قَالَ: (**فَمَنْ عَادَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مَرِيضًا**) قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضى الله عنه: أَنَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (**مَا اجْتَمَعْنَ فِى امْرِئٍ إِلاَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ**)[٥].

---

(١) رواه أبو داود، وحسنه الألباني في صحيح أبي داوود (١٤٢٧).
(٢) رواه البخاري، (٢١٨٧).
(٣) متفق عليه، رواه البخاري (٥٦٦٥)، ومسلم (٦٧٥١).
(٤) متفق عليه، رواه البخاري (٣٠٤٨)، ومسلم (٦١٤٩).
(٥) رواه مسلم، (١٠٢٨).

وهكذا كان أصحابُ النبيِّ ﷺ والسلفُ الصالح رضوان الله عليهم أجمعين، يطعمونَ الطعامَ، ويقدمونَه على كثيرٍ من الأعمالِ، وهم بجانبِ ما ينالون من أجرٍ وثوابٍ، فإنهم يكسبونَ قلوبَ إخوانِهم ويتوددونَ إليهم، والنفوسُ جبلتْ على حبِّ من أحسنَ إليها، وبذلك تقوى على الأخوةِ، ويزدادُ الحبُّ في الله تعالى رسوخًا ومتانة.

وإياك أخي أن تتبعَ صدقتَك بالمنِّ والأذى، والسمعةِ والرياء، فإنَّ ذلك يبطلُ الصدقة، ويمحقُ ثوابَها ويرودُك الموارد المهلكة، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [البقرة: ٢٦٤].

لأن المنَّ فيه نزعةُ لؤم، وشهوةٌ خسيسة، لأن المنان تستهويه رغبةٌ في الاستعلاء والتكبر، أو رغبةٌ في إذلالِ المسكينِ المتصدقِ عليه، أو رغبةٌ في السمعةِ والرياء، فإنفاقه إذًا ليتوجه الناسُ إليه ويثنوا عليه، لا لوجهِ الله تعالى.

إن قلبَ المنانِ قد غلفَ بالرياء، وأحاسيسُه لم تذق نداوةَ الإيمانِ وبشاشته، شبه ربُّنا قلبَه بالحجرِ القاسي الأملسِ قد غطي بترابٍ خفيفٍ، يحجبُ قسوتَه وصلادَته عن أعينِ الناسِ، ولكن إذا أصابه المطرُ فإنه سينكشفُ للناظرينَ بقسوتِه وجمودِه وصلادتِه، وإذا به لا يثمرُ ولا ينبتُ زرعًا.

ولذلك فإن المتصدقَ المرائي المنان توعدَه الحقُّ عز وجل بعذابٍ أليم، كما جاءَ على لسانِ النبيِّ ﷺ، فيما يرويه أبو ذر رضي الله عنه: (**ثلاثةٌ لا يكلمُهم اللهُ يومَ القيامةِ ولا ينظرُ إليهمْ ولا يزكيهمْ ولهمْ عذابٌ أليمٌ**)، قال: فقرأها رسول الله ﷺ ثلاثَ مرات، قال أبو ذر: خابوا وخسروا من همْ يا رسول الله؟ قال: (**المسبلُ، والمنانُ، والمنفقُ سلعتُه بالحلفِ الكاذبِ**)[1].

(١) رواه مسلم، (١٠٦).

## مجاهدة النفس

كان ﷺ إذا دخلَ رمضانُ قال: (**الصِّيَامُ جُنَّةٌ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلاَ يَرْفُثْ وَلاَ يَجْهَلْ، وَإِنِ امْرُؤٌ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّي صَائِمٌ، مَرَّتَيْنِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ، يَتْرُكُ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَشَهْوَتَهُ مِنْ أَجْلِي**)[١].

رمضانُ فرصةٌ عظيمةٌ لترويضِ النفس، فالصائمُ مأمورٌ بأن لا يرفثَ ولا يجهلَ ويضبطَ أخلاقَه، حتى وإن قاتله أو شاتمه أحدٌ فليَذكِّر نفسَه بتلك الحقيقةِ، ويقول: إنِّي صائمٌ، وفي الصيامِ يعوِّدُ الإنسانُ نفسَه على تركِ بعضِ المباحات لله، فيتركُ طعامَه وشرابَه وشهوتَه لله تعالى، فيفطمُها على هذه المحبوباتِ وهي أصلُ مجاهدةِ النفسِ.

فـ(أصلُ مجاهدةِ النّفسِ فطمُها عن المألوفاتِ، وحملُها على غيرِ هواها، وتمامُ المجاهدةِ أن يكونَ متيقّظًا لنفسِه في جميعِ أحوالِه، فإنّه متى غفلَ عن ذلك استهواه شيطانُه ونفسُه إلى الوقوعِ في المنهيّات)[٢].

ورمضانُ فرصةٌ عظيمةٌ للصبرِ والمصابرةِ، ومجاهدةِ النفس، فالشياطينُ مصفدةٌ، والنفسُ منكسرةٌ، والروحُ متأثرةٌ، والناسُ من حولِك صيامٌ قيامٌ، إذًا فالأجواءُ والظروفُ كلُّها مهيئةٌ للابتعادِ وهجرِ المعاصي.

وقال المناوي: (إنما شُرِعَ الصومُ؛ كسرًا لشهواتِ النفوسِ، وقطعًا لأسبابِ الاسترقاقِ والتعبدِ للأشياءِ، فإنَّهم لو داوموا على أغراضِهم لاستعبدَتْهم الأشياءُ، وقطعتْهم عن اللهِ، والصومُ يقطعُ أسبابَ التعبدِ لغيرِه، ويورثُ الحريةَ من الرقِّ للمشتهياتِ؛ لأنَّ المرادَ من الحريةِ أن يملكَ الأشياءَ لا تملكُه، فإذا ملكته فقدْ قلبَ الحكمةَ، وصيرَ الفاضلَ مفضولًا، والأعلى أسفلًا)[٣].

فالصائمُ يلتزمُ ثلاثين يومًا بالانقطاعِ عن الطعامِ والشرابِ والشهوةِ طواعيةً وبإرادته، ويتحكمُ في انفعالاتِه، فلا يردُّ على سبابٍ وإهانةٍ، بل يتترَّس بقوله: إنِّي صائمٌ، وهي مدةٌ طويلةٌ كافيةٌ لإحداثِ التغييرِ المنشودِ إذا صدقت النوايا.

(١) متفق عليه، رواه البخاري، (١٨٩٤)، ومسلم (١١٥١).
(٢) فتح الباري (١١/ ٣٤٥- ٣٤٦)، بتصرف واختصار.
(٣) فيض القدير، المناوي، (٢٧٨/٤).

وإذا كان علماءُ النفسِ يشيرونَ إلى أن استمرارَ المرءِ على السلوكِ نفسه من ٦ إلى ٢١ مرةً يغرسُ الفعلَ في النفسِ ويحوِّلُه إلى سلوكٍ، فإنَّ بركةَ الزمانِ اليومَ بتَفَتُّحِ أبوابِ الجنةِ وتغليقِ أبوابِ النارِ، وضعفِ العدوِّ بتصفيدِ الشياطينِ حتى لا تصلَ إلى ما كانت تصلُ إليه قبلَ رمضانَ، وعمومِ العفوِ ليشملَ عتقاءً كلَّ ليلةٍ، كلُّ هذه بمثابةِ عواملَ مساعدةٍ فعالةٍ تجعلُ النتيجةَ أروعَ والتغييرَ أدومَ.

فيا أيها المسلم، بدلْ اهتمامَك وروض نفسَك، فإن النفسَّ لن ترضى إذا لم تروضْ؛ {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} [النازعات:٤٠-٤١].

وقد مدحَ ﷺ كلَّ من روضَ نفسَه فقال في شأنِ من يغضبْ سريعًا: (**لَيْسَ الشَّدِيْدُ بِالصُّرْعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيْدُ الَّذِيْ يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ**)[١]، فالذي يستطيعُ أن يروضَ نفسَه هو المستحقُّ للمدح.

ومجاهدةُ النفسِ من أنواعِ الجهادِ فقد قال ﷺ: (**الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ للهِ**)[٢]، فالنفسُ إذا كانت تهوى وتشتهي، والمرءُ ينهاها ويزجرها كانَ نهيُه إياها عبادةً لله تعالى يثابُ عليها.

والمرءُ إلى جهادِ نفسِه أحوجُ منه إلى جهادِ الكفار، فإنَّ هذا فرضُ كفايةٍ، وجهادُ النفسِ فرضُ عينٍ، ومَنْ جاهدَ النفسَ لا يكون محمودًا فيه إلا إذا غَلَب، بخلافِ جهادِ الكفارِ، فإنه كما قالَ جل وعلا: {وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء:٧٤].

وقد سارَ عمر رضي الله عنه على دربِ النبيِّ ﷺ في مجاهدةِ النفسِ وترويضِها ومحاسبتِها، فقال: (حاسبوا أنفسَكم قبلَ أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، وتأهبوا للعرضِ الأكبرِ على الله: {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ} [الحاقة:١٨])[٣].

فمنْ حاسبَ نفسَه قبلَ أن يحاسبَ خفَّ في القيامةِ حسابُه، وحضرَ عند السؤالِ جوابُه، وحسنَ منقلبُه ومآله، ومن لم يحاسبْ نفسَه دامت خسارتُه، وطالت في عرصاتِ القيامةِ وقفاتُه، وقادته إلى الخزي والمقت سيئاتُه.

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٥٧٦٣)، ومسلم (٦٨٠٧).
(٢) رواه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١٦٢١).
(٣) مختصر منهاج القاصدين، المقدسي (١٤٢/٤).

ومحاسبةُ النفسِ المؤمنةِ سمةٌ للمؤمنِ الصالحِ، والكيسُ من دانَ نفسَه وعملَ لما بعد الموت، والعاجزُ من أتبعَ نفسَه هواهَا وتمنى على اللهِ الأماني.

أخي القارئ: لابدَ في هذه الحياةِ من مجاهدةِ النفسِ، فالنفسُ أمارةٌ بالسوءِ، وقدْ تغرُّ الإنسانَ هذه الحياةُ الدنيا ومتاعُها وزخارفُها. فهكذا خلقَها الله تعالى، كثيرةُ الأمرِ لصاحبِها بالسوءِ، تستثقلُ تكاليفَ الإيمانِ، وتتوقُ إلى هواها من أصنافِ الشهواتِ، وأنواعِ الملذاتِ، من حلٍّ أو حرامٍ، فهي كالطفلِ الصغيرِ الذي لا يدري أن مصلحتَه في فطامِه عن رضاعِه.

وبجانبِ ذلك فقد خلقَ الله تعالى عند هذه النفسِ استعدادًا للتزكيةِ والتطهرِ، فكما أن فيها قبضةً من طينٍ، ففيها أيضًا نفخةً علويةً من روحِ ربها جل وعلا، تشدها دومًا إلى بارئِها وخالقِها، فهي وسطٌ بين الملاكِ الذي هو خيرٌ خالصٌ، وبين الشيطانِ الذي هو شرٌّ خالصٌ.

ومن ثَمَّ؛ فقد وصفَها خالقُها وصفًا دقيقًا، وقال لنا فيها: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} [الشمس: ٧ - ١٠].

فكما خلقَ اللهُ تعالى في النفسِ نوازعَ الشرِّ التي تشدُّها إلى الأرضِ، خلقَ فيها نوازعَ الخيرِ التي تشدُّها إلى السماءِ، وتَرَكَ للإنسانِ الخيارَ في الانضمامِ إلى أحدِ الفريقين، فريقِ الفلاحِ الذي زكَّى نفسَه وطهرَها بطاعةِ الله، وفريقِ الخيبةِ والخسرانِ الذي أهانَها ودسَّاها بمعصيةِ الله.

ولا يتمُّ للسالكِ إلى الله انتسابُه إلى حياةِ النورِ حتى يأخذَ بحجزِ نفسِه عن شهواتِها، ويفطمُها عن ملذاتِها، وينصرُ ربَّه على نفسِه، فيستحقُّ من بعدِها أن يكونَ ممن رحمهم الله.

فأماتَ أنفسَهم الأمارةَ بالسوءِ، وأبدلَهم بها أنفسًا مطمئنةً، تهوى طاعةَ ربها ومراضيه، وتنفرُ من معصيتِه ومساخطِه، لتسمعَ النداءَ العلويَّ الجليلَ في ساعةِ الرحيلِ: {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي} [الفجر: ٢٧ - ٣٠].

فما أحرانا بالمحاسبةِ مع أنفسِنا، وما أحرى وأحقُّ أن يقفَ المسلمُ مع نفسِه بذلك مذكرًا لها، ومحاسبًا إيَّاها عما أسلفته بحقٍّ وصدقٍ معاتبًا لها: وَيْحَكِ أيتها النفس! ما دورك؟! وما أشدُّ غفلتَك وسِنَتَكِ؟! ما موقفُكِ من فرائضِ الإسلام، وشرائعِ الدينِ وقضاياه، وما يتطلبُه من جدٍّ وتضحياتٍ؟ قال مالك بن دينار: رحم اللهَ عبدًا قال لنفسِه: ألستِ صاحبةَ كذا؟ ألستِ صاحبةَ كذا؟ ثم ذمَّها، ثم خطمَها، ثم ألزمَها كتابَ الله تعالى فكانَ لها قائدًا.

فلنجعلْ من رمضانَ وقفةً مع النفسِ، ومحطةً لترويضِها، فنعوِّدُ حواسَّنا على الطاعةِ، نعوِّدُ العينَ على النظرِ في المصحفِ، ونمنعُها من النظرِ إلى المحرماتِ، نعوِّدُ آذانَنا على سماعِ القرآنِ وعلى سماعِ العلمِ، ونمنعُها من سماعِ المحرماتِ، نعوِّدُ ألسنتَنا على إدمانِ الذكرِ والإكثارِ منه، ونعوِّدُه على الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ، نروضُه أن يقولَ الصدقَ وأن يبذلَ النصيحةَ للمسلمينَ؛ لأن هذه الحواسَّ إنما هي منافذُ للقلبِ.

فالعينُ توصلُ إليه النظرات، والأذنُ توصلُ إليه الكلمات، واللسانُ يوصلُ إليه السيئات، والإنسانُ مسئولٌ عن جوارحِه وحواسِّه هذه يوم القيامة، قال تعالى: {**إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا**} [الإسراء: ٣٦]، فلابد من تروضِيها استعدادًا لأن تكونَ لينةً منقادةً لك في رمضان، ويسهلُ عليكَ فيه قيادها.

ولابد من الصبرِ على التمرينِ، واليقينِ من أن اللهَ سيفتحُ عليكَ مع مداومةِ الوقوفِ ببابِه، فالزم البابَ واصطبر، والله سبحانه وتعالى كريمٌ شكورٌ، إذا رآكَ تجاهدُ فيه وتروضُ نفسَك على طاعته فلن يُضَيِّعك بل سيعينُك ويوفقُك، قال تعالى: {**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**} [العنكبوت: ٦٩].

إنَّ أعجبَ الأشياءِ مجاهدةَ النفسِ ومحاسبتِها، لأنها تحتاجُ إلى صناعةٍ عجيبةٍ، وقدرةٍ رهيبةٍ، فإن أقوامًا أطلقوها فيما تحبُّ؛ فأوقعتهم فيما كرهوا، وإن آخرين بالغوا في خلافِها حتى ظلموها ومنعوها حقَّها، وأثَّرَ لومُهم لها في تصرفاتِهم وتعبداتِهم، ومن الناسِ من أفردَ نفسَه في خلوةٍ وعزلةٍ أثمرت الوحشةَ بين الناسِ وآلت إلى تركِ فرائض، أو فضلٍ من عيادةِ مريض أو برٍّ والد.

وإنما الحازمُ المحكمُ من تعلمَت منه نفسُه الجدَّ وحفظَ الأصولِ، فالمحققُ المنصفُ هو من يعطيها حقَّها ويستوفي منها ما عليها، وإن في الحركةِ بركةً، ومحاسبةُ النفس حياةٌ، والغفوةُ عنها لونٌ من ألوان القتل صبرًا.

إن العبدَ المسلمَ لن يبلغَ درجة التقوى التي هي غايةُ الصوم حتى يحاسبَ نفسَه على ما قدمت يداه، وعلى ما يعقبُ عليه العزمُ في شئونِه في جميعِ الأمورِ، فينيبُ إلى اللهِ مما اجترحَ من السيئاتِ، ملتمسًا عفوَ الله ورضاه طامعًا في واسعِ رحمتِه وعظيمِ فضله.

## النبي ﷺ بعد رمضان

كانَ عملُ النبي ﷺ ديمةً، وأحبُّ الأعمالِ إليه أدومُه وإن قلَّ، ولهذا شرعُ صيامُ ستًّا من شوال، وكوفئ العبدُ عليها بأن كانت في الثوابِ كصيام الدهرِ كله.

قال رسول الله ﷺ: (**مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ**)[١].

قال العلماء: وإنما كانَ ذلك كصيامِ الدهر؛ لأن الحسنةَ بعشرِ أمثالها، فرمضان بعشرةِ أشهر، والستة بشهرين، والسرُّ من وراءِ هذا الثواب العظيم أفشاه الإمام المناوي حين قال: (خصَّ شوالَ لأنه زمن يستدعي الرغبةَ فيه إلى الطعامِ لوقوعه عقبَ الصومِ، فالصومُ حينئذ أشقُّ، فثوابه أكثر)[٢].

ولا يلزم في صيام أيامِ الستِّ أن يكونَ متتاليًا ولا أن يعقبَ يوم عيد الفطرِ مباشرة، بل يمكن صيامُها بعده متتابعاتٍ أو متفرقات، ولكنَّ الأفضل أن تصامَ متتاليةً كما قال الإمام النووي.

وصيامُ الستِّ هي من علاماتِ القبولِ، من عمل طاعةً من الطاعات وفرغَ منها فعلامةُ قبولِها أن يصلَها بغيرها، وعلامة ردِّها أن يُتبعها بمعصيةٍ، فهذه علامةُ القبولِ ونيلُ رضا رب العباد، وعلامةُ أن الله قبل كلَّ مجهودٍ بذلتَه في رمضان، وإلا كان عملك مردودًا وسعيك خائبًا.

ولقد علَّم النبيُ ﷺ علي بن أبي طالب؛ أن يقول: (**قُلِ اللَّهُمَّ اهْدِنِي وَسَدِّدْنِي وَاذْكُرْ بِالْهُدَى هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ وَالسَّدَادِ سَدَادَ السَّهْمِ**)[٣].

أي وتذكرُ حالَ دعائِك: الهدايةَ والسَّداد.

فالهدايةُ علمٌ: أما (**اهدني**): فتفهم ما تقولُ وتتدبرُ ما تدعو به، وتدركُ قربَك أو بعدَك عن الاستقامةِ، وتعرف جيدًا محطة الوصول، لأن هاديَ الطريقِ لا يضلُّ عنه أو يزيغ،

(١) رواه مسلم، (٢٨١٥).
(٢) فيض القدير، المناوي، (٢٠٨/٦).
(٣) رواه مسلم، (٧٠٨٦).

واستحضار هذا المعنى في قلبكِ يجعل الخشوعَ أقرب، وإجابةَ الدعاءِ أرجى ورحمة الله أدنى.

والسدادُ عزمٌ وعملٌ: (**وسدِّدني**): والتسديدُ أن تقومَ إرادتُه وحركتُه نحو الغرضِ المطلوب ليهجمَ إليه في أسرعِ مدةٍ يمكن الوصول فيها إليه كما أن مُسدِّدَ السهم يحرصُ على تقويمه حتى يستقيمَ، رميُه ويصيبَ هدفُه، وحين يتشرَّبُ قلبك هذا المعنى يكون عملَك مفعمٌ بالعزيمة، وإرادتك متشبعةٌ بالقوة، فيلبي الله طلبَك ويجيبُ دعاك.

وهكذا كان رمضانُ بابًا من أبوابِ الخير التي فُتِحت لك، فإن اغتنمتَه بحقٍّ فتح الله لك أبواب الطاعاتِ بعدَه، وإن انقطعت عما واظبت عليه في رمضان، فهذه علامةٌ على أنك لم تنهلْ من رمضان كما ينبغي، فقيِّم نفسكَ اليوم، واعرف نتيجةَ سعيك الرمضاني بحسبِ حالِك بعده، واسمع عقوبةَ مبدِّلِ نعمةِ الصومِ كفرًا إذا ارتدَّ على عقبيه بعد رمضان.

قال ابن رجب: (فأما مقابلةُ نعمةِ التوفيقِ لصيام شهر رمضان بارتكابِ المعاصي بعده، فهو من فعلِ من بدلَ نعمةَ اللهِ كفرًا)[1].

يقول سبحانه وتعالى: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ} [النحل: ٩٢].

قال قتادةُ: فلو سمعتم بامرأةٍ نقضت غزلَها من بعدِ إبرامِه لقلتم: ما أحمقَ هذه! وهذا مثلٌ ضربَه الله لمن نكثَ عهدَه.

والنكثُ حقيقتُه نقضُ المفتولِ من حبلٍ أو غَزْلٍ، واستعير النكثُ لعدمِ الوفاءِ بالعهدِ، كما استعير الحبلُ للعهدِ.

فمثل منْ ينقضُ العهدَ مثل امرأةٍ حمقاءٍ ضعيفةِ العزم والرأي، تفتلُ غزلَها ثم تنقضُه، وهو تشبيهٌ يفيضُ بالتحقيرِ والترذيلِ والتعجبِ، ويشوِّه الأمرَ في النفوسِ ويقبِّحه إلى القلوبِ، وهو مرادُ الله في هذه الآية، ليردعَ عبادهُ عن هدمِ ما بنوه وإلا ضاعتْ أعمارُهم!

(١) لطائف المعارف، ابن رجب، (٢٨٥).

(وما يَرضى إنسانٌ كريمٌ لنفسِه أن يكونَ مثلُه كمثلِ هذه المرأةِ الضعيفةِ الإرادةِ الملتاثةِ العقل، التي تقضي حياتَها فيما لا غناءَ فيه!)[١].

وإياك أن تعاملَ ربك معاملةَ التجارِ.. فتنشطُ في مواسمِ الأرباحِ فحسب!!

لكن قد يتعاملُ جمعٌ من الناسِ مع رمضانَ خارج إطارِ الزمنِ؛ فلا يصلونه بإخوانِه من شهورِ العام، ولا يرونَ أنه حلقةٌ في سلسلةِ الزمانِ المبارك، فينظرون إليه على أنه مجرَّدُ فرصةٍ لاكتنازِ الثوابِ والعبِّ من الحسنات، ويا ليتهم مع هذا يجتهدونَ في الحفاظِ على ما اكتسبوه منه، بل يسمحونَ للشياطينِ أن تسرقَ إيمانَهم وتسطو على حسناتِهم، فيرجعونَ بالإفلاسِ آخرَ العامِ بعد أن كانوا أغنى الأغنياءِ أوله، ذلك أنهم ظنوا أن مهمةَ الشهرِ قد انتهت بانتهائِه، وهي بالكادِ بدأت!!

ففي رمضانَ ها هو قد لانَ قلبُك، حضرُ دمعُك، خشعت جوارحُك، انتسبت إلى العُبَّادِ، تأدبتَ مع ربِّ العباد، وصارت الفرصةُ سانحةً أكثر من أي وقتٍ مضى لتدركَ الهدايةَ الدائمةَ وتحظى بكنزِها المنشود، والثمنُ: ثباتٌ في شوالَ، وإكمالُ الستين يومًا إلى التسعين.

أخي، إنما هو صبر أيامٍ معدوداتٍ، وصدِّقني بعدها العجبُ العجابُ، وظهورُ المعجزات وروعةُ التحولاتِ وإعلانُ ميلادِك الجديدِ، صبر هذه الأيام التسعينَ يعني اللحاق بقطارِ المتقين، إن طولَ فترة التغييرِ يؤدي إلى دوامِ التغيير وثباتِه، وفرصتك اليوم قد لا تتكرر، وإلا فأخبرني:

من يضمن لك الحياةَ لا أقولُ لكَ إلى العامِ المقبل بل إلى يومِ غد!!

من يفاوضُ ملكَ الموتِ عنك على تمديدِ أجلِك وتأخيرِ قبضِ روحك؟!

من أعطاكَ الأمانَ من نزولِ الموت؟!

فالآن الآن يا أخي، وإلا فإنما تقامر بعمرك!!

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٤ / ٤٨٦).

**وإياك وروغان الثعالب**: فحين يصل العبد الرباني إلى شطِّ الاستقامةِ يعلمُ أن الله قد استجابَ دعاءَه الذي ردَّدَه سبعَ عشرةَ مرةٍ في اليومِ والليلةِ وفي أشرفِ المواضع: صلاتِه، حين قرأ في فاتحة الكتاب: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} [الفاتحة: ٦].

أما تكرارُ هذا الدعاءُ باللسانِ بلا استقامة أحوالٍ وأفعالٍ فهو كوعدِ المنافق، لسانٌ حلو وعملٌ مُر!

يعطيك من طرفِ اللسانِ حلاوةً ويروغ منكَ كما يروغ الثعلبُ، قال عمر بن الخطاب وهو يعرِّف معنى الاستقامةِ ويحدِّدُ شروطَها: أن تستقيمَ على أمرِ اللهِ ولا تروغُ روغانَ الثعالب.

يقول سبحانه وتعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ} [فصلت: ٣٠ - ٣٢].

(إنهم المؤمنون، الذين قالوا: ربُّنا الله ثم استقاموا على الطريقِ إليه بالإيمانِ والعملِ الصالحِ والاستقامة عليها بحقها وحقيقتِها، الاستقامة عليها شعورًا في الضميرِ، وسلوكًا في الحياة، الاستقامةُ عليها والصبرُ على تكاليفها، أمرٌ ولا شك كبيرٌ، وعسيرٌ، ومن ثم يستحقُّ عند الله هذا الإنعامُ الكبير، صحبةَ الملائكةِ، وولاءِهم، ومودتِهم، وهم يقولونَ لأوليائهم المؤمنين: لا تخافوا، لا تحزنوا، وأبشروا بالجنةِ التي كنتم توعدونَ، نحن أولياؤكم في الحياةِ الدنيا وفي الآخرةِ، ثم يصورون لهم الجنةَ التي يوعدون تصويرَ الصديقِ لصديقِه ما يعلمُ أنه يسره علمَه ورؤيتَه من حظه المرتقب: لكمْ فيها ما تشتهي أنفسُكم ولكم فيها ما تدعونَ، ويزيدونُها لهم جمالًا وكرامة: نزلًا من غفورٍ رحيمٍ، فهي من عند اللهِ أنزلَكم إياها بمغفرتِه ورحمتِه، فأيُّ نعيمٍ بعد هذا النعيم؟)[1].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٦ / ٢٩٥).

وهاهو الصحابيُّ الجليلُ عبد الله بن حذافةَ السهمي يرسمُ لنا نموذجًا من الاستقامةِ مع أنه يتعرضُ لأشدِّ أنواعِ الابتلاءِ والمحنِ لكنه يثبتُ ويصبر حتى يبلغَه الله منزلةً عليا عنده سبحانه وتعالى: ففي إحدى المعاركِ التي خاضها جيشُ الإسلام على مشارفِ (قيسارية)، تكاثرتْ من حولِ عبد الله بن حذافة صناديدُ الروم؛ فاقتادوه أسيرًا إلى معسكرِهم، وجيء به وقد أثقلتْه القيودُ بين يدي ملكِ الروم.

قال الملكُ ـ وقد عرف مكانة عبد الله في المسلمين ـ: يا عبدَ الله، هل لك أن تتنصَّر فأقربُك مني وأزوجُك ابنتي؟ فيجيبه الصحابي المؤمن: فإن لم أفعل ذلكَ؟ قال الملك: الآن ترى.

وأمرَ به فصلبَ، وأمر أحدَ رماتِه المهرة فرماه بسهمينِ أحاطا برأسِه عن يمينٍ وعن شمالٍ، ثم اقتربَ الملك من عبدِ الله وقال: أفلا تجيبني إلى ما دعوتُك فتنجو بنفسِك؟ فيجيبه عبد الله: فإنْ لم أفعل؟ فيتمعرُ وجهُ الملك غضبًا ويقول: الآن ترى.

ويأمر بقدرٍ يغلي فيه الماءُ حتى يفور، ثم يؤمرُ بأسيرٍ فيقذفُ في القدرِ؛ فإذا عظامُه تلوحُ، ثم يقتربُ من عبد الله بن حذافة فيقول: أفلا تجيبني إلى ما دعوتُك فتنجو بنفسِك؟ فيجيبه عبد الله: فإنْ لم أفعل؟ فيشتط الغضبُ بملك الروم، ويأمرُ بقذفه في الماء المغلي.

فيقتاده الجندُ، فيبكي عبد الله؛ فتنفرجُ أساريرَ الملكِ عن بسمةٍ شامتةٍ وقد ظنَّ أن عبدَ الله يبكي جزعًا من الموتِ، فيصيحُ الملك في جندِه أن يردوه.

ويسأله شامتًا: أما كنت في غِنىً عن كلِّ هذا، لو أنك أجبتني إلى ما عرضتُه عليك؟ فيجيبه الصحابي المؤمن: كأنَّك أيها الملك، ظننتني بكيتُ جزعًا من الموتِ لا والله، ما بكيتُ جزعًا من الموتِ؛ ولكنني تذكرتُ أن ليسَ لي إلا نفسٌ واحدة أموت بها هذه الميتةَ في سبيلِ الله، وقد كنت أتمنى أن تكونَ لي ألفُ نفسٍ تموتُ هذه الميتةَ في سبيل الله، لا كما ظننت.

ويعجبُ الملكُ بشجاعةِ عبد الله ويميلُ إلى أن يطلقَ سراحَه، فيقول له: أتُقبِّلُ رأسي؛ وأطلق سراحَك؟ فيجيب الصحابي المؤمن: لا أفعلُ، فيقول الملك: وأطلق معك ثمانينَ أسيرًا من قومك؟

ويطرق الصحابي هنيهة، فلا يرى بأسًا أن يقبل رأسَ ملكِ الروم إذا كان في ذلك فَكُّ إخوانِه من الأسرى، فيقول للملك: أما هذه فنعم، ويتقدمُ منه، ويُقبِّلُ رأسَه، ويعود عبد الله بن حذافة السهمي والأسرى إلى المدينة، فلما رآه عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه احتضنَه وقبلَّ رأسَه.

وكان أصحابُ رسول الله صلوات الله وسلامُه عليه يمازحونَ عبد الله فيقولون له: تُقبِّلُ رأسَ عِلج[1] يا عبد الله؟ فيجيبهم: ما ضرني ما فعلتُ، وقد أطلق الله بتلك القبلةِ ثمانين أسيرًا من المسلمين، رضي الله عن عبد الله بن حذافة وأرضاه)[2].

## وهذه بعض الخطوات على طريق العمل:

**اجبر كسر الفريضة**: فالستُّ من شوال تقومُ مقامَ النافلةِ في جبرِ كسرِ الفريضة، فكلُّ ما خدش صيامَك الرمضاني من حرام تجبرُه ستٌّ من شوالَ، ومن منا صيامُه غيرُ مخدوشٍ؟! فهي كصلاة السنن تُكمِل بها ما حصَلَ في الفرضِ من خللٍ ونقص.

**خطِّط لخاتمتك**: ولك أن تنوي بمداومة صومِك بعد رمضان أنك تخطِّط للموتِ صائمًا فمن عاشَ على شيءٍ ماتَ عليه، وكان ممن خُتِم له شهيدًا صائمًا: عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه، فعن ابن عمر أن عثمانَ أصبح يُحدِّث الناسَ قبل موتِه بيوم: رأيتُ رسول الله ﷺ الليلةَ في المنام، فقال: يا عثمان، أفطر عندنا غدًا، فأصبح صائمًا وقُتِل من يومه.

**نشِّط صيامك**: فإذا جعلتَ من نوايا صومِك أن صيامَ ستٍ من شوال هو بمثابةِ جرعةٍ تنشيطيةٍ لازمةٍ لإطالةِ أثرِ الصيامِ الرائع، كان عملُك أعظم أجرًا وصومك أعمق أثرًا، وكما يأخذُ الطفلُ التطعيمَ ضدَّ مرضٍ من الأمراضِ، فكذلك هذه الجرعة الصيامية تجعلُ الصومَ أقوى مفعولًا في تطهيرِ القلبِ وإحداث التقوى.

(١) العلج: هو القويّ الضخم من الكفار.
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر، (٢/٢٩٦)، وسير أعلام النبلاء, الذهبي, (٢/١٥).

## العيد

العيدُ هو موسمُ الفرحِ والسرورِ، وأفراحُ المؤمنين وسرورِهم في الدنيا إنما هو بمولاهم إذا فازوا بإكمالِ طاعتِه، وحازوا ثوابَ أعمالِهم بوثوقهم بوعدِه لهم عليها بفضلِه ومغفرتِه، كما قال تعالى: {قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} [يونس: ٥٨].

و(سُمي العيدُ بهذا الاسم لأن لله تعالى فيه عوائدَ الإحسانِ، أي أنواعُ الإحسانِ العائدةُ على عبادةٍ في كلِّ يومٍ، منها: الفطرُ بعد المنعِ عن الطعامِ، وصدقةِ الفطر)[١].

قال رسول الله ﷺ: **(يا أبا بكرٍ إن لكلِّ قومٍ عيدًا، وهذا عيدُنا)**[٢].

والمسلمون ليسَ لهم إلا عيدان: عيدُ الفطر، وعيدُ الأضحى . فعَنْ أَنَس قَالَ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، وَلَهُمْ يَوْمَانِ يَلْعَبُونَ فِيهِمَا. فَقَالَ: **(قَدْ أَبْدَلَكُمُ اللَّهُ بِهِمَا خَيْرًا مِنْهُمَا: يَوْمَ الْأَضْحَى وَيَوْمَ الْفِطْرِ)**[٣].

وللعيدُ مغزى اجتماعيٌّ وإنسانيٌّ: أما مغزاه الاجتماعيُّ فهو ما يضيفُه على القلوبِ من أنس، وعلى النفوسِ من بهجة وعلى الأجسامِ من راحة، وما يدعو إليه من تجديدِ أواصرَ الحبِّ بين الأصدقاءِ، والتراحمِ بين الأقرباء.

ففي العيد تتقاربُ القلوبُ على الود، وتجتمعُ على الألفةِ، ويتناسى الناسُ أضغانَهم، يجتمعون بعد افتراقٍ، ويتصافون بعد كدرٍ.

ومن المغزى الاجتماعي في العيدِ تذكيرُ أبناءِ المجتمع بحق الضعفاءِ والعاجزين عليهم حتى تشملَ الفرحةُ بالعيد كل بيتٍ، وتعمُّ النعمةُ كلَّ أسرة، وإلى هذا المغزى الاجتماعي العظيم يرمزُ تشريعُ (صدقة الفطر) في عيدِ الفطر، ونحو (الأضاحي) في عيدِ الأضحى، إن في تَقديم صدقةِ الفطرِ ليلتَه إطلاقًا للأيدي الخيِّرة، فلا تشرقُ شمسُ العيد إلا والبسمةُ تعلو شفاهَ الناسِ جميعًا.

---

(١) حاشية ابن عابدين (٢/١٦٥).
(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٩٠٩)، ومسلم (٢٠٩٨).
(٣) رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح أبي داوود (١١٣٤).

أما المعنى الإنسانيُّ في العيدِ؛ فهو أنه يُشرِكُ أعدادًا لا حصرَ لها من أبناء الشرقِ والغربِ بالفرح والسرورِ في وقتٍ واحد، فإذا بالأمةِ تلتقي على الشعورِ المشتركِ بالغبطةِ، وإذا بأبناءِ الأمةِ الواحدةِ على اختلاف ديارِهم يشتركون في السراءِ كما يشتركون في الضراءِ، ففي العيدِ تقويةٌ لهذه الروابطِ الفكريةِ والروحيةِ التي يعقدُها الدينُ بين أبناءِ مختلفِ اللغاتِ والأقوامِ.

وإذا أردنا أن نكونَ مع النبي ﷺ يومَ العيدِ، فهذه جملةٌ من هديه ﷺ لنقتدي بها:

كان ﷺ يلبسُ في العيدينِ أحسنَ ثيابه كما قال ابن عمر[١]. وعن جابر رضي الله عنه قال: كان للنبي ﷺ جبةٌ يلبسها في العيدينِ ويومِ الجمعة[٢].

فينبغي للرجلِ أن يلبسَ أجملَ ما عنده من الثيابِ عند الخروجِ للعيد.

أما النساءُ فيبتعدنَ عن الزينةِ إذا خرجن؛ لأنهن منهياتٌ عن إظهارِ الزينةِ للرجالِ الأجانب، وكذلك يحرمُ على من أرادت الخروجَ أن تمسَّ الطيبَ أو تتعرضَ للرجالِ بالفتنة، فإنها ما خرجتْ إلا لعبادةٍ وطاعةٍ .. أفتُرَاهُ يصحُّ من مؤمنةٍ أن تعصيَ من خرجت لطاعتِه، وتخالفَ أمرَه بلبس الضيقِ والثوب الملون الجذابِ اللافت للنظرِ، أو مس الطيبِ أو نحوه؟!

ومن آداب العيد الاغتسالُ قبل الخروج للصلاة، فقد صحَّ في الموطأ وغيره أن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- كان يغتسلُ يومَ الفطرِ قبلَ أن يغدوَ إلى المصلى[٣]، وذكر النووي رحمه الله اتفاقَ العلماءِ على استحبابِ الاغتسالِ لصلاة العيد.

والمعنى الذي يُستحبُّ بسببه الاغتسالُ للجمعةِ وغيرها من الاجتماعاتِ العامةِ موجودٌ في العيد، بل لعله في العيدِ أوضح.

وكان ﷺ لا يخرجُ في عيد الفطرِ إلى الصلاةِ حتى يأكلَ تمرات؛ لما رواه أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كانَ لا يغدو يوم الفطرِ حتى يأكلَ تمراتٍ[٤].

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٥٩٣٨).
(٢) رواه ابن خزيمة (١٧٦٥).
(٣) الموطأ (٤٢٨).
(٤) رواه البخاري، (٩٥٣).

ويحرمُ صومُ يومي العيدينِ؛ لحديث أبي سعيد أن النبي ﷺ نهى عن صيامِ يومين: يومِ الفطر، ويومِ النحر[١].

وكان ﷺ يخرجُ للصلاة، ويأمر الرجالَ والنساءَ بالخروج، لقول أُمِّ عَطِيَّةَ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نُخْرِجَهُنَّ فِي الْفِطْرِ وَالأَضْحَى الْعَوَاتِقَ وَالْحُيَّضَ وَذَوَاتِ الْخُدُورِ، فَأَمَّا الْحُيَّضُ فَيَعْتَزِلْنَ الصَّلاَةَ وَيَشْهَدْنَ الْخَيْرَ وَدَعْوَةَ الْمُسْلِمِينَ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِحْدَانَا لاَ يَكُونُ لَهَا جِلْبَابٌ، قَالَ: (**لِتُلْبِسْهَا أُخْتُهَا مِنْ جِلْبَابِهَا**). والعواتِقُ جمع عاتق، وهي الأنثى أولُ ما تبلغُ، والتي لم تتزوجْ بعد، والخدورُ: البيوتُ، وقيل: الخِدْرُ: سترٌ يكون في ناحيةِ البيت[٢].

فما دامت الحُيَّض والعواتق، وذوات الخدور قد أُمِرن أن يخرجنَ لصلاةِ العيدِ؛ فلا شكَ أن من الأولى أن يؤمرَ الرجالُ شيبًا وشبابًا بالخروج لها، بل قد ذهبَ بعضُ أهلِ العلم إلى وجوب الخروج لصلاةِ العيد؛ لهذا الحديث، ولغيره من الأدلة؛ كقول الله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى} [الأعلى: ١٤ - ١٥]، قال بعضهم: المقصودُ في هذه الآية صلاةُ العيد.

وعن حكمةِ الصلاةِ في المصلى يقولُ الألباني رحمه الله: (إن هذه السنةِ ـ سنة الصلاة في الصحراء ـ لها حكمةٌ عظيمةٌ بالغةٌ: أن يكونَ للمسلمينِ يومان في السنةِ، يجتمعُ فيها أهلُ كلِّ بلدةٍ، رجالًا ونساء وصبيانًا، يتوجهون إلى الله بقلوبِهم، تجمعهم كلمةٌ واحدةٌ، ويصلونَ خلفَ إمامٍ واحدٍ، ويكبرون ويهللون، ويدعون الله مخلصينَ، كأنَّهم على قلبِ رجلٍ واحدٍ، وقد أمرَ رسولُ الله ﷺ بخروجِ النساءِ لصلاةِ العيدِ مع الناسِ ولم يستثنِ منهنَّ أحد، حتى أنه لم يرخصْ لمن لم يكنْ عندها ما تلبسُ في خروجها، بل أمر أن تستعيرَ ثوبًا من غيرها، وحتى أنه أمر من كانَ عندهن عذرٌ يمنعهن من الصلاةِ بالخروجِ إلى المصلى **(ليشهدنَ الخيرَ ودعوةَ المسلمين)**[٣].

(١) رواه مسلم (٢٧٣٠).
(٢) رواه مسلم، (٢٠٩٣).
(٣) صلاة العيدين في المصلى هي السنة، الألباني

وكان ﷺ لا يصلي نافلةً قبلَ صلاةِ العيدِ ولا بعدها، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ خرجَ يومَ العيدِ، فصلى ركعتين، لم يصلِّ قبلهما ولا بعدهما[١].

إلا إن صلى الناسُ العيدَ في المسجدِ فلابد ـ حينئذ ـ من صلاةِ ركعتينِ تحيةً للمسجد.

وكان ﷺ يصلي ثم يخطبُ في الناسِ، كما ثبت في الصحيحينِ من حديثِ ابن عمر، وأبي سعيد، وابن عباس رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ صلى قبلَ الخطبة[٢].

ويستحبُ للإمام أن يكبرَ في الصلاةِ سبعًا في الأولى، وخمسًا في الثانية، فقد ثبتَ هذا عن جماعة من الصحابةِ، والتابعين؛ كعمرَ وعثمانَ وعليٍّ وأبي هريرةَ وابنِ عباس وأبي سعيدٍ الخدري، وأبي أيوب الأنصاري، وزيدِ بن ثابت رضي الله عنهم، وغيرهم.

وكان ﷺ يخالفُ الطريقَ في الذهابِ والإيابِ إلى المصلى، عن جابر رضي الله عنه قال: (كانَ النبيُّ ﷺ إذا كانَ يومُ عيد خالفَ الطريق)[٣].

ومن آدابِ العيد التهنئةُ التي يتبادلها الناسُ فيما بينهم، أيًّا كان لفظُها، مثل قول بعضهم لبعض: عيدُكم مبارك، تقبَّلُ الله منا ومنكم. وما أشبه ذلك من عباراتِ التهنئةِ المباحة.

والتهنئةُ كانت معروفةٌ عند الصحابةِ، ورخّصَ فيها أهلُ العلم، كالإمام أحمد وغيره، وقد ورد ما يدل عليه؛ من مشروعيةِ التهنئةِ بالمناسبات، وتهنئةِ الصحابةِ بعضهم بعضًا عند حصول ما يسُرُّ، مثل: أن يتوبَ الله تعالى على امرئ؛ فيقومون بتهنئتِه بذلك، إلى غير ذلك. والآثارُ المنقولةُ عن الصحابة التي يحتج بها على أنه لا بأس أن يهنئَ الناسُ بعضهم بعضًا بالعيدِ آثارٌ عديدة.

ولا ريبَ أن هذه التهنئةَ من مكارمِ الأخلاقِ، ومحاسنِ المظاهرِ الاجتماعيةِ بين المسلمين.

ومن أرادَ معرفةَ أخلاقِ الأمةِ فليراقبْها في أعيادِها إذ تنطقُ فيها السجايا على فطرتها، وتبرزُ العواطفُ والميولُ على حقيقتِها، والمجتمعُ السعيدُ هو الذي تسمو أخلاقُه في العيدِ إلى أرفعِ ذروتها، ويمتدُ شعورُه إلى أبعدِ مدى.

(١) رواه البخاري (١٣٦٤)، ومسلم (٢٠٩٤).
(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٩٦٣)، ومسلم (٨٨٤).
(٣) رواه البخاري، (٩٣٤).

يوم كانتْ أمتُنا تتذوقُ طعمَ السعادةِ في مجتمعاتنا، كان الأخُ يفكر في ليلةِ العيدِ بجاره قبل أن يفكرَ بنفسه، ويقدمُ حاجةَ أولادِ صديقه على حاجةِ أولاده، هذا هو التعبيرُ الصادقُ عند سموِّ الأخلاقِ الاجتماعيةِ في كل أمة.

# أهم المراجع

## تفسير:

- محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

- عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م

- أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تفسير القرآن العظيم (ابن كثير)، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٩ هـ.

- عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، لطائف الإشارات (تفسير القشيري)، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر، الطبعة: الثالثة

- سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي، في ظلال القرآن، الناشر: دار الشروق - بيروت- القاهرة، الطبعة: السابعة عشر - ١٤١٢ هـ.

## حديث:

محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

- مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، حققه: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي.

- أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي، سنن أبي داود، حققه: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا – بيروت

- محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك الترمذي أبو عيسى، سنن الترمذي، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (جـ ١،٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (ج ٤،٥)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

- ابن ماجه أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجه اسم أبيه يزيد، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي.

- أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي، المجتبى من السنن المعروف بسنن الصغرى للنسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، ١٤٠٦ه – ١٩٨٦م.

- أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، مسند الإمام أحمد بن حنبل، حققه: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

- أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع، الحاكم في المستدرك، حققه مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١ه.

- أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهرام بن عبد الصمد الدارمي التميمي السمرقندي، مسند الدارمي المعروف بسنن الدارمي، حققه حسين سليم أسد الداراني، الناشر: دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ - ٢٠٠٠ م.

- سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي أبو القاسم الطبراني، المعجم الأوسط، حققه طارق بن عوض الله بن محمد عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار الحرمين – القاهرة.

- سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي أبو القاسم الطبراني، المعجم الكبير، حققه حمدي بن عبد المجيد السلفي، الناشر: مكتبة ابن تيمية – القاهرة.

- محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ التميمي أبو حاتم الدارمي البُستي، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان،حققه شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٤ه – ١٩٩٣م.

- أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني أبو بكر البيهقي، السنن الكبرى للبيهقي، حققه محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

- أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري، صحيح ابن خزيمة، حققه: د. محمد مصطفى الأعظمي، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت.

- مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني، موطأ الإمام مالك، صححه ورقمه وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، عام النشر: ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م.

- أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار، مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار، حققه: محفوظ الرحمن زين الله، (حقق الأجزاء من ١ إلى ٩)، وعادل بن سعد (حقق الأجزاء من ١٠ إلى ١٧)، وصبري عبد الخالق الشافعي (حقق الجزء ١٨)، الناشر: مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، (بدأت ١٩٨٨م، وانتهت ٢٠٠٩م).

- أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني، مصنف عبد الرازق، حققه: حبيب الرحمن، الناشر: المجلس العلمي- الهند، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣ه.

- أبو العباس شهاب الدين أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل بن سليم بن قايماز بن عثمان البوصيري الكناني الشافعي، إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

- أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الناشر: السعادة - بجوار محافظة مصر، طبعة ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

## شروح الأحاديث:

- ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك، شرح صحيح البخارى لابن بطال، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، دار النشر: مكتبة الرشد - السعودية، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

- أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، الناشر: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩ه.

- أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢ه.

- أبو الحسن عبيد الله بن محمد عبد السلام بن خان محمد بن أمان الله بن حسام الدين الرحماني المباركفوري، مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، الناشر: إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء - الجامعة السلفية - بنارس الهند، الطبعة الثالثة - ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.

- حمزة محمد قاسم، منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري، راجعه: الشيخ عبد القادر الأرناؤوط، الناشر: مكتبة دار البيان، دمشق - الجمهورية العربية السورية، عام النشر: ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

- زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن السَلامي البغدادي، ثم الدمشقي الحنبلي، جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، تحقيق: شعيب الأرناؤوط - إبراهيم باجس، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة السابعة: ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

- زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري، فيض القدير شرح الجامع الصغير، الناشر: المكتبة التجارية الكبرى – مصر، الطبعة الأولى، ١٣٥٦هـ.

- محمد بن صالح بن محمد العثيمين، شرح رياض الصالحين، الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض، ١٤٢٦هـ.

## التخريج والزوائد:

- أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق: حسين سليم أسد الدّاراني، الناشر: دار المأمون للتراث.

- محمد بن علان الصديقي، الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت

## كتب الألباني:

- أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم الأشقودري الألباني، صحيح الترغيب والترهيب، الناشر: مكتبة المعارف – الرياض، الطبعة: الخامسة.

- أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم الأشقودري الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض.

- أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم الأشقودري الألباني، صحيح الجامع الصغير، الناشر: المكتب الإسلامي.

- محمد بن عبد الله الخطيب العمري أبو عبد الله ولي الدين التبريزي، مشكاة المصابيح، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة الثالثة: ١٩٨٥م.

- أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم الأشقودري الألباني، صلاة العيدين في المصلى هي السنة، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة: الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

- أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني، صحيح السيرة النبوية، الناشر: المكتبة الإسلامية - عمان – الأردن، الطبعة: الأولى.

- أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني، صلاة التراويح، الدار العربية للعلوم-ناشرون، والمكتب الإسلامي للطباعة والنشر، طبعة: ١٩٨٥م.

## فقه:

- ابن عابدين، محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي الحنفي، رد المحتار على الدر المختار (حاشية ابن عابدين)، الناشر: دار الفكر-بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

## فتاوى:

- محمد بن صالح بن محمد العثيمين، مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، جمع وترتيب: فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، الناشر: دار الوطن - دار الثريا، طبعة ١٤١٣ هـ.

## كتب ابن تيمية:

- تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، عام النشر: ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

## كتب ابن القيم:

- محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، حادي الأرواح إلي بلاد الأفراح، الناشر: مطبعة المدني، القاهرة.

- محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثالثة: ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

- محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، الفوائد، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الثانية: ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

## كتب ابن الجوزي:

- جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تلبيس إبليس، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

- جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، صيد الخاطر، الناشر: دار القلم – دمشق، الطبعة الأولى: ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

## آداب ورقائق:

- فيصل بن علي البعداني، هكذا كان النبي ﷺ في رمضان، الناشر: البيان.

- عدد من المختصين بإشراف الشيخ/ صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي، نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة الرابعة.

- الحافظ ابن رجب الحنبلي، بغية الإنسان في وظائف رمضان، الدار العربية للعلوم-ناشرون، والمكتب الإسلامي للطباعة والنشر، طبعة: ١٩٨٤م.

- نجم الدين، أبو العباس، أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي، مختصر منهاج القاصدين، مكتَبَةُ دَارِ البَيَانْ، دمشق، طبعة: ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م.

- أبو عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج المَرْوَزِي، قيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر، اختصره العلامة أحمد بن علي المقريزي، الناشر: حديث أكادمي، فيصل اباد – باكستان، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

- مصابيح لا شموع، فريد مناع، دار الهدى للنشر والتوزيع – الأسكندرية، الطبعة الأولى ٢٠٠٩.

- زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي، لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، دار ابن حزم للطبتعة والنشر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

- سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي، هذا الدين، الناشر: دار الشروق - بيروت- القاهرة، طبعة ١٩٧٠م.

- أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، إحياء علوم الدين، الناشر: دار المعرفة – بيروت.

- سيد بن حسين العفاني، رهبان الليل - ليل المتهجدين وسحر المستغفرين، الناشر: مكتبة ابن تيمية - القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

## سيرة:

- صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، دار الهلال – بيروت، الطبعة الأولى.

- محمد فوزي فيض الله، صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، دار القلم، ١٩٩٦م.

- محمد الغزالي السقا، فقه السيرة، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: دار القلم – دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٧ هـ.

- أحمد راتب عرموش، قيادة الرسول ﷺ السياسية والعسكرية، دار النفائس، طبعة: ١٩٨٩م.

- أبو الحسن علي الحسني الندوي، السيرة النبوية، دار ومكتبة الهلال، دار الشروق للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨م.

- عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الثانية، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥ م

- أبو شهبة، محمد بن محمد، السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، دار الطباعة المحمدية، طبعة: ١٩٧٠م.

- مهدي رزق الله أحمد، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، طبعة: ١٩٩٢م.

- أحمد محمد العليمى باوزير، مرويات غزوة بدر، دار طيبة للطبع والنشر والتوزيع، طبعة: ١٩٧٨م.

- أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري، جوامع السيرة، تحقيق: إحسان عباس، الناشر: دار المعارف – مصر، الطبعة الأولى، ١٩٠٠ م.

## تاريخ:

- أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، البداية والنهاية، الناشر: دار الفكر، طبعة: ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م.

- د. عبد العزيز بن عبد الله الحميدي، التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، الناشر: دار الدعوة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى.

## تراجم وطبقات:

- شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، سير أعلام النبلاء، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م.

- أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى - ١٤١٥ هـ.

## متفرقات:

- محمد جمال الدين على محفوظ، المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية، دار الاعتصام للطباعة والنشر والتوزيع، طبعة: ١٩٨٦م.

# فهرس

مقدمة ٥
محمد ﷺ الخلْق والخُلُق ٦
فضل رمضان وبركته ١٢
مع النبي ﷺ في أول ليلة ١٧
حث النبي ﷺ على التقوى في رمضان ٢٢
النبي ﷺ ومحبة الله ٢٧
النبي ﷺ وتعليم الأمة صيام رمضان إيمانًا واحتسابًا ٣١
صيام الرسول ﷺ ٣٥
النبي ﷺ ... والقرآن ٤٢
طعام النبي ﷺ في رمضان ٤٨
النبي ﷺ وأزواجه في رمضان ٥٣
تعليم النبي ﷺ لأزواجه في رمضان ٥٨
تعليم النبي ﷺ لأمته في رمضان ٦٣
النبي ﷺ كان أجود الناس في رمضان ٦٧
النبي ﷺ وتعليم الأمة التوبة ٧٣
النبي ﷺ وتوجيهه للأمة بحفظِ الجوارح في رمضان ٧٩

| | |
|---|---|
| وسطيته ﷺ | ٨٣ |
| النبي ﷺ والجهاد في رمضان «غزوة بدر» | ٨٧ |
| تواضعه وزهده ﷺ في رمضان | ٩٣ |
| رحمتُه ﷺ بأمته | ٩٧ |
| جهاده ﷺ «فتح مكة» | ١٠٢ |
| اعتكاف النبي ﷺ | ١٠٨ |
| النبي ﷺ وليلة القدر | ١١٣ |
| النبي ﷺ وذكر الله | ١١٨ |
| قيام النبي ﷺ في رمضان | ١٢٣ |
| دعاء النبي ﷺ في رمضان | ١٢٨ |
| عمرة النبي ﷺ ورمضان | ١٣٢ |
| زكاته ﷺ في رمضان | ١٣٨ |
| مجاهدة النفس | ١٤٢ |
| النبي ﷺ بعد رمضان | ١٤٧ |
| العيد | ١٥٣ |
| أهم المراجع | ١٥٩ |
| فهرس | ١٦٧ |